طه وادي

عصر الليمون

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

إخــوانُ الصّفاء

أحسَّ نبضات قلبه تخفق بشدة ، وأنفاسه حارة ساخنة .. وعرق بارد يتصببُ من جبهته وصلعته الخفيفة . لعن الله العجز .. والسلالم العالية . لماذا تصرّ على السكن في الدور الرابع ياحسن ؟! .. سامحك الله .. هذه ليلتك .. لا داعي ... ضغط بشدّة على جرس الباب . الباب طراز كلاسيكي قديم . الضوْء يبدُو باهتاً خلف الشّراعة الزجاجية . هل معقول .. ؟ لا .. غير معقول . لابدّ أنه ... هذه ليلة عيد ميلاده الخمسين . هو الذي ذكرني بذلك . نظر حمدي الحسيني إلى ساعة يده في الضوء الشاحب . لم ير شيئاً ، لكنه يدرك تماماً أن الليل لايزال طفلاً .. الساعة لم تزدْ على العاشرة والنصف . لافتة نحاسية باهتة يعرف أنه مكتوب عليها بحروف طمسها الصدأ .. حسن الشاعر ـ صحفي .

فتح سميح عبدالمسيح الباب بهدوء مبتسماً :

ـ هذه طرقة زائر من زوار الفجر .. وليست طرقة صديق يادكتور حمدي .

تعانقا .. ودخلا إلى غرفة ، يصعب تحديد وصفها . ليستْ غرفة نوم .. ولاحجرة طعام .. ولا صالون . لكنْ بها شازلونج قديم ـ لايزال محتفظاً بقدرٍ من شموخه التليد ، مجموعة غير متناسقة من الكراسي الفوتيه والخيرزان والخشب ، مكتب عليه كومة غير منسّقة من الكتب وبعض جرائد ومجلات . في الوسط طاولة عليها زجاجة « جوني ووكر » أوْ .. جُون المشّاء ـ كما يسميه عبدالله عاشور ، وبعض الأطباق مغطاة بورق فضيّ ، لايحجب رائحة اللحم المشوي ، وزجاجة ماء ، وشامبنيرة مغطاة بها قطع ثلج .

عانق في البداية .. صاحب البيت .. وصاحب الليلة حسن الشاعر، الذي يحتفلون الليلة بمرور نصف قرن على مولده السعيد أو التعيس . قال وهو يعانقه : كل سنة وأنت طيب .. يا رجل ياعجوز !!

ـ سأظل شاباً ـ رغم أنوفكم جميعاً . لقد أنهيتُ فقط الخمس والعشرين سنة الثانية .. وبما أن الأولى عمر ضائع ..

صاح أدهم بدير : والثانية أكثر ضياعاً .

قال أحمد حلمي : إذن هذه أول ليلة لك على ظهر الأرض .. فلم لا تستبدل الويسكي بالمغات ؟!

ـ المهم أن توافق السيدة الوالدة .. ردّ أدهم .

بعد أن جلس حمدي الحسيني ، وشرب كوبيْن من الماء البارد ، حتى يروْى جسده المتلىء .. أخذ يغنّى بصوتٍ أجشّ :

الميّه ترْوِي العَطْشَانْ

وتطفّي نَارِ الحيْرانْ

أخد حمدي يتأمل شلة الحرافيش ـ أصدقاء العمر . أكبر ثروة في هذه الحياة أن يكون لك صديق . لا .. لا يكفي أن يكون لك زملاء .. أوْ معارف أو جيران . الصديق نوعٌ آخر من البشر . هؤلاء الإخوة الأصدقاء .. الدنيا ذهبتْ بهم شرقا .. وغرباً ، لكنهم لم يفترقوا منذ أيام الثانوية العامة .. بينهم رابطة ودّ قديم مثل خمر اسْكتلندا ، يزدادُ حلاوةً وسحراً كلما مرّتْ عليه السنون . المكان الأثير الذي يجمعهم ـ دائماً ـ هو شقة حسن الشاعر . ليس لأنه أكبرهم سناً ، لكنه أكثرهم استقراراً وواقعية ، بالإضافة إلى أنه أعزب .. يعيش في هذه الشقة منذ تخرّج فى الجامعة . كان يمكن أن يغيّرها بعد ذلك دون أن يدفع مليما واحداً. لا .. لن تكون رشوة . فحسن .. لا يقبل الرشوة أو الاستغلال ، وإنما ستكون هدية .. أوْ مجاملة من بعض معارفه .. وما أكثر معارف الصحفيين في بلادنا .. !! لكنه متزمت في أمور القيم والمبادئ . الشقة في حارة من حارات الدقي القديم . في تلك الأحياء الشعبية يجد حسن نفسه .. كيف ؟ .. الله وحده يعلم .. !!

الصديق الثاني هو الرائد أحمد حلمي : ضابط جيش متقاعد ، أصيب في حرب أكتوبر ١٩٧٣ .. ومتفرغ الآن للعبادة ورعاية أسرته التي تتكون من خمسة أبناء وزوجة . النزهة الوحيدة التي يمارسها هي الذهاب إلى القرية كلما أمكن ، لزيارة قبر والديْه .. ورؤية بعض أقاربه .

الثالث أدهم بدير .. أو الرفيق بديروف : يساري قديم كان يعمل مدرساً للغة الإنجليزية . غير أنه أبعد عن التدريس بعد اعتقاله أكثر من مرة ، وحُوِّل إلى وظيفة إدارية ، فاستقال وتعاقد للعمل في دولة خليجية . بعد حوالي عشر سنوات عاد ، وأصبح صاحب كازينو سياحي في شارع الهرم ، ويفكّر الآن في مشروع جديد ، حتى ينمّي ثروته بعد أن صار أباً لأربعة أطفال ، وأصبح خبيراً في عالم السياحة والتجارة والشطارة .

الصديق الرابع سميح عبدالمسيح : فنان تشكيلي .. رومانسي التكوين .. متّزن الشخصية . وجد أن الفنّ لايطعم خبزاً في هذا الزمان، فعمل رسّام كاريكاتير في مجلة « مساء الخير » .. وهو أعزب ؛ لأنه لا يقدر على قيود الزواج وأعباء الأسرة .

ـ لم يأت الزير عبدالله عاشور .. ؟ سأل أدهم ، وهو يشعل سيجارة مارلبورو بولاعة ذهبية .

أجاب أحمد حلمي وهو يعدُّ حبات مسْبحةٍ سوداء : لابد أنه في جولة من جولاته الفنية .. سبحان العاطي .

علّق حسن باسماً : يا ناس يا شرّ ...

عبدالله عاشور .. الصديق الخامس : كان يعمل مدرس فلسفة ، ويهوي كتابه القصة والرواية .. وقد التحق بقسم السيناريو والإخراج بمعهدالسينما في أكاديمية الفنون . متواضع الموهبة ، لكنه خفيف الظل، لذلك استطاع أن يكوّن صداقات كثيرة . اشترك - مصادفةً - في كتابة سيناريو فيلم عاطفي ، نال نجاحاً جماهيريا واسعاً بسبب جاذبية البطلة التي لعبتْ الدور الأول فيه . نسي كل شيء .. لأنه لايهمه أيّ شيء . المهم أن يكون ناجحاً .. والنجاح عنده يتمثل في النجومية والمال .. والتعامل مع الممثلات الفاتنات . من أقواله المأثورة .. « الدنيا خرافة جميلة .. يا صديقي .. !! »

د قّ جرس الباب .. جاء عبدالله وفي صحبته شابة جميلة في الثالثة والعشرين من عمرها تقريبا . صافحهم جميعا .. وقبّل حسن .. ثم قال بصوت مرح : سيداتي .. وسادتي إننا نقف على عتبة مرحلة مهمة من مراحل تاريخنا المعاصر .. اليوم ٢٠ يوليو .. .. عيد ميلاد الأب الروحي لشلة الحرافيش الأستاذ حسن الشاعر . بهذه المناسبة .. المناسبة التاريخية المجيدة ، حضرتْ معي النجمة الصاعدة .. والفنانة الواعدة .. الآنسة زيزيت ..

أخذ يصفق تحية للفنانة زيزيت ، وينحني أمامها بحركة درامية متأنية : المفاجأة الثانية يا إخواني - تأخر خطوة ، ثم عاد بلفة كان يخفيها في الصالة - زجاجة شمبانيا فرنسية من باريس .. من النوع

الذي كان يشربه شارل دي جول شخصيا .. أي والله .. شخصياً ، هدية متواضعة لأعظم مواليد برج السرطان .. الصحفي الكبير حسن أبو علي .

صفقوا له جميعا باستثناء زيزيت . قال حسن : شكراً يا عُبد .. أنت صديق عزيز بحق .

أخذ أدهم الزجاجة ، وبدأ يتفحصها بدقّة . تساءل ـ في دهشة ـ وهو ينفث دخّان السيجارة : هل أحضرت هذه الزجاجة من باريس رأسا .. ؟

قاطعه بسخرية : لا .. أحضرتها رقصاً .

ضحكوا من الأعماق ، بينما ابتسمتْ زيزيت ابتسامة رقيقة ، تبدو فتاة خجولة.. وجهها جميل ، يدل على قدر من الطيبة والبساطة. في عينيها سحر عميق .. شعرها أسود فاحم طويل ، يكاد يصل إلى خصْرها ، ويعدّ أحد مفاتن شخصيتها . قدّها غير ممتلئ .. وغير ضامر ، ليستْ بالطويلة .. ولا القصيرة . تلبس فستاناً أزرق ، لايخفى ملامح رقبتها المرمرية أوْ ذراعيها وساقيْها المرتويين .

ـ الآنسة زيزيت فنانة في التمثيل أم الغناء ؟ سأل أحمد .. وهو يحاول ألا ينظر إليها .

قبل أن تنطق.. قال عبدالله: زيزيت فنانة شاملة ياسيادة الرائد. العالم تغيّر .. نحن في عصر الهندسة الوراثية والكمبيوتر والأقمار

الصناعية . انتهى العصر الذي كانت فيه الممثلة ممثلة .. والمغنية مغنية .. والراقصة راقصة ..

قاطعه حمدي : الله يرحم أيام زمان ...

أكمل سميح : وليالي زمان .. كمان وكمان .

علق أدهم ببرود : السرعة سوف تسبب للناس الجنون . كل شيء اليوم على طريقة Take Away .

قال عبدالله : صدقتم كلامي .. الدنيا خرافة جميلة ؟!

أكمل وهو يتأمل زيزيت بإعجاب : بمناسبة الجميلة .. تعالوا نرحّب بالفنانة الجميلة زيزيت .

ردتْ في خجل مُصْطنع : مرسي .. شيري .

أسرع كل منهم يبحث لنفسه عن كأسٍ فارغةٍ ، خاصة أدهم الذي لايحب أن يرى الكأس فارغة .. أو مملوءة . بينما تساءل أحمد : ألا توجد بيرة بدون كحول ، لقد حججت بيت الله .. ونويت ..

صاح سميح منتشياً : الحمد لله .. السيد المسيح يقول : قليل من الخمر يصلح المعدة .

علق أدهم : لا ياغشيم .. قليل من الخمر.. يصلح ما أفسده الدهر . !!

قال عبدالله : يا حاج أحمد .. ساعة لربك وساعة لقلبك ، حتى اسأل الدكتور حمدي .

ـ أنا طبيب أطفال .

قال حسن : ليتنا نعود أطفالاً .. !!

تساءلتْ زيزيت في براءة : لو عاد كل منّا إلى مرحلة الطفولة .. فهل سيختار نفس الطريق الذي انتهى إليه اليوم .. ؟!

ألقتْ قنبلة بقفّازٍ من حرير . صمت كل منهم فجأة ، كأنما يبحث عن إجابة للسؤال . سؤال زيزيت مثل أسئلة الأطفال سهلة جداً ، لكن الإجابة عنها صعبة جداً ـ بل مستحيلة أيضا . أحيانا يسأل الطفل أحد والديْه : من أين جئتُ .. ؟! وفي الغالب يتهرّب الوالدان من الإجابة .

قال حمدي : الإنسان مسيّر .. كل شيء مقدر ومكتوب ، حتى قبل أن يأتي إلى الدنيا .

ردّ أحمد : لا .. لا .. الإنسان مخيّر ، لذلك يحاسبه الله على ما فعل .

قال الرفيق بديروف ـ وقد تذكّر بعض أفكار ماضيه الذي كاد ينساه : نعم .. الإنسان له إرادة حرّة ، ويستطيع أن يغيّر ويطور كل الأمور . إذا كان الإنسان قد صعد إلى القمر ، وشقّ الجبال ، وعرف ما في أعماق البحار ، فهل يعجز عن فهم طبيعته وتحسين حالته ؟!

قال حسن بهدوء .. وهو يرشف رشفة سريعة من كأس الشامبانيا : تلك هي المأساة الإنسانية .. !!

صاح عبدالله : ياعالم ياغاويين نكد .. ليلة تاريخية تبـدؤونها بمأساة .

ردّ سميح : الحياة ليستْ فيلما سينمائيا ياصديقي ..

أكمل أحمد : خاصة في هذه الأيام السوداء .

قال أدهم وهو ينزل الكأس من على شفتيْه ، ويستعدّ للتدخين : ياعباد الله الدنيا حلوة وجميلة . ثم التفت إلى زيزَيت : وأحلى ما في الدنيا جمالكِ يا جميلة .

استخف عبدالله الطرب ، فوضع الكأس على المائدة .. وبدأ يغنّي :

جـميـلْ جَمـالْ   مالُـوشْ مِـثالْ
صـدقِ اللّي قـالْ   زيّ الغَـزالْ

أخذوا جميعا يصفّقون ، ويرددون وراءه . عدا الرائد أحمد الذي التزم الصمت .

ـ أشكر صديقي عبدالله على تشريفك الليلة يا مدموازيل زيزي .. قال حسن .

أردف عبدالله : على فكرة الأستاذ حسن صحفي كبير .. أرجو أن يكون في عينيْه نظر ، ويكتب عنك في يومياته القادمة ..

أكمل الدكتور حمدي مبتسما : وإذا رزقت بأطفال فعيادتي تحت أمرك .

ردّ سميح : ادعُ الله أن يرزقها أولاً بابن الحلال .. يا رجل ياطيّب .

قال أحمد : الزواج نصف الدين .

ردّ أدهم : لا .. الزواج مقبرة الطموح .

تساءل حمدي : لم أنت متشائم هكذا .. ؟!

قال حسن : كلٌّ ميسّرٌ لما خُلق له .

صاح عبدالله : خذوا الحكمة من عاشور قلب الأسد .. الزواج تهذيبٌ وتأديبٌ وإصلاحٌ .

تساءل سميح : إذن لماذا لم تتزوّج من أجل التهذيب والتأديب .. ياقليل الأدب ؟

ضحكوا .. بينما ردّ عليه عبدالله بضيق : أنا متزوج القضية .. أنا فنان ياغشيم .

ـ الأكل والشرب ينسى الناس أيّ قضية .. حدث تاريخي .. سوف تأكلون لحماً مشوياً .. كلوا قبل أن ينقرض عصر اللحم الأحمر . قال حسن وهو يحضر أطباق اللحم والبطاطس المحمرة والسلطة الخضراء .

قال أدهم .. وهو ينظر باشتهاء ناحية زيزي : أنا أحب اللحم الأبيض المتوسط .

ـ قبل أن تأ كلوا ـ قال عبدالله : اشربوا شامبانيا .. في صحة أخينا حسن الشاعر .. وعذراء الشاشة الفنانة زيزيت .. شامبانيا .. كأس لكل مواطن . اشربوا وادعوا للعبدلله .. الحياة خرافة جميلة ياصديقي . !!

بعيداً .. شطح خيال حسن ـ وهو يتناول قطعة من اللحم المشوي. السيدة التي صنعت هذه الوجبة الشهية من الصعب .. بل من المستحيل أن تحضر معه هذه الليلة التاريخية . امرأة متزوجة وزوجها مسافر خارج الوطن .. ماذا يقول الجيران .. والأصدقاء .. وكل الناس ؟! لايهم حسن كلام الناس .. الأهم أن ضميره لا يسمح بهذا العبث . قيم المجتمع لابد أن تُحترم . ما يحدثُ في الخفاء يجب أن يتمّ في النور . النفاق خيانة .. والخيانة بداية .. بداية النهاية .. !!

وقف الدكتور حمدي حيث تكون زيزيت في المواجهة مباشرة . رغم أنه طبيب أطفال ناجح ، فإن عالم الفن والصحافة والأدب يمثل أفقاً يتمنّى الاقتراب منه والتعرّف عليه . وربما كانتْ هذه الرغبة سرّ احتفاظه بشلة الحرافيش ولاسيما حسن الشاعر ؛ لأنه ـ فيما يرى ـ أكثرهم صفاء ونقاء . يُصغى في أثناء زياراته إلى كلام حسن كثيراً ، ليستمع إلى تحليلاته الواقعية وآرائه المنطقية فيما يدورُ من أحداث سياسية . تمنّى أن تكون معه في هذه الليلة زوجته نسْرين .. لكنه لايحبذ ذلك كثيرا . لماذا .. لا يملك إجابة واضحة . كيف تجرؤ زيزيت

الشابة الفاتنة على ما لاتقدر عليه زوجته .. ؟! كثير من الرجال الشرقيين يرغبون في التعرّف على امرأة متفتحة .. واعية .. مثقفة . ليس للزواج .. وإنما للصداقة والزمالة .. وإنْ جاء العشق أيضا فلا بأس . قضية المرأة بالنسبة للرجال في الشرق العربي قضية معقدة .. مركبة .. تحتاج إلى .. إلى ماذا .. ليس يدري .. !!

تأمل أدهم زيزيت ، ثم سأل : آنسة زيزي .. هل لك أخت جميلة مثلك ؟!

هاجس فطري جعلها تحسُّ أنها أمام رجل من فصيلة الذئاب .. أو الثعالب على الأقل : لماذا .. ؟!

قال وهو يتفرّس ساقيْها المرتويتين بدرجة أخجلت العذراء :

- عندي لها وظيفة محترمة .

علق عبدالله ساخرا بطريقة درامية : المسْتر أدهم خير من يعرف طُرق الوظائف المحترمة .

قال حمدي : الآنسة زيزيت لا يمكن أن يكون لها أخت .

- شكرا على هذه المجاملة الرقيقة .

قال سميح : الحياة بغير امرأة جميلة قبر موحش .

ابتسم حسن : نسيتم شامبانيا شارل دي جُول .. ياعبادالله .

- الشمبانيا سيدة المشروبات .. طعمها لذيذ ، شكلها جذّاب ،

تجعلك تنتشي دون سُكر .. علق أدهم ، وهو يتحسسُ شاربه الكثيف .

ضحك عاشور قائلا : الأستاذ بديروف بعد أن كان يتبنّى التفسير المادي للتاريخ ، أصبح يؤمن بالتفسير البرجماتي .

ضحكوا من الأعماق .. فقال أحمد : اللهم اجعله خيراً .

بدتْ زيزيت أكثر الموجودين دهشة ، لذلك كانت أكثرهم صمتا . لم تكن قادرة على فهم نوعية العلاقة التي تربط بيْن أديب صحفي ، وطبيب أطفال ، ورسام كاريكاتير ، وكاتب سيناريو ، ورجل أعمال ، وضابط متقاعد . شغلتْ نفسها بتأمل جدران الغرفة العارية من أية لوحة .. سوى صورة تمثال إلـه الموت عند الفراعنة « إنبو » على شكل ثعلب باسط ذراعيه على نعش خشبيّ مرتفع .. بهت إطار الصورة .. وبدتْ مائلة قليلاً ناحية الشمال .

قال أحمد هامسا- حين ذهبتْ زيزي لدخول الحمام : لماذا لا تتزوج هذه القطة الشقراء ياعبدالله ؟

- أنا فنان ياصاحبي .. والفنان عصفور .

قال أدهم : الزواج أصبح موضة قديمة ياحاج أحمد .. لابد من البحث عن صيغة جديدة للعلاقة بين الرجل والمرأة في عصر الإنترنت والهندسة الوراثية .

- ليست كل أمور الحياة قابلة لمثل هذا التطور .. قال حمدي .

- يبدو لي أن إقامة أسرة .. أمرٌ له علاقة قوية بالأديان .. ردّ سميح .

عادتْ زيزي .. وقد جددتْ تسريح الشعر وشكل المكياج ، فبدا جذاباً لون الروج الغامق على شفتيْها المكتنزتيْن ، ورائحةُ عطرٍ فوّاح .. أكسبت الحجرة جواً مُنْعشا .

قال حسن مبتسما : شرفتِ بيْتي المتواضع يا آنسة زيزي .

- عيد ميلادك .. صار مناسبة تاريخية - قال عبدالله - أرأيت كم أنت غالٍ عندي ؟

قالت زيزي : كلام .. كلام .. هل أنتم في برلمان بيزنطا ؟

ردّ أدهم : عالم غاوية نكد .. لا تعرف الفرق بين بيزنطا وطنطا .

- ألا توجد موسيقي ؟ .. تساءلت زيزيت .

- ليس عندي سوى أغاني أم كلثوم .. وبعض أعمال بتهوفن .

- لاتوجد أغاني شبابية .. ياجدُّو حسن .. ؟ أضاف سميح ساخراً .

خيّم صمت جنائزي .. وهم يسمعون إحدى سيمفونيات بتهوفن . أخذ كل منهم يسرح في عالمه الخاص . غير أن حسن كان أكثرهم إحساساً بالرضا والسعادة . الصداقة .. كنز عظيم . هؤلاء الأصدقاء هم

الثروة التي يعتزُّ بها . كانوا زملاء في مدرسة المنصورة الثانوية منذ .. منذ ما يزيد على ربع قرن . ومع أن كلاً منهم له طريقه الخاص وفلسفته الذاتية ، فإنهم ظلوا أوفياء متماسكين .. مخلصين ، كأنهم إخوة أشقاء . كثير من أمور الحياة تُباع وتشتري .. أما حبُّ الناس .. وقلوب الناس .. فهذه أمور خاصة ـ خاصة جداً . الحبُّ يصنعُ المعجزات .. نحن نستقبل من البشر ما نرسل إليهم .. !!

قدّم عبدالله قطعة من اللحم إلى زيزي ، وهو يتأمل ـ في صمت ـ أصدقاءه . وقال لنفسه : هذه شخصياتٌ تبحث عن مؤلّف ، وأنا أقرب الناس إليهم ، فهل أقدر على كتابة رواية تعبّر عنهم جميعا ؟ إنّهم نماذج إنسانية تعسة ، تعكس أزمة الإنسان العربي في عصر الانفتاح والصلح مع إسرائيل . الوحيد ـ الذي استطاع أن يغير جلده بسهولة ـ هو أدهم بدير ، الذي تحوّل من مفكر يساري إلى رأسمالي انفتاحي .. يهتمّ بكسب المال من أي طريق .. وبأية وسيلة . الكازينو الذي يملكه في شارع الهرم يقدّم للزبائن كل ما يريدون .. المهم أن يدفعوا بأية عملة . في الماضي كان يعتقد بأهمية الثبات على المبدأ .. اليوم أصبح يؤمن بضرورة الحصول على المال . من يملك يقدر .. ومن يقدر يحكم .. ومن يحكم يتحكّم . من يصدق .. أدهم كان أبوه عاملاً في مطعم فول وطعمية .

التقت أعينهما مصادفة ، فقال له عبدالله : مساء الخير .. يا أدهم بيه .

- تقصد صباح الخير يارجل .. الساعة الآن الثانية بعد منتصف ليل القاهرة .

قالت زيزي : لقد تأخرت .. ليس من عادتي .. أمي لاتنام إلا بعد أن تطمئن عليّ . إذا كنت تريد البقاء يا أستاذ عبدالله .. فيمكنني أن أركب تاكسي وحدي . لا أريد أن ..

صنعت الفنانة الصغيرة .. نهاية غير متوقعة لليلة جميلة .

قال حسن مودعاً : أشكر صديقي العزيز الذي عرّفنا بك . لولاك لم يكن لليلة طعم ..

أكمل عبدالله - وهو يتأمل جسم حسن النحيل ، ووجهه القمحي، وملامحه الطيبة ، وشعره المتموّج .. الذي بدأ الشيْب يظهر فيه برفق : ولا لون ولا رائحة .

قال حمدي وهو ينظر بإعجابٍ إلى زيزي : أرجو أن تكون هذه بداية صداقة .. ومعرفة خير .

ردّتْ على الفوْر : بشرط أن تصحب معك المدام في المرة القادمة .. يا دكتور .. !!

فى مهب الرياح

في حارة من الحارات الشعبية المتفرعة من ميدان الجيزة العتيق ـ جلس الدكتور حمدي بعد أن تناول إفطاراً خفيفاً .. في انتظار كوب من الشاي ، ذهبتْ لتأتي به زوجته نسرين . اليوم .. السبت موعد إجازة البنك الذي تعمل فيه . وضعت الشاي وجلست أمامه صامتة . تلبس روب نوم أبيض .. أضفي عليها هدوءا ملائكيا . هذه المرأة سيدة فضلى ، أعْطته كل ما يريد ـ دون أن تطلب لنفسها شيئا في يوم من الأيام . ثمة فارق كبير بين الزوجة والبغيّ . الزوجة تبنى وتحافظ وتتسامح وتعطي .. أما البغيّ فهي تريد أن تأخذكل شيء في لحظة واحد ة ـ المهم أنْ ترضى نزواتها العا ئة ، حتى لو صَعد الرجل بعد ذلك إلى الهاوية . لا يزال يذكر ما حدث منذاما يقرب من خمس عشرة سنة ، رآها مع أختها الكبرى أسماء .. حين جاءت للكشف علي طفلها المريض في عيادته الخاصة . أعجب بجمالها وهدوء طبعها

واتزان شخصيتها . تمت إجراء ات الزواج سريعاً . رزقهما الله بابنتيْن توأميْن : إيمان وأماني . لم تفلح مناورات أمّ حمدي .. في أن تقنع الزوجة بأن تحاول الإنجاب مرة أخرى ، حتى يكون لابنها ولد .. يحمل اسمه . لكنّها أصرت ، حتى تتفرغ للعمل محاسبة في بنك مصر.

قطعت الزوجة شطحات زوجها متسائلة : لم تأخرت ليلة أمس ؟

- تعرفين .. الأصدقاء الستة لا يجتمعون إلاّ نادراً.. وإذا اجتمعوا.. فإنّهم ينسون كل شيء .

- كيف حال حسن ؟

- بخير .. أحسُّ أنه يمرُّ بأزمة .

- قال لك شيئاً ؟

- لا .. مجرّد إحساس .

- لم يكن معكم نساء ؟

كان السؤال مباغتاً ، فتشاغل بأنه يبْتلعُ رشفة من كوب الشاي. ليس من عادته .. أن يكذب على أحدٍ ، فكيف يفعل ذلك مع زوجته . قال : نعم .

استراحتْ لصراحته .. لكن الإ جابة فتحت باباً جانبيا : من هي .. لا .. من هنَّ .. ؟!

- ممثلة جديدة٨.. صديقة عبدالله عاشور .

ازدادتْ نبراتُ صوتها حدّة .. وهي تقول بانفعال : تدعون أنكم تجتمعون عند حسن للكلام في السياسة والثقافة ، لكن ..

ـ نانا .. البنات قد يسمعن هذا الكلام السخيف .

ـ أعرف .. الحقيقة دائما مُرّة .

ـ لا مرة .. ولا حلوة ، ذهبتُ لزيارة صديق ، وجاءتْ امرأة .. هل أغادر البيت من أجل خاطرك ؟

ـ لا تغضبْ .. أنا واثقة .. مجرد شكوك .

ـ لايجوز أن تشك امرأة في زوجها بعد عِشْرة .. خمس عشرة سنةً .

ـ من تحبّ زوجها .. لابد أن تغار عليه .

جاءتْ إيمان وأماني من حجرتهما ، وأحاطا بالوالديْن . جلستْ إيمان بجوار أمها .. وأماني بجوار أبيها ، وبعد أن قبّلته قالت : شهر يوليو انتهى .. لا نعرف متى .. ولا أين سنقضى الصيف هذا العام . ؟!

إيمان وأماني صبيّتَيْن في حوالي الرابعة عشرة ـ في السنة الأولى الثانوية ، متشابهتان بدرجة واضحة في كل شيء ، لذلك لايستطيع كثير من المعارف أنْ يُفرّق بينهما .

قالت إيمان : لماذا سكتّ يادادي .. ؟!

- ماما وزيرة المالية .. .وصاحبة القرار .

قالت الأم مبتسمة : عندي مفاجأة .

ردّ الأب مندهشا : خيراً .

- البنك سوف يعطينا هذا العام مكافأة كبيرة ، لذلك ..

- لذلك إيه يا ماما .. ؟ تساءلت أماني .

- سنذهب هذا العام إلى .. شاطئ الغرام .

قالت إيمان : مرسي مطروح يا ماما.. ؟! .

- بشرط أن يوافق بابا .. ويعطينا إجازة من مصيف رأس البرّ ، الذي نذهب إليه كل سنة .

- أنـا أب ديموقراطي . . . !

ذهبت الأم وبناتها إلى المطبخ لإعداد الغداء ، بينما بقي الدكتور حمدي مضطجعاً علي كنبة الأنتريه . حاول أن يتشاغل بقراءة عناوين الأخبار :

* اتحاد الصحفيّين العرب يطالب بترسيخ حرية الصحافة وحقوق الإنسان .

* مؤتمر القمة مستبعد في الوقت الحالي .. تصريح لأمين الجامعة العربية .

* إعلان استراتيجية بيْع الفنادق الكبرى في القاهرة .

* إسرائيل ترفض تجميد بناء المستوطنات ، وتغلق الحرم الإبراهيمي أمام المصلين.

* معركة جديدة بين الإرهابيّين وقوات الشرطة ومصرع بعض المواطنين في محافظة أسيوط .

* ضبط عصابة عالمية لتهريب الآثار الفرعونية بمساعدة اثنيْن من العاملين في الآثار .

* المنتخب المصري يستعد لدورة بطولة إفريقيا .

* القبض على لصيْن سرقا ٣٥ شقة بالقاهرة خلال ثلاثة شهور .

* اكتشافات طبية جديدة في مجال العلاج بالليزر .

* عاطل يقتل عمته بالساطور.. ويسرق أموالها .

* الراقصة أنغام .. تستعدّ لبطولة مسرحية استعراضية ، وترفع أجرها إلى ربع مليون جنيه .

* الجو حار .. وارتفاع ملحوظ في درجة الرطوبة .

لم يستوقفه أيّ عنوان في الجريدة .. فقام ودخل إلى حجرة النوم . أخذ إجازة في الصباح ، حيث يعمل في مستشفى الجيزة نائبا لرئيس قسم الأطفال . لكنه في المساء يعمل في عيادته الخاصة ، ولايستطيع أن يتأخر . بدت الحجرة ضيقة ـ رغم أنه لم يشعر بذلك من

قبل . أخذ ينقل بصره المرهق بين الشباك المغلق والباب المفتوح .. بين الدولاب والتسريحة والسجادة القديمة التي تغطي أرض الغرفة . زوجته حريصة جداً على نظافة هذه الحجرة وأناقتها .. كما أن كل شيء ينبغي أن يوضع في مكانه . رغم ذلك أحسّ رأسه مثل ساقية خربة . قراءة الجرائد تجعل الإنسان يشعر باكتئاب وقلق . ومع هذا .. لا يستطيع أن يفلت من قراءتها كل يوم .. !!

جاءت أماني ناحية الحجرة ، وأخذت تنادي : بابا .. بابا . ظنّتْ أنه نائم ، فأغلقت الباب بهدوء .

* * *

لايزال فكره مشغولاً بسهرة الأمس .. وبالأصدقاء الخمسة الذين يرتبط بهم ، مثلما يرتبطون به . كل منهم سار في طريق خاص .. ومع ذلك يلتقون دائمًا في بعض المناسبات والمواسم . كل منهم لا يزال محتفظاً بقدر كبير من النقاء والبراءة الريفية - ماعدا أدهم بدير ، الذي أصبح تاجراً ماهراً في عصر الانفتاح .. وصار الاشتراكي الملتزم رأسماليا ليبراليا . أما باقي الشلة فقد ظلوا على ما هم عليه .. حتى سميح عبد المسيح .. وعبدالله عاشور . عبدالله يبدو خفيف الظل حاضر البديهة سريع التعرّف على الناس ، لكنه من الداخل أبيض مثل اللبن الحليب . ومع أنه يعرف عن قرب كثيراً من المخرجين والممثلين والممثلات .. فإنه لم يحاول أن يكون انتهازياً - رغم أن سوق الفنّ السينمائي يسمح بذلك . كل ما حققه من نجاح كان بجهده الخاص

وعمله الدؤوب . أمرٌ جديد .. طرأ على عبدالله هو حضوره بالأمس مع زيزيت . صدفة أم أن بينهما شيئاً لا يعرفه .. ؟ البنت جميلة .. وذكية . المرأة حين تجمع بين الجمال والذكاء تقدر على عمل أيّ شيء .. بل تستطيع أن تهزم جيشا بألوية .

رأى نساء بعدد شعر رأسه ، لكن علاقته بالمرأة علاقة عادية .. بل ربما أقل من العادية . زوجته الطيبة المخلصة أغْنته عن كل نساء العالم . المرأة التي جذبت نظره بشدة - من أول نظرة - هي زيزيت . لكنها فتاة صغيرة .. صغيرة جداً ، لو تزوج يوم تخرّج ، لأنجب فتاة أكبر منها . أخذ يسترجع مفاتنها عضواً .. عضواً ، حتى كأنها لاتزال جالسة أمامه .. ومعه وحده . سبحان الله .. تبارك الخلاّق. ما هذه فتاة ، إن هي إلاّ ملك كريم . هل ما جذبه كونها باهرة الجمال .. أم أنه دخل مرحلة جديدة من مراحل المراهقة التي تصيب الرجال بعد الخمسين .. ؟!

شدّ سمعه صوت أم كلثوم يأتي من راديو قريب ، وهي تتغنّى بهذه المقطع من قصيدة « الأطلال » .. للشاعر إبراهيم ناجي :

ياحبيبي كلُّ شيْءٍ بقضاءْ	ما بأيدينا خُلقنا تُعساءْ
ربما تجمعُنا أقدارُنا	ذاتَ يومٍ بعد ما عَزَّ اللقاءْ
فإذا أنكرَ خِلٌّ خِلَّه	وتلاقيْنا لقاءَ الغُرباءْ
ومضى كلٌّ إلى غايته	لا تقلْ شئِنا ، وقلْ لي الحظُّ شاء

ثمة أمور كثيرة تحيّره .. لكن ما يشغله الآن هو .. دور الصدفة في حياة الإنسان . الإنسان كائن ضعيف لاحول له ولاقوة . يأتي إلى الحياة صدفة دون أن يعرف نوعية الجينات التي ورثها عن أبيه أو عن أمه . كما أنه ليس مسئولاً عن كون أبويْه من سلالة ملوك أو صعاليك .. من أصحاب بشرة بيضاء أو سوداء .. كما أنه غير مسئول ـ إلى حد كبير ـ عن نوعية العقيدة التي يرثها عنهما . الصدفة تلعب دوراً كبيراً في حياة الإنسان .. وربما في موته .. بل في معظم ما يحدث له طوال عمره .

الصدفة هي التي جعلت .. جابر بن حيان يكتشف علم الجبر .. والرازي يتوصل إلى طريقة التشريح .. وابن النفيس يكتشف الدورة الدموية .. وعباس ابن فرناس يتعرّف على طريقة الطيران .. وإسكندر فيلمنج يتوصل إلى علاج البلهارسيا .. ونيوتن يتوصل إلى قانون الجاذبية . الصدفة أيضا هي التي ربطتني بزوجتي . الصدفة مركز الدائرة في حياة الإنسان .. المهم أن يُحسن توظيفها .. !!

فتحت زوجته الباب بهدوء قائلة : الغداء جاهز .. يا بابا .

***

أيام الصيف مملة .. ولياليه أ كثر . لم يكن ثمة شيء غير عادي في حياة الدكتور حمدي . يذهبُ في الصباح إلى عمله الحكومي في مستشفى الجيزة . ويعود في الثانية بعد الظهر لتناول الغداء مع الأسرة . بعد نوْم الظهيرة يذهب إلى عيادته الخاصة ـ في شارع المحطة

.. ثم يعود في حوالي العاشرة ، حيث تتحلق العائلة ـ مثل معظم العائلات البرجوازية المحافظة ـ حول « صندوق العجب » .. الذي يعرض الليلة فيلم « صراع في الوادي » . زوجته نسرين تحب الأفلام القديمة كثيراً .. خاصة أفلام فاتن حمامة ، التي كانت مثلها الأعلى .. وهي فتاة مراهقة .

بقي يومان .. وتذهب العائلة إلى مصيف مرسي مطروح . كانت أماني وإيمان فرحتيْن بهذه الرحلة التي سيقومان بها لأول مرة . ذهبت الأم إلى عملها في بنك مصر ، بينما توجه الأب ومعه أماني لشراء بعض لوازم المصيف من الملابس والمأكولات الجافة .

جلستْ إيمان وحدها .. وهي تتخيل الأيام الجميلة التي ستقضيها في المصيف . سوف تسبح في مياه البحر الزرقاء الصافية .. وتلعب مع أماني الكرة . البنت لابد أن تكون رشيقة .. الرياضة نصف الرشاقة . رغم أنهما توأمان .. فإن أماني مواهبها علمية رياضية ، بينما إيمان تميل إلى الفن والأدب ، لذلك سوف تأخذ مجموعة من القصص والروايات ، لا من أجل التسلية ، لكن من أجل تغذية هوايتها الأدبية .. من يدري .. فهي تحلم أن تكون أديبة أو .. على الأقل صحفية مثل عمّو حسن الشاعر .. صديق والدها .

خفق قلب الصبية الصغيرة مع كل رنة تليفون . سأل عن الأب الرائد أحمد حلمي ، وسميح عبد المسيح . في صوت كل منهما نبرة حزن عميقة . الفتاة البريئة التي كانتْ تطير مع الأحلام منذ لحظات ،

صارت تحسُّ باختناقٍ شديد ، وانهارت باكية .. لاتدري ماذا تفعل .. وماذا تقول .. ؟!

لاتدري .. كم من الوقت مرَّ عليها ، وهي خائفة تترقب وصول أي أحد ، حتى ترتمي على صدره باكية . يخفف من لوعة الهمّ .. أن تبكي ، فالدموع قد تُخفف الأحزان . أما الكلام .. فهو أكثر راحة . لكن مع من تتكلم .. ومن يعرف مثل ما تعْرف ... ؟!

مضتْ مدة لا تعرف مداها . سبقت أماني أباها وقد أخرجت المايوه الأسود الذي اشترته لنفسها .. والمايوه الملوَّن الذي اشترته لأختها . قبل أن تتكلم أماني ارتمت إيمان على صدرها باكية .. وأخذت أنفاسها تضطرب بشدة ـ بدرجة أزعجت الوالد ، وظن أن أحد الأشقياء اعتدي عليها ، وهو في الخارج . كيف يحدث هذا .. والمنطقة كلها أمان ، والبيت أسرة واحدة ؟ الزمان اختلف .. كل شيء جائز في عصر الانفتاح .. والجماعات الإرهابية .. كثر الأشرار .. وتعددتْ أسماؤهم . لم يكن فكره المتعب قادراً على أن يتنبأ بشيء . هل خرجت إلى الشارع وحدث لها مكروه .. هل جاء أحد .. هل الأم أصابها مكروه .. هل .. هل .. ؟ هزّها بقوة صارخا .. وقد تصبب عرق جسده الممتلئ .. وابتلّ القميص الأبيض الذي يلبسه :

ـ إيمان .. إيمان .. ماذا جرى .. ؟

ـ لا .. لا ..

ـ تكلمي يا حبيبتي ..

لا تزال باكية تتشنّج : فظيع .. غير معقول ..

احتضنتْ أماني أختها أكثر .. وهي تجفف الدموع بمناديل ورقية . قالتْ وهي تنظر إلى أبيها في إشفاق : دادي ..

- نعم يا حبيبتي .

- البقاء في حياتك .

- من .. ؟!

- عمو حسن الشاعر .

أجلست أماني أختها إيمان .. التي أحسَّتْ أنها استراحت حين استطاعت أن تبلغ الخبر المشئوم .

ارتمي الأبُ متهالكا على أقرب كرسي من كراسي الأنتريه . رغم الحزن الشديد .. والمفاجأة المفجعة ، لم تسقط دمعة من عينيه . بدا ذاهلاً ، كأنما صعقه تيار كهربائي . معقول .. ممكن .. مستحيل .. كيف .. متى .. لماذا .. لا .. نعم .. كيف .. حسن مات .. قُتل .. ؟! يا ألله .. لا نسألك ردَّ القضاء .. لكن نسألك اللطف فيه . يارب .. كيف .. ماذا .. ؟ سقط رأسه على صدره في إغماءة مفاجئة ، لم تحسّ بها الصبيتان في بداية الأمر . اقتربتْ منه أماني ، لكي تربت على كتفه ، فأدركت أنه مُغمي عليه . صاحت بقوة : بابا .. بابا ..

أحضرت بعض العطور والماء البارد . أخذتْ تحاول .. وتحاول

هي وأختها ، حتى أفاق ، ونظر إليهما في صمت حزين .. لكنه لم يكن بمستطيع أنْ يرى أيًا منهما بوضوح ... !!

أفاق الثلاثة على صوت جرس التليفون . أمسك السماعة متهالكاً . سرعان ما تحامل .. حين علم أن المتكلم أحمد حلمي .

- ماذا حدث ؟

- لا أستطيع أن أقول شيئا الآن .. حسن وجد مقتولاً في شقته .

- كيف .. ؟!

- المهم .. احضرْ فوراً إلى قسم شرطة الدقي .

لم يكن حسن بالنسبة إليه شخصا عاديا ، يمكن أن يجد له بديلاً. العلاقة التي تربط بينهما عمرها يزيد على ثلاثين سنة .. منذ الصبا إلى أن أصبحا رجليْن . صداقة الرجال تقوم على اقتناع .. وعاطفة في آنٍ واحد ، لذلك يصعب أن تهتزّ أوْ تنهار . حسن إنسان واضح الرؤية .. متطهّر المشاعر .. لايكذب ولاينافق .. مريح صريح .. وإن جنتْ عليه الصراحة أحيانا . لكنه ظل ملتزما بها .. وصارتْ صفة من أبرز معالم شخصيته . أمثال حسن لايعمّرون طويلاً ، العالم الموبوء لايتّسع لطهارتهم .. ابن موت بحق . حسن كان رجلاً جميلاً في كل شيء ، حتى في قوامه النحيل الرشيق .. ووجهه الذي يشّع صفاء .. وعينيه الثاقبتين .. الله يرحمك يا حسن . لم تكن صديقاً .. لكن توأم روحي ... !!

أوراق رسميّة

أ - تقرير ضابط المباحث

إنه في يوم الأحد ١٣ أغسطس الجاري - تلقيت أنا النقيب/ عادل إسماعيل رئيس وحدة مباحث قسم الدّقي - محافظة الجيزة في الساعة الخامسة من مساء اليوم المذكور مكالمة تليفونية من السيد/ أمين بدوي رئيس تحرير جريدة « الأمة » ، تفيد أن المواطن حسن الشاعر رئيس قسم الشئون العربية بالجريدة متغيب منذ أيام ، ويخشى أن يكون قد حدث له مكروه ، لذلك يطلبُ التوجه إلى شقته الموجودة في حارة الزهور ، المتفرعة من شارع سليمان جوهر بالدّقي لمعرفة الأمر .

أطلعت السيد العميد/ طلعت عبدالمجيد علي الإشارة المذكورة، فوقع بالعلم ، وأمر بتشكيل وحدة تفتيش ومتابعة برئاستي ، تضم

الملازم أول محمد عبدالمنعم ، والرقيب سعيد أبو السعود ، والجندي سيد إبراهيم ، والمخبر عطاالله ميخائيل .

وقد استأذنتُ سيادة المأمور في تأخير موعدِ التفتيش إلى ما بعد المغرب ، لأن الجاري البحث عنه شخصية عامة ، ولا نعرف هل التفتيش سوف يؤدي إلى شيء أم لا .. ؟ بالإضافة إلى أن دواعي الأمن تتطلب قدرا من السرية وعدم لفت الانتباه .

بعد انتهاء آخر ضوء من اليوم المذكور توجهتُ مع أفراد القوة السابق ذكرهم وعددهم بالتمام والكمال .. وتوقيعاتهم في آخر كل صفحة من صفحات محضر التفتيش والبحث والمعاينة . وقد اتضح أن باب الشقة المذكورة ليس به كسر أو إتلاف أوْ ما يوحى بأىّ أمر غير عادي . لكن الباب فُتح بسهولة بمجرد أن دفعه المخبر عطا الله ميخائيل والجندي سيد إبراهيم ، لأن الباب لم يكن مغلقاً بالكالون ، ولكن بالرفاس فقط لاغير .

عند فتح الباب فوجئنا برائحة عفونة شديدة ، عرفتُ بالخبْرة أنها رائحة جثة قتيل ، مضي عليها أكثر من يوميْن . أخرج الملازم أول محمد عبد المنعم منديله الأبيض ، وأضاء نور الصالة بعد أن تعرف عليه من خلال لمبة الكشاف الذى كان يحمله في يده اليسري .

في الضوء كان كلُّ شيء عادياً ـ في الصالة ، وفي حجرة المكتب، وكذا في المطبخ ، ودورة المياه .. كل شئ في مكانه ، حتي الصابونة وفوطة الوجه . بعد ذلك توجهنا إلي غرفة النوم التي خرجت

منها رائحة جثة القـتيل . الحجرة بها دولاب ملابس كبير معظم أبوابه وأدراجه مفتوحة . هناك من عبث بالملابس الخارجية والداخلية ، كأنه كان يُفتش عن شئ .. لا نستطيع أن نعرفه الآن على وجه التحديد .

الجريمة الكاملة كانتْ موجودة على سرير حجرة النوم ، وهي تتكون من سرير خشبي .. بجواره كومـودينو ، عـليه جريـدة ، تاريخها يـرجع إلى يـوم الأحد السادس من أغسطس الجـاري ، وربّما كان هذا التـاريخ هو نفـسه تاريخ الحـادثـة .

القاتـل أوالقتلة أتموا الجريمة دون حدوث تلفٍ في أيّ شيء من أثـاث الشقة سواء في حجرة النوم أو خارجها . الذي ارتكب الجريمة قـتل القـتيـل ، ثم غطاه بملاءة ملونة ، ولفَّ المرتبة حول الجثـة ، كما وضع ألواح الملة فوق المرتبة . وهذا قد يوحي بأن الفاعل كان واثقا من أن أحداً لن يفاجئه ، وعمل الجريمة في هدوء وتأنٍ .. أو أن الضحية لم تقاوم مقاومة تذ كر .

اتصلتُ عن طريق اللاسلكي بسيادة مأمور القسم ، فحضر على الفور . أخذتُ أنا وهو والملازم محمد نتفحص الجثة المسجاة . القتل تَمّ عن طريق الخنق ودون مقاومة فيما يبدو ، لأنه لا توجد آثار للاعتداء على جسد الجثـة . الغريب في الأمر .. أن القاتـل نزع ملابس القتيـل كاملة ، فبدا عاريا تماماً . الأغْربُ أنه قطع أذنيْ القتيـل .. وأصابع اليد اليُمنى . في الغـالب حدث هذا بعد الوفاة البيولوجية مباشرة ،

لأنه لا توجد آثار دماء في المواضع المذكورة . وقد وضعت هذه الأعضاء بحيث تبدو .. بوضوح من أول نظرة على الجثة .

سأل الملازم : على أي شيء يدل هذا يا سيادة المأمور ؟

ردّ بعد تفكير : الجريمة كانت انتقاماً لثأرٍ شخصي .

قلت : ربما كان هذا تمويهاً وتضليلاً .

أجاب سيادة المأمور على الفور : معك حق .

بعد ذلك أمر سيادة المأمور أن تحال الجثة إلى الطب الشرعي ، وأن يحضر رجال البحث الجنائي ، لأخذ البصمات وتقديم التقرير اللازم ، مع عمل حراسة مشددة على الشقة لحين انتهاء التحقيق .

وقد تمّ ذلك في الساعة العاشرة من مساء اليوم المذكور ، ووقع جميع أفراد الوحدة على المحضر كل باسمه وصفته . وأقفل المحضر في ساعة تاريخه .. بمعرفتي أنا النقيب عادل إسماعيل .

* * *

ب ـ تقرير مفتش المباحث الجنائية

في التاسعة من صباح الاثنين ١٤ أغسطس الجاري ، توجهتُ أنا العقيد شعبان صلاح الدين مفتش المباحث الجنائية بقسم الدقي لمعاينة شقة المجني عليه حسن الشاعر ، بتكليف من السيد العميد طلعت عبد المجيد مأمور القسم . وكان معي ثلاثة من المفتشين هم : النقيب عبد الفتاح عوض ، والملازم أول عزّت فتحي ، والملازم سمير حجازي . وبتفتيش شقة المجني عليه قبل نقل الجثة إلى مشرحة مستشفي القصر العينى لاحظنا مايلي :

أولاً : أثاث الشقة كله سليم ، ولم يحدث به أي كسر أو تلفيات .. كما أن الأبواب والشابيك أيضا سليمة ، ولايوجد ما يدل على أن الذين ارتكبوا الحادث كانوا مضطرين إلى الخروج أو الدخول بطريق غير مباشر . كما أن وجود الأثاث وباقي منقولات الشقة دون كسر أو تلفيات ، يوحي بأنه لم تكن هناك مقاومة بين القتيل ومرتكبي الحادث .

ثانيا : لم نعثر على محفظة نقود القتيل .. أو على بطاقته الشخصية .. أو بطاقة نقابة الصحفيين أو نادي الصيد ـ الذي عرفنا فيما بعد أنه كان عضواً فيه . كذلك لم نعثر على أية أوراق مالية .. أو على ساعة الفقيد .. أو أيّ أمتعة خاصة به .. وربّما حدثت الجريمة من أجل السرقة ـ رغم وجود تليفزيون ياباني ماركة «Sony» ، وجهاز فيديو، وجهاز تسجيل، وراديو .. وكل بدل الفقيد، وملابسه ، وكتبه .. موجودة ، لم يحاول الجناة أخذ شيء منها ، حتى لايثيروا الشك وهم خارجون من الشقة أو البيت .

ثالثا : لا توجد أي أوراق مكتوبة بخط الفقيد ـ رغم أن أكثر من واحد من زملائه أخبرنا ـ فيما بعد ـ أنه كان يؤلف كتاباً بعنوان « مستقبل العالم العربي بين الانفتاح والإرهاب » . كما أنه كان ينوي كتابة مجموعة من المقالات قبل أن يتوجه إلى المغرب لحضور مؤتمر عن مدينة القدس . نُوصي السيد وكيل النيابة بسؤال زملائه ومعارفه للتحقق من صحة ذلك .. وبيان هل الكتاب والمقالات لهما صلة بقتل الضحية .. وسرقة ممتلكاتها الخاصة .

رابعا : يوجد في حوض المطبخ مجموعة من الأطباق والملاعق المتوسخة الموضوعة بغير نظام .. وفي الثلاجة توجد قطعة جبن أبيض ودجاجة مسلوقة وبعض الخبز .. وزجاجة سفن أب كبيرة لم تستعمل . ويوجد في درج الثلاجة بعض الطماطم والفلفل الأخضر .. وكمية من الليمون الأخضر . وقد عثرنا على كمية من قطع الليمون بعد عصرها

على رخامة حوض المطبخ .. ولا نعرف من الذي عصرها .. ولافي أي غرض استعملها .

خامسا : أشار عليَّ أحد المساعدين وهو الملازم سمير حجازى بضرورة البحث عن سلسلة مفاتيح الفقيد .. ولكن لم نعثرعليها ، لذلك نوصى بضرورة البحث عنها لمعرفة إن كان بها مفتاح سيارة من عدمه ، لبيان مصير سيارة الفقيد بالتعاون مع إدارة مرور الجيزة .

سادسا : عثرنا بالمصادفة في حجرة مكتب المجني عليه على زرار فضّي .. يستخدم في بعض الفساتين أو البلوزات الحريمي ، كما يستعمل أحيانا في بعض الجاكتات الرجالي . ونُوصي بالتحفظ عليه ومحاولة التعرف على صاحبه .. أوْ صاحبته .

سابعا : نوصي بفرض حراسة سرية مُشددة على شقة المجني عليه من الداخل والخارج ، وسؤال معارفه وأصحابه وجيرانه ، لأن مرتكبي الحادث قد أمضوا في الشقة مدة طويلة ، واستطاعوا أن يزيلوا كل البصمات ، ولم يتركوا أيَّ أثر يدل عليهم . لكن الجاني يحنّ دائما إلى مكان الجريمة . وهذا هو الخيْط الذي يُمكن أن نعتمد عليه .. في كشف بعض أسرار الجريمة .

وقد أغلق المحضر في السادسة من بعد ظهر اليوم المذكور .. وتم التوقيع عليه من جميع أفراد قوة البحث الجنائي .. بمعرفتي أنا العقيد شعبان صلاح الدين مفتش المباحث الجنائية بقسم الدقي - محافظة الجيزة .

* * *

جـ - تقرير الطبيب الشرعى

في العاشرة من صباح الثلاثاء ١٥ أغسطس الجاري ، قمتُ أنآ الدكتور سعيد عبد السلام مسئول الطب الشرعي بفحص جثة المجني عليه حسن الشاعر في مشرحة مستشفي كلية طبّ القصر العيني بحضور اثنين من المختصين بالكلية هما : الدكتور عطية مهنا ، والدكتور على شفيق .. وكانت نتيجة التشريح الإكلنيكي مايلي :

١- الجثة لرجل في الخمسين من عمره تقريبا ، ولاتوجد جروح أوْ كدمات سطحية في أىّ جزء خارجي من أجزاء الجثة باستثناء الرقبة التي يوجد بها بعض آثار تهتك في قصبة الحنجرة . وبتشريح منطقة الرقبة ظهر أن الوفاة تمت عن طريق الخنق بيدي أحد الجناة .. بالضغط بإصبعي الإبهام على منطقة التجويف الموجودة في نهاية الرقبة .

٢ ـ بعد تشريح المعدة اتّضح أن المجني عليه لم يتناول أيّ مواد مخدرة أوْ كحولية ، وإنْ كان ذلك لاينفي أن الجناة قاموا بوضع قطعة قماش بها مادة مخدرة عند أنفه . وهذا ما جعل المجنى عليه لايبدي أية مقاومة أو استغاثة ، وذلك يدل على أن الجناة لديهم خبرة وتمرّس في مثل هذا النوع من جرائم القتل .

٣ – قطع الأذنيْن وأصابع اليد اليُمنى .. تمّ بعد موت المجني عليه بمدة قليلة قبل أن تتخشب الجثة ، ويصعب قطع أجزاء منها . وهذا التنكيل بالجثة بعد موتها ، لايحدث كثيراً فيما صادفت من جرائم سابقة ـ إلاّ إذا كان القتل من أجل الانتقام لأمور ذاتية خاصة .. وهذه مسألة لايحلها الطب الشّرْعي ، وإنما يكشف عنها مسار التحقيق الجنائي .

٤ ـ تسلم الجثة بعد الغسل والتكفين ووضع كمية من الفورمالين .. إلى أهل المجنى عليه ، ويصرح بالدفن إذا لم يكن لدى النيابة مانعٌ من ذلك .

وقد انتهتْ عملية التشريح في الثانية عشرة والنصف من بعد ظهر اليوم المذكور .. بمعرفتي أنا الطبيب الشرعي دكتور سعيد عبد السلام . وقد تمّ التوقيع على هذا المحضر منّي ومن السادة الأطباء الموجودين في أثناء عملية التشريح .

* * *

د ـ تقرير وكيل نيابة الدقي

إنه في صباح الخميس ٢٤ أغسطس الجاري .. انتهى التحقيق المبدئي في قضية مقتل الصحفي حسن الشاعر بمعرفتي أنا كمال عبد الرؤوف وكيل أول نيابة الدقي الجنائية . وقد لاحظت مايلي بعد أخذ أقوال الشهود التالية أسماؤهم وصفاتُهم :

١ - السيد/ أمين بدوى .. رئيس تحرير جريدة « الأمّة » ، وهي منْ أقوى صحف المعارضة الموجودة في مصر .

٢ - السيد / حامد صالح .. زميل المجني عليه في قسم الشئون العربية.

٣ - السيد / صبري مصطفي .. المحرر الأدبي بالجريدة ، وأحد المقرّبين إلى المجني عليه .

٤ - السيدة / ليلى سلام .. المشرفة على الصفحة الفنية بالجريدة .

٥ - السيد / زغلول أبو المعاطى .. عامل المكتب الخاص بالمجني عليه .

٧ - دكتور/ حمدي الحسيني .. طبيب أطفال بمستشفى الجيزة ، وأحد أصدقاء الفقيد المقربين .

٨ - رائد متقاعد أحمد حلمي .. صديق المجني عليه الذي تسلم الجثة ، وقام بتوصيلها إلى أهله في قرية كفر بدواي - إحدى قُرى مركز المنصورة .

٩ - السيد/ سميح عبد المسيح .. رسام كاريكاتير بمجلة « مساء الخير » وأحد أصدقاء المجنى عليه .

١١ - السيد / ناصر عبد السميع .. صاحب محل بقالة ، ومالك البيت الذي كان يسكن فيه المجني عليه .

١٢ - السيدة / عطيات فؤاد .. واحدة من سكان البيت ، بين المجني عليه وبين أسرتها علاقة قوية بحكم الصلة التي تربطه بزوجها أشرف مجدي الصحفي الذي يعمل حاليا في المملكة العربية السعودية.

١٣ - السيد/ وليد عرفات .. محامي الجريدة ورئيس قسم الشئون القانونية .

أقوال السادة المذ كورة أسماؤهم مدوّنة ، وموقع عليها بخط كل

منهم .. وقد اتضح من التحقيق الملاحظات التالية ، التي قد تفيد عند النظر في القضية :

أولاً : المجني عليه كان صحفيا ملتزماً ، يقدس القيم والمبادئ السامية . ولم يكن يكتب إلاّ ما يعتقد أنه صواب وحق . ولم يرتكب أية مخالفة طوال فترة عمله في الجريدة .

ثانياً : رغم أن الجريدة جريدة حزبية معارضة ، فإنه كان يعارض معارضة موضوعية ، تهدف إلى تحقيق الصالح العام للوطن . وآراؤه السياسية بعيدة عن التطرف والمبالغة ، وإن كانت تتصفُ بالحدّة والمثالية . وكان يرى أن مستقبل العرب مظلم وحزين ، إذا لم تقم بينهم وحدة سياسية وثقافية واقتصادية .. وشبكة مواصلات برية عن طريق مشروع قطار العالم العربي .

ثالثاً : لم يحاول المجني عليه استغلال موقعه الصحفي من أجل تحقيق أيّ مكسب مادي أو شخصي . رغم علاقاته الطيّبة المباشرة بمعظم وزراء الخارجية والثقافة والإعلام العرب . وعندما كان يدعى إلى مؤتمر سياسي أو ثقافي ، يكون آخر من يذهب .. وأول من يرحل .

رابعاً : لم تكن للمجني عليه في الجريدة أو الحيّ الذي يقيم فيه أيّ علاقات نسائية مريبة . رغم كثرة معارفه من الصحفيات وبعض الفنانات . وقد شهد له الجميع بحسن السمعة والارتفاع فوق مستوى

الشبهات . وهذا يؤكد ـ بإحساس داخلي ـ أن التمثيل بالجثة ، كان من أجل التضليل والتعمية .. وتحويل مسار القضية إلى اتجاه آخر مضاد .

خامساً : لماذا ضاعتْ أصول الكتاب ـ الذي ألفه المجني عليه .. وعنوانه « مستقبل العالم العربي بين الانفتاح والإرهاب » ، ولم اختفت المقالات التي كتبها .. ؟ وهل القتلة لهم علاقة بموضوع الكتاب والمقالات .. سواء كانوا من أصحاب الانفتاح الاقتصادي ، أو من الأصوليين وجماعات الإرهاب الذين يكفّرون من يخالفهم ويهدرون دمه .. ؟!

سادساً : من الصعب تحديد مسار خيط ظاهر يُبرر وقوع الجريمة ، لأن المجني عليه لم تكن له عداوات سياسية ، أو خصومات شخصية ، أو علاقات مريبة ، الجريمة قد تمثّل نوعاً من الجرائم الجديدة المهدد بها المجتمع المصري الآمن المتديّن ، الذي تغيّرت فيه بعض القيم والمعايير ـ بقوة مباغتة ـ نتيجة الانفتاح الاقتصادي ، والإرهاب الفكري ، والتعصّب العقائدي ، والتفسّخ الاجتماعي ، وارتفاع معدّل البطالة بين الشباب .. ولاسيما المتعلمين منهم .

سابعاً : أوصى بضرورة البحث الدقيق وتقصّي الحقائق ، لأن المجني عليه ليس شخصية عادية . كما أن قتل مواطن برئ في بيته أصبحتْ جريمة ، يمكن أن يهدد بها أي مواطن شريف في بلادنا العزيزة.

إن الاعتداء على مواطن صالح دون وجه حق ، عدوان على المجتمع كله . الشرارة إذا لم تطفأ في مهدها ، تحرق كل ما حولها .. !!

ثامناً : هذه الجريمة ينبغي أن تكون ذات تكييف قانوني خاص ، لأنها قد تكون بداية لنوع خطير من الجرائم ، لم يشهده المجتمع المصري من قبل .

وبعد .. فإن هذا تقريري أنا/كمال عبد الرؤوف وكيل أول نيابة الدقي الجنائية .. وموقع عليها بخطي ، والأمر مفوّض إلى عدالة القضاء .

* * *

إنّهم .. يُطفِئونَ النــور

في مساء الخميس خمسة من سبتمبر .. أقام أصدقاء الفقيد المقرّبين ليلة عزاء . وقد أصرّ الرائد أحمد حلمي على أن يكون اللقاء في بيته . حضر الجميع ماعدا أدهم بدير الذي كان مشغولاً بافتتاح توسعة جديدة للكازينو السياحي الذي يملكه في شارع الهرم . وقد أصرتْ علي الحضور أيضا الفنانة زيزيت ، التي بدت في ملابس الحداد السوداء مثل نفرتيتى في جمالها الملكي الأنيق ـ لدرجة أن زوجتيْ أحمد حلمي وحمدي الحسيني ، كانتا لا تستطيعان إخفاء نظرة غيرة إليها ـ أحياناً ـ رغم أن الموقف الحزين لم يكن يتحمّل ذلك .

قطعت زيزيت الصمت : ألم يظهر أيّ جديد في القضية يا أستاذ سميح ؟

ردّ بانفعال : لا أدري لماذا صمتتْ نقابة الصحفيّين ؟

قال عبدالله : يبدو أن النقابة لاتدافع إلا عن كتّاب الحكومة .. المرحوم كان يعمل في صحيفة معارضة .

تساءلتْ زيزي : هل تعتقد أن هناك معارضة حقيقية .. في ظل سيطرة أجهزة المخابرات وقانون الطوارئ ؟

قال حمدي : المهم أن إنساناً بريئًا قُتل .. ولا نعْرف من سيكون عليه الدور بعد ذلك .. ؟ .

قال أحمد حلمي في ثقة وإيمان : كل شيء بإرادة الله سبحانه وتعالى .. { وما تدري نفسٌ بأيّ أرض تموت } .

قالت نسرين وهي تعدل طرحتها السوداء : لكن الله لا يرضى عن الظلم يا حاج أحمد .

ردّ عبدالله : ألم أقل لكم .. الدنيا أسطورة خرافية .. نحْن في عصر العبث واللامعقول . ما يحدث في الواقع الآن أبعد مما يخطر على خيال أيّ أديب .

قال حمدي : موت حسن جعلني أشك في كثيرٍ من الأمور .. لم يعد هناك أمل في أيّ شيء .

قالت زيزيت : ما دمنا نتكلم كثيراً ، ولا نعمل شيئاً .

لم تكن تغريد زوجة الرائد أحمد قادرة على متابعة القضية .. فهي سيدة بيت ، لا تفهم في السياسة .. ولا تريد . قامت وفتحت المسجّل . ساد صمت حزين ، وهم يسْتمعون إلى تلاوة من القرآن

الكريم ، وصورة حسن تلح على خاطر كل منهم .. كأنما لا يصدقـون أنه مات . الغريب في الأمر أن حسن النـبيل الكريم .. المثقـف الحكيم .. قُـتـل ، ولا يُعرف من قتله .. أو لم قُـتـل .. أو كيـف قُـتـل ؟! .

الموت أمر كريه .. بشع .. مخيف . في لحظة يصبح الإنسان الحيّ المحبوب العاقل الفاعل .. جثة بالية وكومة عفنة . لماذا الحزن على الموتي يقطّع القلوب ، ويعمى الأبصار ، ويشتّت العقول .. ؟! الموت مثل الميلاد حق وحقيقة .. لكن البشاعة والمرارة في القتل ـ قتل الأبرياء والشرفاء .

الإنسان ظل الله على الأرض .. ودليل على قدرته . من يتجرأ على قتـل نفس بريئـة ، فكأنما يتـحدّى إرادة اللـه .. ويكفر بقدرته . من قـتـل نفساً بغير حقٍّ ، فكأنما قتـل الناس جميعاً . القتل ظلم .. والظلم نار حارقة ، تحرق الأخضر واليابس. الحياة لا تستقرّ ولا تستقيم إلا بالعدل . الحق أقول : لاعدل إلا إذا تعادلت القو ى ... !!

فـي طريق العـودة إلى البيت ـ تذكّر الدكتور حمدى وهو يقود سيارتـه .. وبجواره زوجتـه ـ تذكر أن صديقـه حسن قد أعطاه مظروفا مغلقا منذ أكثر من سنة تقريباً ، وطلب منه أن يحتفظ به عنده .

نـظر إلى زوجتـه في لهـفـة : هل تذكرين ؟

ـ لكـنـك طـلـبت مـنّي أن أضعـه في الخزينـة التي تخصنا في البـنـك .

قال وهو يضغط على الفرامل ، حتى يوقف السيارة في إشارة مرور ميدان الجيزة : لا تنسى أن تحضريه غدا .

- لماذا .. ؟!

قال وهو يمضي بالسيارة .. بعد أنْ فتحت الإشارة : ربّما كان فيه دليل .

- متأكد ؟

- كل شيء جائز .. !!



ذكرياتُ صَحفي ضال

تنوير .. وتحذير :

هـذه بعـض ذكريات ـ لا مذكرات ، كتبتها قطعاً لأوقات قـلقٍ مُـدمّر ، كانت تعتريني من حين لآخر .. أرجو ألا يطلع عليها أحد ، لأني لا أرغب في هذا .. ولا أتمنّاه ، إذْ لو كنت أريد ذلك لسعيْت نحو حذف بعض المواقف الباكية المبكية منها ، وعملتُ علي تنسيق بعض فصولها ، حتي يتبيّن القارئ علاقة الثمرة بالشجرة .. والقطرة بالبُحيْرة .

في مطلع شبابي .. كنتُ أومن بتأثير الكلمة الطيبة إيماناً يعدل كل المقدسات . شيئاً.. فشيئاً أدركتُ أن الكلام لا يغيّر الواقع ، ولا يُدفئ ليل المساكين . منذ صباى أدمنتُ القراءة .. وكنتُ أحلم بتأليف كتاب مثل : جمهورية أفلاطون ، أو فلسفة ابن رشد ، أوْ يوتوبيا توماس مور ، أو تربية إميل لجان جاك روسّو ، أو علي الأقل

رواية مثـل الجريمة والعقاب لديستويوفسكي، أو العجوز والبحر لإرنست همنجواى ، أو ثلاثية نجيب محفوظ . لكن الحلم تحـوّل إلي كابوس . . وطرحت شجرة التين شوكًا .

إن أهل هذا الزمان لـم تعـد تؤثر فـيهم الثقـافة الورقـية .. والكتابـة الأدبية . تحوّل الإيمان عندهم من المعنى إلى المبني ، ومـن الروح إلي الجسد ، ومـن الدلالة إلي التركيب . ناسُ هذا الزمان ليسوا في حاجة إلي نور الكلمة ، وإنما إلي نار المدفـع . ولم يعد يطهّرهم من الآثام إلا طوفان .. مثـل طوفان نوح .

الأمل .. الخلاص .. لن يتحقق إلا بالعودة إلي النبع الصافي ، الـذي يوحّد بين البشـر في ملكوت الـربّ . أمور كثيرة تأتي وتـزول ... ولايبقى للإنسـان إلا طاعة الله ، ومحبة الناس . الطاعة محبة .. والمحبة طاعـة . لكن من يقرأ.. ومـن يستمع ..؟! نحن في زمن ردئ . رؤوس الحيوان علي أجساد البشر . الناس برامكة بغير رشيد .. فمن أين يأتي الأمل الوليد .. ؟!

مـن أجل ذلك .. آثرتُ ألا يكون لي ولد ، ورغبتُ عـن الكتابة الأدبيّة . الكتابة نوع من الإنجاب . بل ربما أعظم أشكال الخلفة . ما حدث لي هزّ أعماقـي، وعصف بحياتي. تارة أحـسّ أنني العاقل الوحيد في زمان مجنون ، وأنني حامي حماه .. والمدافع عـن مثلـه ومبادئـه . وتـارة أخرى أشـعر أنـني المجـنون الوحيـد ـ الذي يسعـدهُ جنونه . أن تكون مجنونا.. أفضل من أن تكون يـداك ملوثـتـيْن ..!!

بين خواطــر العقــل .. ومشاعـر الجنون ـ كتبتُ هذه الذكريات المرّة .. علاجاً لنفسي من أوجاع زمانٍ ، ضلّ فيه أكثرُ الناس طريقَ الحقّ والخير والجمال ؛ من أجل هذا .. أرجو ألا يطلع على هذه الذكريات أحد ، أو يسمح بنشرها وتداولها ـ سواء كنتُ حيًّا في هذه الدنيا الفانية ، أوْ صعدت روحي إلى عالم الخلود ـ والويل .. الويلُ لمن يخالف هذه الوصية إلى أبد الآبدين .. !!

ح . الشاعـر



١ ـ فصول .. من كتاب الحبّ

الحب .. في حياتي الظاهرية لا وجود له .. ولا دليل يؤكده ، فأنا غير متزوّج ، ولستُ على علاقة عشق بأية امرأة .. إذن عن أيّ حب أتكلم ؟!

الحبّ الذى أومن به هو الحبّ الطاهر النقي الذى يسعدك ، ويسعد من حولك، ويجعلك تتخذ أنبل المواقف، وتقول أشجع الآراء. عنترة عندما أحبّ عبلة .. أحبّ معها الحرية والعزة والكرامة ونظْم الشعر. كانت النجمة المضيئة التي تجذبه نحو المثل العليا، لذلك صار يراها في كل مجال يتحرك فيه ، وفي كل هدف يسعى نحو تحقيقه .. حتى فى ميدان الحرب :

ولقد ذكرتُك والرماحُ نواهلٌ منىّ وبيضُ الهند تقطرُ من دمى
فوددتُ تقبيلَ الرماحِ لأنها لمعتْ كبارقِ ثغرِك المتبسّمِ

عنترة .. ليس بطلا أسطورياً ، لكنه بطل إنسان . وقد ظهرت له أمثلة لاتعدّ ولا تحصى في كل مراحل التاريخ .. وفي كل المجتمعات . عصرنا الصناعي المصنوع .. شوه شخصية الإنسان ، وقضى على نموذج البطولة . أنا واحد من أولئك المشوهين المفرّغين من أيّ معنى للبطولة . وإذا كنتُ فقدت معنى البطولة ، فقد تبقّى لديّ جانب من إنسانية البشر ، لا أدرك كنهه .. وإن حرصتُ دائما عليه .

في بداية حياتي الصحفية تعرّفت على فتاة جميلة .. ذكية الفؤاد .. لمّاحة .. مثقفة .. تحب الفن والأدب مثلي . هالة توفيق كانت متخرجة حديثا فى قسم الصحافة بكلية الإعلام ـ جامعة القاهرة. جمعتْ بيْننا الجامعة العريقة جامعة القاهرة .. فأنا خريج كلية الحقوق، التي كنّا نسميها ونحن طلبة كليّة الزعماء والأدباء . جاءت لكي تتدرب فى جريدة «الجمهور» التي كنت أعمل بها في بداية حياتي . رئيس التحرير أشار عليها أن تكون محررة في صفحة الحوادث ، وطلب منها أن تكون مُحررةً حوادث قسم السيدة زينب ، لأنه قريب من بيتها . اعترضتُ على هذا .. وأنا أتكلم مع أحد زملائي، فابتسم في خبثٍ قائلاً : رئيس التحرير عنده حق .

قلت في براءة : كيف ؟

ـ يريد أن يؤهلها، لتكون مثله .

ـ لا أفهم .

ـ ياصديقي .. معظم الصحفيّين بدأوا حياتهم مندوبين للجريدة

في قسم شرطـة ، وانتهوا إلى أن يكونوا .. عملاء للشرطـة في الجريدة .. فهمتَ ..؟!

ـ أحـاول .

العجيب في الأمر أن هالة نفسها كانت موافقة على ذلك ، بل سعيدة به . قلت لها معترضا : فتاة مثـقفة جميلة مثلـك ، تتعامل مع المجرمين والنشّالين والخارجين على القانون .. كيف ؟!

ـ العمل عمل يا أستاذ حسن .. لا فرق بين رجل وامرأة . نحن زملاء ، وكونك أقدم مني في الجريدة وأكبر بعدة سنوات ، لايعطيك حق الوصاية عليّ .

تأملتُها .. وهي تشرب القهوة برشاقة مصطنعة ، ثـم واصلـتْ : أنا فتـاة طيـبة .. لكنّي لسـت سـاذجـة .

قلت وأنا أشعل سيجارة : واضح .. واضح جداً يا آنسة هالـة.

شربتْ القهـوة .. ثم سحبتْ حقيبة يدها في دلال قـائـلـة : عن إذنـك .. لقـد تـأخرت .

لا أعرف حتى الآن من الذي كان يسعى منا نحو الآخر؟! .. لكن شيئا مشتركا جذب كلينْا ـ رغـم حرصى الشديد ألا يلـحظ أحد عليّ شيئا . فأنا من نوع من البشر لا يرغبون في أن تكون حياتهم الخاصة كتابا مفتوحا ، يقرؤه كل من هبّ ودبّ . العاقل ـ من وجهة نظري ـ لابد أن يكون مثـل البحر ، لايصل أحد إلى أعماقه بسهولـة .

***

جاءني عبد اللـه عاشـور فجأة ، كان يبدو عليه الضيـق والقلق . عبد الله يحمل بكتيريا الفن وتوتّر الفنان ، وإنْ كان الوسط الفني لم يعتـرف بـه بعد . يأتي فجـأة .. ويذهب فجـأة . يغيب طويـلا .. لكنه يرجع دائما وبراءة الأطفال فى عينْيه .. ووجهه ، لأنه يحملُ وجهَ طفل .. !!

- أطلب لك شايا ؟

- لو ساندوتش معه .. يكون أفضل .

- ذكرتني .. أنا لم أفطر كذلك .

جاء ربيع فـرغلي بمجمـوعـة من سانـدوتشات الفـول والطعمية .. وكوبيْن من الماء .

- الشـاي ياعم ربيع . ؟ تسـاءل عبد الله .

- بعد قليل .. الأستاذ حسن يفضله ساخنا .

بعد شُرب الشاي سألني عبـد اللـه : معك خمسة جنيهات؟

- جنيهان فقط لا غير .. قلت وأنا أحرك إصبعيْ الوسطى والسّبابة .

- هاتهما .. ويكون باقياً عليك ثلاثة .. متى آخذها ؟

نظرتُ إليه نظرة مودّة وإشفاق : عبد الله .. اهتم بعملك .. واترك حكاية السينما والقصص .

ردّ بتحدّ : ولم تركت أنتَ المحاماة .. وعملت في الصحافة ؟ .. لماذا لا تتكلم ؟ .. ردّ يا أستاذ ؟!

قلت آسفا : معك حق .

قال بعد لحظة صمت : ألا تستطيع نشر قصة لي عندكم ؟!

ـ بكل أسف .. الجريدة جريدة سياسية ، وحتى لو نشرت القصة فلن تعطيك شيئا .

شُغلتُ بمحنة صديقي بدرجة أنستني هالة .. بل أنستني المقالة التي طلبها رئيس التحرير .

* * *

بعد أيّام دخلتْ هالة عليّ .. وقد أعدت أسلحتها الرشيقة ، كأنها مذيعة في تليفزيون المستقبل . شعرها ناعم فاحم ، يغطى ظهرها .. تضع مكياجا خفيفا ، لكنه واضح خاصة روج الشفتيْن . الوجه .. قمر يضيء ظلام النهار. بلوزة زرقاء .. وجونلة سوداء ، وحذاء بكعب عالٍ ، يجعلها تختال في كبرياء . تجمع بين هدوء البطة ، وشقاوة القطة . لا أدري ماذا تريد مني هذه الفتاة ؟! طبيعة الأنثى تجعلُها لا تطلب من الرجل شيئا . لسان الفم لا يقول ... لكن لسان الحال أو المظهر العام يدفع الرجل إلى أن يقول كل ما تريد منه ... في الموعد الذي تحدده .. !!

كيف استطاعتْ فتاة في العشرين أن تدرك هذه الحقيقة ؟!

نـداء الطبيعة .. نزوع فطريّ في الإنسان . تـلـك فتاة من المدينة ، وأنا قـروي ساذج .. لا قروي غشـيم .. كان اللـه في عـونْي .. !!

في المساء جلستُ وحيدا مع زجاجتيْن من البيرة المثلجة وعلبة سجائر كليوباترا وقطعة جبن رومي وبعض زيتون أخضر .. ومجموعة جرائد ومجلات، ورواية « أحدب نوتردام » لفيكتور هوجو . لكن هالة كانت تبتسم لي في كل ركن من أركان شقتي المتواضعة . آه لو تحقق الحلم .. !! لماذا لا يتحقق .. ؟ أنا محام .. وأديب .. وصحفي .. وموظف محترم . أهم من هذا وذاك عندي شقة في حيّ الدقي . من عنده شقة في هـذه الأيام يشير إلى أيّ فتاة فتـتبعـه . لكنيّ بدلاً من أن أشغل بهالة شدنّي خيالي إلى الماضي . لا .. لايوجد شيء اسمه الماضي إلاّ في كتب النحو والتاريخ والفلسـفة . الماضي هو الحاضر .. والمسـتقبل . الزمان منظومة واحدة وبنْية مركبة . الحاضر حصاد للماضي بكل ما فيه ، والحاضر هو الذي يشـكل المسـتقبل ويرسم ملامحـه . ما كان فهو ما يكون .. وما سوف يكون . الآباء يأكلون الحصرم والأبنـاء يضرسـون . الأبناء يرثـون كل ما يفعله الآبـاء من خيرٍ أوْ شرٍّ . تلك حكمة الماضي .. وفلسفة الحاضر .. ورؤية المستقبل. العينُ مصباح الجسـد . الذي ليس في ماضيه نـورٌ ، فحاضره ليلٌ طويلٌ .. !!

اسمى حسن إبراهيم مصطفى الشاعر ، لكن لا أحدَ يعرف سوي اسم الشـهرة حسـن الشـاعـر . بعـض الخبثـاء .. لا أتـذكر من هو ،

قال ذات مرة .. لا أدرى أيضا متى : عدم ذكر اسم أبيك تعبير عن رغبةٍ مكبوتةٍ .

ـ ما هي ؟

ـ الرغبة في قتل الأب .

ـ قلْ كلاماً معقولاً يا صديقي .

ـ علماء النفس يقولون .. الإنسان عندما يكون طفلاً يغار من أبيه ، لأنه يشاركه حبّ الأم ، ويحرمه من رضاعة ثدييْها ومتعة النظر إلى وجهها. هذه حقيقة نفسية ـ إذا كانت علاقة الأب بالأم .. وبالتالي مع الابن علاقة طيبة .

ـ وإذا لم تكنْ .. ؟

ـ إذا فشلت الحياة الزوجية .. فالرجل غالبا في بلاد مثل بلادنا هو المسئول . وفي الغالب يمارس على الأم أنواعاً مختلفة من الاضطهاد مثل الشتم والضرب والحرمان من حقُوقٍ كثيرةٍ . هنا يأخذ الطفل بالغريزة صفّ الأم ، ويتعاطف معها ، وتكون لديه رغبة مكبوتة في قتل الأب .. والتخلص منه .

ـ لا أصدق .

ـ هذه حقيقة مؤكدة .. فرويد بنى الأسس الفلسفية لعقدة أوديب على أسطورة أوديب .. التي تحكى أنه قتل أباه ، وتزوج أمه .

- كيف نبنى حقيقة على أسطورة ؟

- الأسطورة ليست خرافة .. وإنما حقيقة صادقة . منذ توقفت البشرية عن صناعة الأساطير ، فقدتْ كثيرا من منابع الصدق والخير والجمال .

قلتُ : هذه حقيقة تحتاج إلى مراجعة أو .. تأمل على الأقل .

- علم النفس ليس وهما .. أو خيالا، إنه علم .. تعرف معنى كلمة علم . ؟

- نعم .

- أهم حقائق هذا العلم هي أن الإنسان يظل طوال عمره أسيراً لما حدث له في مرحلة الطفولة . الطفولة .. هي التي تشكل شخصية كل إنسان ، وتظهر ملكاته الخلاقة أو عقده المرضية ، لذلك يركز علماء التربية على مراحل التعليم الأولي .

- هل يعرف ذلك علماء التربية في بلادنا العربية ؟

- لست أدري .. ؟ !!

* * *

أيقظني من شطحاتي - في الحادية عشرة مساء - طرق خفيف متقطع . ترددت لحظة . نظرت من الشراعة فإذا حمدي الحسيني واقفٌ بالباب . سعدت بقدوم أعزّ الأصدقاء .

- أحضر لك كوباً من البيرة .. يا دكتور ؟

- أنا غير معتاد على ذلك ، لكني في حاجة إلى أيّ كأس .

- خيراً يا حمدي ؟

- قررت أن أتزوج ..

- مبروك .. من .. ؟

- فتاة طيبة تعمل في بنك مصر ، زارتني مع أختها في المستشفى . الخطوبة يوم الخميس ، والفرح في الصيف القادم إن شاء الله .

- بهذه السرعة .. ؟ !

- خيرُ البرّ عاجله .

- يقولون : الزواج شرّ لابد منه .

- خير .. شر .. هذه سنة الحياة . عقبى لك .

شردتُ .. ولم أرد . بعد مدة تساءل : حسن ماذا بك ؟

انتبهتُ قائلا : يبدو أن العدوى سوف تصيبني أيضا.

- معقول .. ؟ لا .. غير معقول .

ـ فتــاة جميلة أعــلنت عليّ الحبّ .. كل يوم تأتــيني بزيّ جميل .. وموضوع جديد .

أمسكتُ سيجارة .. فمنعني حمدي من إشعالها .

ـ حرام عليك .. ارحم صدرك من هذا الوباء .. هل أعجبتك ؟

ـ أول فتاة تشدّ انتباهي بقوة .

ـ على بركة الله .. شدّ حيلك ، حتى نتزوج في ليلة واحدة .

ـ الأمر عندي مختلف .. لابد من التفكير الهادئ .

ـ يا أخي .. الزواج مشروع عاطفي .

ـ لكن ، لابد فيه من التفكير المنطقي . !

* * *

في صباح اليوم التالي .. ذهبتُ إلى المكتب مبكراً على غير العادة . الأغربُ من هذا أنه لم يكن لدىّ شيء أعمله . وصلتُ قبل عم ربيع .. ولولا أني أحبه لأغضبته . ربيع فرغلي ـ عامل المكتب رجل في الخامسة والأربعين يعول نصف دستة أطفال كلهن بنات ، وساكن في أطراف حيّ بولاق الدكرور ، الذي يسمي الصين الشعبية ـ لكثرة عدد سكانه . سلّم على وهو يحنى ظهره قائلا : آسف يا أستاذ .. تعرف أزمة المواصلات .

ـ حصل خير .. المهم أنك وصلت بالسلامة .

ـ أنظف الحجرة أولاً.. أم أحضر السندوتشات ؟

ـ نظف الحجرة .. وحين تنتهى أعدّ لي فنجان قهوة سادة .

* * *

قررت أن أنزل إلى الشارع ، حتى ينتهي ربيع من عملية التنظيف .. ويقترب الوعد . لا أصدق أنني .. لم يحدث لي هذا من قبل . ثلاثون عاماً وأنا صامد .. ماذا جرى لك ياحسن ؟ على كل .. الفتاة حلوة .. وتستحق كل ما أنا فيه . الشارع مزدحم .. الناس كثيرون ، والمحلات بدأت تستقبل اليوم الجديد . دخلت أجزاخانة قريبة ، وطلبت زجاجة كولونيا فاخرة . بعدها اكتشفت أنني نسيت علبة السجائر في البيت . النسيان علامة الانشغال .. والانشغال علامة الحب .. ياحبيبي .

أخذت أصلح ملابسي في مرآة المصعد ، وأساوى الأجزاء المنكوشة من شَعري . تحسستُ زجاجة الكولونيا بفرحة طفل . المفارقة العجيبة أنني وجدت هالة تنتظرني في المكتب . حلوة ... جميلة ، لسان حالها يقول : هئت لك ..!!

ـ صباح الخير .. يا آنسة هالة .. متى جئت .. ؟

أبقيتُ يدها في يدي مدة طويلة ، أحسست رعشة في داخلي . لم تحاول أن تسحب يدها . عظيم ياحسن .. الطائر د خل العشّ .

ـ أحضرت لـك الفطور.. سـندوتشـات جـبن رومـي ... وقـشـدة بالعسـل الأبيـض .

ـ سأقبـل دعـوتـك بشـرط ..

ـ ما هو ..؟

ـ تأكلين معي .

ـ والرجيم .. ؟

ـ أعطه إجازة يوماً .. حتى يكون بيْننا عيش وملح .

* * *

لم أسعد في حياتي مثـلما سعدتُ في هذه اللحظة ، التي لم أنسها حتى اليوم .. كان ذلك في العاشرة من صباح الأربعاء ١٧ سبتمبر ١٩٨١ .. يوم عـيد ميلادي الجديد . يا طـيور المحبة في كل مكان .. غردي وزغردى .. وتعالى لتشهدى .. يوم مولدي . ياقمر السماء ، لم يعد لك بهاء . قلبي يُحدِّثني أن شتاء هذا العام .. سيكون دافئًا بالمحبة ، مشرقاً بالنور ، مُعطراً بالزهـور . يا كل الماضي والحاضر .. أنت الأمل .. أنت المستقبل . صحراء بغير مياه .. تكون الحياة .. إذا لم يخفق القلب .. بنشيد الحبّ . الحبّ يفجر الينابيع في كل الأودية ، فتجرى المياه .. وترتوى الشفاه .. وتدور مسيرة الحياة . الأرض العطشى حين ترتوى .. ترعوى ، فتُنْبتُ الزرع البهيج ، ويفوح الأريج .. !!

أيقظتني من شرودى قائلة بمرح : أستاذ .. نحن هنا .

ـ آسف .. كنت مشغولاً بك عنك .

نظرتُ إلى فستانها البمبى الهادئ الجميل .. وحزام معدني ، يبرز روعة خصرها النحيل .

ـ فزورة .. ؟ !

ـ لا .. هذه أول آثار عدم أكل الفول والطعمية .

* * *

خرجتْ هالة لتذهب إلى قسم السيدة زينب ، بينما جاء عم ربيع قائلاً : رئيس التحرير يطلب أنْ تذهب إليه .

بعد التحية التقليدية ـ جاء تليفون طويل . كان رئيس التحرير الأستاذ مصطفى فودة يسمع كثيرا .. ويتكلم قليلا . لماذا طلبنى ..؟ وهل لذلك علاقة بهالة ؟ أشك .. لكن لم أشِك ..؟! عم ربيع نفسه نظراته تدل على أنه بدأ يفهم . وإذا فهم أمثال ربيع فما بالك بالموظفين والمحررين ؟ أكيد نصْفهم ـ على الأقل ـ عيونٌ لرئيس التحرير ، خاصة وأن هالة تتردد على مكتبي، وليستْ لها.. أوْ لعملها أية علاقة مباشرة بي . أنا مجرد صحفى مثل حوالى خمسين صحفياً في الجريدة . أول مرة تقع يا حسن . لابد من البحث عن إجابة مقنعة . لا أعرف الكذب .. ولا أجيده .

ـ أهلا يا أستاذ حسن .. ثم أردف مبتسما : لم نرك منذ مدة طويلة .

ـ أحضر كل يوم .

ـ أعرف .. ولكن ..

ـ مـاذا ؟

ـ لقد أثبت كفاءة نادرة في المدة القليلة التي عملت فيها هنا . بعد سنتيْن أصبحت من أكفأ المحررين في الشئون العربية .

ـ هذه مجاملة ؟

ـ لا .. حقيقة .

ـ أشكرك .

ـ الجريدة سوف تقوم بعمل حملة إعلامية .. لتأييد اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل . معظم البلاد العربية ـ كما تعلم ـ قاطعتْ مصر .. وبعض جرائد المعارضة تتاجر بالقضية . وهذا يزيد من حرج الحكومة في الداخل بعد تأزم الموقف العربي ، ونقل مقرّ جامعة الدول العربية من القاهرة الى تونس .

ـ ما هو المطلوب ؟

ـ أعرف سلاسة أسلوبك .. وقدرتك البارعة على كتابة المقال السياسي ، لذلك أرجو أن تعد سلسلة من المقالات حول قضية السلام وأثرها على المنطقة .

أشعلت سيجارة .. وأخذت أتأمل دخانها، يتلاشى في الغرفة . أيقظني من شطحاتي متسائلا :

ـ متى تقدّم المقال الأول .. ؟

ـ لم تسألني .. هل أنا موافق أم لا ؟

ـ ولم لا .. ؟

ـ لا أستطيع أن أكتب في قضية .. أنا غيرُ مقتنعٍ بها.

ـ نحن نعمل في جريدة قومية .. ملك للحكومة .

ـ لا.. إنها ملك للشعب .

ـ دعْ هذه السفسطة ، وادخلْ في الموضوع .. هات من الآخر يا أستاذ .

ماذا يريد مني هذا الرجل على وجه التحديد ؟ امتحان صعب.. مهما كانت العاقبة ، لن أكتب إلا ما أومن به .. وأنا غير مؤمن بالقضيّة التي يتحدث عنها .

ـ فكر في الموضوع .. أراك غدا .

ـ إن شاء الله .

لو كان همًا واحداً .. لاحتملته ، لكن الهم صار همّيْن . لا .. ياسيادة رئيس التحرير ، الصحفي ليس مدرساً يعلم المقرر الذي يمليه ناظر المدرسة . الصحافة مؤسسة حرّة .. والصحفي الحقيقي لا يكتب

إلاّ ما يمليه ضميره . أوْ كما يقول عمّ ربيع ببساطة : «الصحفي الجدع يقول للأعور أنت أعور في عينه ». بمناسبة عم ربيع أحسست رغبة في فنجان آخرمن القهوة السادة . وضع القهوة ، ثم قال : جاءك صديق منذ لحظة .. وسأل عنك .

ـ من هو .. ؟ قلت لك ألف مرة .. اعرف اسم من يسأل عنيّ .

ـ وهل تفوتني هذه يا أستاذ .. ؟ الذي سأل عنك هو الأستاذ سميح .. سميح عبد المسيح .

بينما أفكر في قضيتي مع هالة توفيق .. وأزمتى مع رئيس التحرير ، ولا أستطيع أن أركز في أيّ منهما دخل سميح . تعانقنا بحرارة ، إذْ لم أره منذ فترة طويلة .

ـ الفنان الكبير في جريدتنا المتواضعة .. أهلاً وسهلاً .

ـ لا نراك .. ولانسمع صوتك ، قلت عليّ التحمل .

ـ ماذا تشرب ؟

ـ لا شيء .. شربت كثيرا مع بعض الزملاء ، وأنت عند رئيس التحرير . بشّرْ .. ترقية أم علاوة ؟

ـ مشكلة .. أوْ على الأقل .. أزمة ؟

ـ لـــم .. ؟!

ـ مات من عائلة الشاعر عشرة أفراد في الحرب مع إسرائيل ..

ورئيس التحرير يطلب منّي أن أبارك اتفاقية السلام ، وأكتب عن آثارها العظيمة على المنطقة الشرق أوسطية .. تصور .. ؟!

ـ حاول أن تخرج من الأزمة دون خسائر . اكتبْ عن قضية الحرب والسلام بصفة عامة ـ دون الدخول في أية تفاصيل .

ـ وهل يرضى بذلك ؟

ـ جربْ .. لن تخسر شيئا .

بعد فترة صمت أردف سميح : نسيت ماجئت من أجله .

ـ خيراً.

ـ اعتقلوا أدهم بدير.. وأريد أن نذهب لزيارته في سجن طرة .

ـ متى حدث ذلك ؟

ـ منذ أيام قليلة .. ألا تقرأ الصحف ؟

ـ كل يوم .. لكنّي قلت إن الرجل تاب ونسي .. وشارك في حرب أكتوبر ١٩٧٣، لو كنّا في العصور الوسطى لأعطوْه صكّ غفران.

ـ أيّ اسم مدوّن في سجلات المخابرات الأميرية ، فتوقع أنه تحت المراقبة إلى أن يموت .. أو يُقتل .. أو يهاجر .

ـ هذه فلسفة ثورة ..؟!

ـ هذا أسلوب أجْهزة مخابرات .

ليمان طرة .. بناه محمد على ـ منذ قرن ونصف ، ليكون سجناً للمجرمين والخارجين على القانون .. الآن أصبح معتقلاً للمسجونين السياسيين . غريب وعجيب أن يقود الفكر الأيديولوجي صاحبه إلى السجن ، بينما كثير من المجرمين والقتلة يتحركون دون رقابة ، ليعيشوا في الأرض فسادا .. ياما .. في الحبس مظاليم .. يا بلدنا!!

* * *

في الليل تنهشُ عظامي ولحمى الهمومُ البعيدة والقريبة . عندما كنتُ صغيرا أصبحتُ يتيما رغم أن لي أبا .. وصرتُ لطيما مع أن لي أمًا طيبة . انفصل أبواي بعد عام من إنجابي ..! كان أبى فظًا غليظ القلب .. مدمن مخدرات ـ رغم أنه مدرس ابتدائي ومن خريجي الأزهرالشريف . باع مصاغ أمي قطعة .. قطعة من أجل الحشيش . حين اعترضتْ ذات مرة ، قال بتبجح : أشرب الحشيش من أجلك ياغشيمة .. لكن كيف تعرف الحمير فائدة شُرب الزنجبيل ..؟!

العجيب أنه تزوّج بعد ذلك وصلح حاله ، كما تزوجت أمي وأنعم الله عليها بزوج طيّب . لكن الذي ضاع في منتصف الطريق .. هو أنا . لم يكن لي مكان في بيت أبي .. ولا في دار أمي . الله كريم .. لولا جدتي لأمي التي احتضنتني ، وأحبتني حباً جمًا ، لكنتُ مخلوقا آخر ، لكن الله سلم . طلب أبي أنْ أحفظ القرآن الكريم وأنا طفل غرير . فرحتُ بذلك .. وكنتُ أجد لذة روحية في التلاوة

والحفظ . العريف ـ ذات يوم ـ قال لي : لقد حلّت عـليك بركة القرآن الكـريم يا حسن .

بعد أن حفظت القرآن وعندي تسع سنين ، أراد أبي أن أتسوّل بالقرآن الكريم .. وأقرأ علي المقابر وفي البيوت . جدتي قالت يومها جملة لاتزال ترنُّ في أذني ، وهي تكسرعود حطب جافاً : الكلب .. لايرحم .. ولايريد أن تنـزل رحمة اللـه . سوف تدخل المدرسـة إن شاء اللـه يا ابني .. لو وقف في طريقك سأقتله بيديّ هاتين .. الكـلب ابن الكـلب . ثم بصقت بقرف ناحـية الشـمال .

أنا ابن جدّتي نفيسة .. لولا هذه السيدة العظيـمة ما وصلت إلى أيّ شيء مما أنا فيه اليوم . من فضل الله عليّ أن هذه السيـدة ماتتْ بعد أن تخرجتُ فى الجامعة .. من يومها لا أذهب إلى القرية ، ولا أريد أن أتذكرها. وإذا ذهبتُ تكون زيارة قبر جدّتي نفيسة ـ رحمة الله عليها ـ أول عمل أقوم به هناك .

أحسستُ أني فأر مطاردَ .. كُتبتْ عليه اللعنة منذ جاء إلى الأرض . إذا تذكرت الماضي أحترق .. وإذا فكرتُ في الحاضر أتعذّب . ماذا أفعل مع هالة .. وماذا أقول لرئيس التحرير .. ؟!

ذهبتْ همومٌ حِرْتُ في أسمائها وأتـتْ همومٌ مالـهـنّ أسامي

أطفأتُ السيجارة .. وشددت الملاءة .. واحتسيتُ آخر كأس في الزجاجة قائلاً : اليوم خمر ، وغداً أمر .. ياهالة .. !!

٢ـ الحلمُ .. والكابوس

أنا رجل معجون بماء القلق والتوتر . إذا كانتْ عندى مشكلة واحدة ، فإنها تربكني وتحيّرني .. لا أستطيع أن أنام .. أو آكل .. أو أعمل أي شيء ، حتى أجد لها مخرجاً . فماذا أفعل اليوم وقد ابتلا ني الله بأكثر من مشكلة في وقت واحد ؟! عندما كنتُ صغيراً أحببتُ هواية صيد السمك . كثيراً ما كنتُ أعود بلا شيء . جدّتي نفيسة كانت تقول : ليس المهم هو السمك .. الأهم أن تتعلم الصبر . مشاكل كثيرة في هذه الدنيا لا يحلّها إلاّ الصبر . اللهم اجعلنا من الصابرين .. !!

اشتقتُ ذات مرة .. وأنا صغير لرؤية أمي . رفضتْ جدتي قائلة : أمك تعرف أن لها ولدا ، وهذا بيت أبيها. لو أرادتْ أن تأتي إلى هنا في أيّ وقت ، فلن تجد الباب مغلقاً . لا تذهب إلى بيت ، ليس لك مكان في قلوب أهله .



رحمة الله عليك يا جدتي .. أنا محتاج إليك الآن أكثر من أيّ وقت مضي . لماذا يمضى الأحباب سريعاً .. ويتركوننا بين ألف خصم وعدوّ .. ؟!

يا ربّ إليك دعوتُ ، فاستجبْ لدعوتي .. عندما أستعينُ بك، وأتضرّعُ إليك . دلني على الطريق التي أسلكها ، فإليك أسلمت نفسي ، ووجهتُ روحي . يا ربّي .. ألهمْني الحكمةَ والفطنة .. !!

لا أدري.. كيف مرتْ تلك الليلة الحزينة . طال ليلى .. ولم أنم. سمعتُ أذان الفجر . توضأتُ وصليت . منذ مدة طويلة لم أصل الصبح في موعده .. فأل طيّب . من وصايا جدّتي العزيزة .. إذا كنت تريد أن يحقق لك اللـه أملاً ترجوه ، فاقرأ « سورة يس » ، فهي مفتاحٌ لكثيرٍ من أبواب الخيْر والرّحمة .

* * *

- أريد أن أراك مساء اليوم .. متى .. وأين ؟

ردت هالة : أنا معك الآن .

- أريد أن آخذ رأيك في مشكلة صديق لي .

- ألا ترى أنّك متعجل .. ؟!

- لا .. صديقي هو المتعجّل .

- مشكلة صاحبك في حاجة إلى صبر أكثر، فقد ...

ضحكتْ من الأعماق ، فقالتْ متعجبةً : لماذا .. ؟!

- ذكّرتني بجدتي .

نظرتْ إليّ كأنما تراني لأول مرة . ماذا تقول الغزالة لنفسها عن الحبيب الغشيم . ؟! لو صبرتُ .. كما نصحتْني جدّتي ، ربما كانتْ هي التي طلبت مني . لكنّي رجل .. والرجال أحيانا حمقى .. يرضى غرورهم أن يأخذوا زمام المبادرة مع النساء .. !!

أذهلتْني مفاجأة رئيس التحرير ، فقد جاء إلى مكتبي ، ولم ينتظر حتى أذهب إليه . كان الرجل ممتلئا واثقَ الخطي . بعد التّحية سألني :

- عندك جواز سفر ؟

- خيراً .

- جاءتني دعوة لحضور مؤتمر سياسي في ليبيا بمناسبة ذكرى عيد الثورة . قلت أنت أولى بها منّي .

- العفو .. يا أستاذ مصطفى .

قال وهو يصافحني مودعاً : جهّز أوراقك .. السفر بعد يوميْن .

حيّرتني مفاجأة رئيس التحرير ، وأخذتُ أضرب أخماساً في أسْداس . هذه رشوة .. عربون صداقة .. فخّ .. حسن نية .. امتحان .. ؟! يا ألله .. أعطيْتني العقل .. ولم تمنحني الحكمة . أنا

شكّاك .. موسوس .. لا آخذ أيّ حدثٍ على أنه يأتي صدفة أو بحسن نيّة . لا هالة تتعامل معي بحسن نيّة .. ولا رئيس التحرير جاءني صدفة . أيمكن للمرء أن يمشي على جمرٍ ، ولا تكتوى قدماه .. ؟!
يا ألله .. ساعدني .. !!

أخيراً .. جاء الفرج . مساء غد أقابل هالة .. وبعد يومين أسافر إلى ليبيا. أول مرة أركب الطائرة .. وأقوم برحلة خارج الوطن . ما الجديد الذي سوف أراه في ليبيا .. وهي جزء من مصر .. وامتداد لصحرائها ؟ لا تكن طماعا ياحسن .. أول الغيث قطرة . وقد يتكرّم رئيس التحرير ، ويُعطيك بدل سفر بالدولار . أول مرة ترى الدولار ، وتمسكه بيدك ، وتضعه في جيبك . ياسلام يا ولد يا حسن .. أخيراً ابتسمتْ لك الدنيا. كل هذا بفضل دعوات جدتي نفيسة . حاولت في كل ماقرأت أن أجد لها شبيها ، فلم أتوصل إلاّ إلى جدة المتنبى . رحمة الله عليك ياجدّتي العظيمة .. !!

* * *

كازينو قصر النيل .. مكان اللقاء التاريخي . أول مرة آخذ موعداً غراميا مع فتاة . مع بداية المساء كان بجواري .. الليل والنيل .. الماء والخضرة .. الصبا والجمال .. الحب والآمال . في الضوء الخافت وهدوء نسمات الخريف نظرت إليها بعيون الحب . لا .. لا أكاد أصدق . هذه ملاك طاهر .. من الحور العين . كيف مرقتْ من عالم السماء ، وهبطت إلى دنيا الناس .. ؟! أمثال هالة

ينبغي أن نصنع لهنّ تماثيل من المرمر الخالص ، توضع في المتاحف والميادين . تبارك الله .. سبحان الله . أعشاني الضوء .. وبهرني الجمال .. فتوقفتْ كل حواسي .. حتي أنفاسي .. !!

قطعتْ الصمت بدلال : لن تسْقيني شيئا .. ؟

- ماذا ؟

- عصير ليمون .

- بالمناسبة أحبّ الليمون في كل شيء آكله أو أشربه .

- في أعماقك بذرة رومانسية .

- بذرة واحدة ... ؟!

ملاحظة جانبية .. أدركتها الليلة لأول مرة ، وهي أن محبوبتي الفاتنة تغير في كل مرة تراها .. ملابسها ومكياجها وتسريحة شعرها ، فتحس أنك تلقي كل مرة فتاة بديعة ، لم ترها من قبل . من علّمك كل هذا يا غزالتي الصغيرة .. ؟ لا غرو أن الله - جلّت قدرته - بعث إليّ هذه الفتاة الحنون ، حتى يعوّضني عن أيّام الحرمان .

مرّت عليّ ثلاثون سنة .. لم أر جسد امرأة ، ولا رأتْ منّي . قد أبْدي نظرة إعجاب نحو أيّ امرأة جميلة .. فأنا بشرٌ ، لكني لم أفكر ذاتَ مرة أن أختلى بامرأة .. ولم أحاول . لا أدري سبباً لذلك .. لكنيّ لا أرغب .. ولا أتمنّى .

عرفتُ الليلة من هالة أنها الابنة الكبري لأحد مهندسي الريّ ، وهو الآن أحد المشرفين على سلامة السدّ العالي بأسوان . وقد زار من أجل هذه المهمة بلاداً أوربية كثيرة . أمها تعمل أستاذة في المركز القومي للبحوث ـ قسم الصناعات الغذائية ، ولها أخوان صغيران . وقد ربّاها الأبوان تربية حديثة .. وتركا لها حرية اختيار الدراسة والصديقات .. والملابس . ولكنها ـ رغم كل هذه الحرية والاستقلالية ـ إنسانة ملتزمة .. تعرف ما عليها قبل ما لها . أبوها يعاملها معاملة الصديق .. ويناقشها في كثير مما تقرأ . تمنتْ أن تحبَّ رجلاً مثقفاً واسعَ الأفقِ مثله . هل كنت أنا ذلك الرجل ؟ تعرف أني معجبٌ بها .. وأنني أرغبُ صادقاً في الارتباط بها ، لكنها.. دائماً متحفظة .

نسماتُ الخريفِ من حولنا.. تشع برودة منعشة . أضواء مصابيح الكهرباء انعكستْ على صفحة النهر العجوز . النيل .. أطول أنهار الدنيا عمرا .. ورغم ذلك لايزال يجري .. يحمل الأمل والحياة .

النيل .. هو الذي صنع حضارة مصر . ما أصدق كلمة هيرودوت : « مصر هبة النيل » . أيها النيل العظيم اشهدْ على حُبّي لـ « هالة » ، وبارك علاقتنا الطاهرة . كل أنثى في هذه الدنيا من البشر .. لكن هالة حبيبتي من الحور العين ، بدتْ في قوامها الرشيق ، وثوبها الأزرق الأنيق مثل بطلة أسطورة عروس النيل ..

جاءت بنفسها ونفيسها، وأتتْ شيقة حواها شيّق . تمنيت أن أخطفها وأطير بها فوق الزمان والمكان . أخشى إنْ تركتها اليوم ألا أجدها غداً . ليتني أستطيع عمل تمثال لها . ليتني كنت شاعراً .. يا مني روحي، حتى أستطيع أن أحلّق في وصفك، كما فعل عنترة ، وجميل ، والمجنون ، وشكسبير ، وألفرد دي موسيه .. وغيرهم من شعراء الحب في القديم والحديث . هدئ من روعك أيها الرومانسي الحالم .. وحاول أن تقول شيئا .. صحيح الحبّ يجنن ويهوس ويوسوس . الآن .. لابد أن أحتفظ بقدر من عقلي ، أخاطب به المحبوبة بعد أن طار الجزء الأكبر منه . جنون الحبّ .. جنونٌ حلوٌ لذيذٌ .. !!

- هالة .. أنا معجبٌ بك .

قالت وهي ترد خصلات شعرها خلف رقبة الغزال في دلال : أعرف صدق مشاعرك . لولا ذلك .. ما وافقتُ على هذا اللقاء .

- إذن أذهب لأبيك الليلة القادمة .

- كن عاقلا .. يا صديقي .

- أرجوكِ .

- مستحيل .

- لم يعد في هذا العصر شيء اسمه مستحيل .

- بابا في أسوان .. يا أستاذ حسن .

كانتْ ـ فيما يبدو ـ سعيدة بي . قرأتُ ذلك في عينيها .. وفي خجل العذاري يحمّر وجنتيها، ويُوتِّر صوتها . مالنا نحن الرجال .. لا نعترف بالحب ولانرضاه ـ أحيانا ـ لأنفسنا أوْ لغيرنا .. حتى إذا جاء الحلم تمنينا ألا نفيق ، ورغبنا في أن يعم الحب جميع البشر. الحبّ يجعلنا .. ننسى وقار السنّ، وحكمة العلم، وحنكة التجربة. الحبّ طفولة وبراءة . الحبّ منظار ورديّ .. نرى به كل شيء في الوجود جميلا . أين عبد الله عاشور ليقول : الحبّ أسطورة جميلة يا صديقي ..!!

- أمك إنسانة مثقفة .. أذهب وأخطبك منها .. غداً .

ـ بعد أن تعود من ليبيا بسلامة الله ، حتى أمهِّد للموضوع مع بابا .. وماما .

- تبدو المسافة بعيدة جداً .

- المهم أننا متفاهمان ...

- ومتفقان .. يا حبيبتي .

احمرّ وجهها خجلا . لم أدر كيف تورطتُ في ذكر كلمة «حبيبتي » . هذه أول مرة أخرج معها . ماذا ستقول عني .. ؟ ستقول إني أحبها .. ! ماتريده أية امرأة من أيّ رجل هو الحبّ . قد تبدو منزعجة من الخارج .. لكنها في الأعماق تكون سعيدة راضية . الحبّ بعض آمال الرجل ، لكنه .. كلُّ أحلام المرأة .. !!

يا راحة روحي .. طال في البحث عنـك عنائي . ثلاثـون سنة وأنا أنـتظر . ليـت الزمان يتوقـف .. أو على الأقـل ليت المسـاء لايتحرك ، والصبح لايـطلع . يا طيور .. يازهـور .. يا شمس .. يا قمر .. يا بـشـر .. تعالـوا إليّ .. لتـروا حبيـبتي الجميلة .. ومُنية النفس العليلة .. !

- لابد أن نذهب .. كم الساعـة الآن ؟

- العاشرة والنصف .. الوقت لايزال مبكرا .

- لابد أن أعـود .. أمي وحـدها .

- معـك حق .. ولو أني لم أشبع منـك .

- سآتي غداً .. كي أودّعـك قبل السـفر .

اتـفقنا أن يذهب كل منا وحده إلى بيته . عـنـد نهاية سلم الكازينو ، الذي يـؤدي إلي الخارج .. أحسسـتُ أنني غير قادر على أن أفارقها . اليوم بداية الارتباط .. ومشرق الأمل . أمسكتُ يدها اليسرى بقوة ومودّة : هالـة .

- نعـم .

- رجعت في كلامي .

- كيـف ؟

- أوصلك إلي البيت .

سكتت لحظة كأنها شهر .. ثم قالت بهدوء : إذا كان هذا يريحك . !

قلت فرحا : هذا يردّ فيّ الروح .

في انتظار التاكسي .. ونسمات الخريف تداعب شعرها، فتحت حقيبة يدها بخفة ، وأخرجت قطعة فضية من العملة.

- ما هذا ؟

- ريال فضة .. يقولون إنه يجلب الحظ . أحتفظ به في حقيبتي منذ أكثر من أربع سنين .

- شكرا .. سأحتفظ به حتى آخر يوم من عمري .

- يا رجل .. قل كلمة تفاؤل .

- آسف .. سأحتفظ به ذكرى لأجمل فتاة في وادي النيل .

جاء التاكسي .. ذهبْنا في البداية إلي شارع القصر العيني حيث تسكن . ثم واصلت الطريق إلي أن وصلت إلى بيتي في الدقي .

لا أدري .. كيف وصلت ، ولا كيف خلعت ملابسي ، وهل تناولت العشاء أم لا .. ؟! لولا أنني مرهق لقمت وذهبت إلى المكان الذي كنّا نجلس فيه .. وقضيت الليلة كلها هناك . هذا يوم .. لا ينسي . بل هذا أجمل يوم في عمري . لا أدري كيف غلبني النوم ، وأنا أحتضن الوسادة .. وأحلم بالزواج من هالة .

بين اليقظة والنوم رأيت فيما يرى النائم أنني وهالة في ملابس الفرح .. وجدّتي نفيسة تحتضنها في حرارة ومودة قائلة : تعالي يا هالة .. تعالي .. أنا في انتظارك ياحبيبتي .. !!

* * *

لماذا سافرتُ .. ليتني ما رحت ولا رجعت ، بل ليتني مت .. !! ما فائدة الحياة ، وقد تحولت الدنيا إلى غابة . ضاعت القيم والأخلاق والمبادئ . العالم ذئبٌ أو حمل . تكون آكلا .. أوْ مأكولا . تخيّر مصيرك . لم يعد ممكنا أن تسير في المنتصف .. الزمان اختلف . إما إلى هنا .. أوْ إلى هناك . قلْ .. تكلم . العالم قطار مجنون لايقف إلا عند المحطات الكبرى . قطار الضعفاء لم يعْد له وجود في هذه الحياة الملوّثة .. !! محيط هادر .. موج من فوقه موج . الحيتان .. وأسماك القرش تبتلعُ الأسماك الصغيرة . يا رجل لا تبالغ ، الدنيا لا يزال فيها خير كثير . الدنيا لم يختف منها الشر ، حتى في عصور أولِى العزمِ من الرسل . لكن الدنيا اليوم .. تغيّرتْ فيها أمورٌ كثيرةٌ ، وتوالتْ المفاسد كقطع الليل المظلمة . صدقت يا رسول الله .. «سيأتي زمان على أمتي ، يكون القابض فيه على دينه ، كالقابض على الجمر » . صدقت يا خاتم رسل الله .. نحن في آخر الزمان . القابض على القيم والمبادئ .. مثل القابض على الجمر . الشرارة بداية الحريق .. النار حين تنتشر تحرق .. وتدمّر ، ولاتخلّف إلاّ رمادا أسود .

بكيْتُ في حياتي بكاء حارقاً مرتيْن .. تمنيت في كل مـرة أن يتوفاني الله، لأني أجبن من أن أفكّر في الانتحار . الانتحار يحتاج إلى مواجهة وشجاعة ، حتى تنهى . بإرادتك الصلبة وعزيمتك القوية . حياة بائسة لاترضاها .. ومعيشة ضنْكا لاتود أنْ تحياها . بكيتُ في كل مرة بكاء هزّ كياني . كل عضو فيّ كان يبكي وينتحبُ . مع كل شهقة أحسستُ أن روحى ستخرج من جسدي الضعيف . الذي كانت تشبهه جدتي بالغاب الرومي . بين كل مرة بكيت فيها وبين الأخري ما يزيد على عشرين سنة . لكن ماذا تجدي عشرون سنة في عمر شاب بائس .. يائس مثلى .. ذكرياته كلها سوداء .. وعمره كله شقاء . الهمّ يجمّع بعضه .. بعضا . بكى بعضى على بعضى معي . أيها المعذب الضال .. لماذا تعيش ؟! أنت نحس . ليس على نفسك . فأنت حرٌ فيها ، لكن على كل من يجذبه حظه التّعس نحوك . أنت السبب.. لولاك ما وقعت الواقعة .. ليتني متُّ يا هالة. ليتني لم أعرفك .. بل ليتك لم تعرفيني . أنت .. أم أنا .. أم الزمان ؟ لا أنا أنا.. ولا أنتِ أنت .. ولا الزمان هو الزمان ، الذي كنا نحلم به !! ماحدث شيء فظيع .. بشع . الذئاب عوتْ .. النيران اشتعلت ، الحشراتُ حشرت . لا تستهنْ بالنار حتى لو كانت شرارة .. أو بالحشرة ، حتى لو كانت برغوثا. فأر واحد .. ينشر السرطان في مدينة بأكملها .

* * *

عندما كنت في السابعة من عمري لم أكن أعرف أحداً .. ولم يكن يعرفني أحدٌ . تعرفت على أحمد حلمي في المدرسة الابتدا ئية ـ التي كنتُ أذهب بعدها إلى كتّاب العريف لحفظ القرآن الكريم ، لأن أبي ـ سامحه الله ـ كان يريد لي مساراً آخر غير المدارس . أحمد حلمي منذ الطفولة ولد شقي .. يحبّ السباحة في الترعة .. ولعب كرة القدم . ذات يوم أغراني بأن أتعلم العوم .. وأسبح في الترعة . بعد ذلك طلب مني أنْ أذهب معه إلى قرية البرامون المجاورة لقريتنا ، لأن فريق قريتنا سوف يلاعب فريقهم . خفت من أبي .. ومن العريف .. ومن جدتي . لكن الجدة نفيسة ـ وهي الوحيدة التي استأذنتُها ـ وافقتْ بشرط ألاّ أتأخر، وأن أحترس من العربات والسيارات التي تسير في الطريق الزراعى . كما طلبتْ منيّ ألاّ أمشي وحدي إذا كانت العودة بعد المغرب ، لأن الترعة تسكنها العفاريت والجنيّات ، التي تخرج لمن يمشي وحده . وقد تأخذه وتذهب به تحت الماء ، وربّما.. تحت الأرض السابعة ، فيعيش هناك مدة من الزمان ، لايعلمها إلاّ الله . اقشعر جسدي حين سمعتُ عن العفاريت لأول مرة ، لكن أحمد شجعنى قائلاً : يا أخي.. لايوجد عفاريت ولا جنّ . بابا دائما يقول : ما عفريت إلاّ بني آدم .

عدنا إلى القرية بعد غروب الشمس بمدة قصيرة . لم أشاهد العفاريت أو الجنيّات التي خوفتني منها جدتي نفيسة ، غير أني رأيت ماهو أبشع منها.. وأشدّ تعذيبا .

استدعاني أبي من بيت جدتي بعد أن اغتسلت ، وغيَّرت ملابسي ، ثم تعشيت، وجاءت أمي لزيارتي على غير العادة . لم تكن أمي فوزية تمثل شيئًا لـه أهمية في حياتي ، حتى في الأعياد . لا أدري متى تأتي .. أو متى تذهب . يبدو أنها تركت الحمل كله على جدتي .. وتفرغت لزوجها وأبنائها الأربعة . تركتُ أمي وجدتي .. وذهبت إلى دار أبي مع صبيٍّ من أبناء جيرانه اسمه حامد . لا أدري حتى اليوم .. السبب في أنّ أبي لم يكن يرغب في أن اختلط كثيراً بإخوتي الثلاثة . عندي أربعة إخوة من أمي .. وثلاثة من أبي. لكن أولئك .. وهؤلاء كانوا بعيدين عنيّ، وبالتالي تباعدتُ أيضا عنهم . الشعور بالذل إحساس كئيب ، خاصة إذا كان يأتيك من ناحية أولاد آمك .. أو أولاد أبيك . الذل أمرُّ من طعم الحنظل ، وأصعبُ من حدة الشوك ، إذا فقئت به العيون . ياعيني عليّ وعلى بختي الأسود .

جلس أبي على حصيرة في صالة الدار ، وبجواره العريف الشيخ باز، يتناولان طعام العشاء . يبدو أن في الأمر مؤامرة . سأل العريف، وهو يتناول ملعقة من شوربة العدس: أين كنت اليوم.. ياشيخ حسن؟

وقال أبي دون أن يرفع وجهه عن طبق الثريد : أكلت يا ولد؟

سكتُّ فقد أكلتُ عند جدتي . لكنني كنتُ أود أن أحسّ قدراً من الحنان المفتقد . تمنيت .. أن يشدني إلى جواره ، وأن يربت على كتفي بمودة .. وأن يقبل جبهتي بحبّ ، كما يفعل معظم الآباء . كنت مثل

الحافي .. يسير على الأشواك . قلبي الصغير يخفق . هناك كارثة .. أو مشكلة على الأقل . يامـلعون .. يا رجل يا دون .. لماذا جئت بي إلى هذه الدنيا ؟ ما ذنبي أنا إذا كانت أمي قد كرهتك .. وهربت منك ؟! حقيقي معها حق . أنت فحْل جاموس . لا.. أنت العفريت الذي حدثتني عنه جدّتي نفيسة . رغبت في شربة ماء .. لكنّي بلعتْ ريقي في صمت . الغريب أن إخوتي - سامحهم الله - حبستهم زوج أبي في حجرتها ، وحرّمت عليهم الخروج والجلوس معي . هي دائما هكذا .. حمالة الحطب ، امرأة أبي اللهب ، هي السبب . هي التي نزعت كل عاطفة نحوي من قلب هذا الرجل الذي يدعون أنه أبي . كما أنها حالت بيني وبين إخوتي الثلاثة : خليل وخيرية وفكرى .

- ارتكبت ثلاث مخالفات اليوم .. يا ولد يا قليل الأدب .

نظرت ناحية أبي .. وقد خلع جلبابه ، وبقي بملابسه الداخلية : فانلة بكم طويل ، وسروال بتكة صوفية ، وقد تدلت التكة أمامه كأنها رباط ثور . استشعرتُ نار الشر في عينيه الجاحظتيْن . رائحة البصل الأحمر تتصاعد من فمه مع رائحة عرق نفّاذة ، فازداد منظره ومخبره سوءاً . جدتي كانت تدرك بالفطرة النقية أنني سأقابل العفاريت الليلة . سامحك الله .. قلبك الأبيض لايكذب . لا أدري كيف انهال الثور عليّ ضرباً بحذائه .. كان يضربُ في أيّ جزء .. وصلت إليه يده - شلّها الله .

في البداية .. تماسكتُ وحاولتُ ألاّ أبكي . الشيخ باز لم يفكر في أن ينـقذني من يـده العمياء . أكيد .. هو الـذي حرّضـه عليّ ، فعـبس وتولي . ضربني بكعـب الحـذاء فجـأة فوق رأسي الصغير. بعـدها.. لم أدرك ماذا حـدث . . ولم أفـق إلاّ في بيت جدتي نفيسة. كانت تأخذ قـطعة من القماش المبـلول بماء بـارد ، وتضعها على رأسي المشتعـل . كنتُ أبكي ، ولا أقـول شـيئا. أبكي .. وهي تبكي ، حتي مطلع الـفـجـر . لـكن عـينـيّ لم تبصرا نـوراً إلاّ بعـد ثـلاثـة أيام .

هذه اللـيلة التـعيسة لـم تغـبْ عن ذاكرتي .. منذ أكثر من عشـرين سنـة . أدركتُ معـنى مـا قـالـه صاحبي أحمد حـلمي : «ما عفريت إلاّ بني آدم » .. ! لم تـكن هـذه العـلـقة مجرد ضـرب عـادي من أجل التـأديـب ، لكنها كانت ضربةَ خنزير غـبيّ . ماذا يصنع أرنب ذلـيل أمام ضبع مفترس .، ؟! لم تـكن ليلة من ليالي الـدنيا.. وإنما لفحة من نار جهنم . لا سامحك الله .. فقد شوّهـت حياتي ، وأطفأت كل ضوء للأمل أمام عينيّ . لكن هذه المعاملة القاسية جعلتني عنـيدا في مواقف التحـدي .. !! أدركت أنني ينبغي أن أكون متفوقا في الدراسـة سواء بالنـسبة لأبناء أبي .. أو أبناء أمي . ذكريات مـرة .. وليـالٍ زرقـاء .. !!

* * *

المرة الثـانية .. الحارقة .. المدمِّرة .. البشعـة .. التي تمنيت فيها أن أكون كلي عيونا تدمع ، وألسنة تـتـقطع . بكيت لأنني لم أضرب

على جسدي ورأسي مثلما حدث وأنا طفل صغير، بل لأنني طُعنت في قلبي .. وجُرحت في إنسانيتي .. وهُزمت في رجولتي . عدت من الرحلة المشئومة .. إلى ليبيا ، وقد اشتعل قلبي شوقاً لمقابلة هالة .. تعرفُ موعد رجوعي . لابد أنها في شوق إليّ مثلما أنا في شوق إليها . تمنيتُ أن أطير من طرابلس إلى القاهرة ، حتى أراك يا راحة روحي .. وفرحة عمرى . حاولت أنْ أشتري لها أي هدية من أسواق طرابلس . للأسف لايوجد هناك شيء ذو قيمة . فأل سيئ أن تلقى أعزّ الناس .. وأحب الناس بعد رحلة ، ويدك فارغة من أية هدية . الهدية رسول المحبة .

بعد ساعة ونصف .. سلمت فيها على بعض الزملاء المقربين ، وشربت حوالي ثلاثة أكواب من الشاي ، وأربعة فناجين من القهوة . كنتُ أتعمد أن يجلس معي الزملاء الذين جاءوا للسلام ، حتى أقطع الوقت البطئ إلى أن تأتي هالة . أحرقت علبة سجائر . حين ناديت ربيع لشراء سجائر ، حاولتُ أن أخفي لهفتي وأنا أعدّ النقود: لم تسأل عليّ الآنسة هالة وأنا غائب ؟

كأنما ذكرته بأمرٍ كاد ينساه : لا أظن أنني رأيتها منذ سفرك .. آه .. تذكّرت .. ربما .. ربما مرّة واحدة .

مضتْ ساعتان ونصف .. لم تحضر هالة .. ولم يحضر رئيس التحرير . بدأ قلبي المتصدّع يحسّ بحسرة وانقباض . شيء ما حدث .. ما هو ..؟!

من أين آتي بالصبر .. الصبر مرٌّ يا جدتي العزيزة . تذكرتُ أنني سافرتُ دون أن آخذ رقم تليفون هالة . كيف نسيت ذلك ؟ لماذا لم تأتى يا هالة .. ؟!

أخبرني ربيع أن رئيس التحرير قد حضر . الحمد لله .. لقاء يقطع الصمت الرهيب ، ويشغل البال المشتت . سلمت عليه بحرارة ، لم يبادلني مثلها . أخذتُ أثرثر عما رأيت .. وعما سمعت .. وعن المقالات التي كتبتها ، والشخصيات التي التقيت معها . لكن الرجل .. كان يخفى شيئا. لم يقل .. ولم أسأل . لغة العيون تقول كثيراً .. نفهمه بالإحساس . أرحني أراحك الله يا أستاذ مصطفى .

ختم اللقاء بقوله : بداية عظيمة جداً ، سأوفدك عن الجريدة في معظم المؤتمرات العربية . أنت صحفي موهوب .. الشئون العربية في حاجة إلى كاتب طموح مثلك .

عدتُ إلى مكتبي ، وقد تجاوزت الساعة الواحدة والنصف من ظهر السبت ٣ أكتوبر ١٩٨١. سلمت المقالات لرئيس التحرير .. والتقيت بمن أريد من الزملاء .. انتهى الموعد الذي كان يمكن أن تأتي فيه هالة . ماذا أفعل .. ؟ فكرة مجنونة .. أوْ بلهاء راودتني. أركب التاكسي .. وأنزل في المكان الذي نزلتْ فيه هالة . ربما أقابلها بالصدفة . لماذا لم أنزل ليلتها، وأوصّلها إلى البيت ؟ لو حدث ذلك .. لو .. !!

أخذتُ أبحث عن الريال الفضة ، فاكتشفت أنه في جيب الجاكتة التي أخذها صبي المكوجي صباح اليوم . أشياء صغيرة .. صغيرة جداً ، تجعلني أتشاءم .. أقلق .. أتوتر .. !! هل سيعيد المكوجي الريال مع الجاكتة .. ؟ أقطع رقبته لو لم يفعل . !! .

أبعدتُ هذه الخاطرة عن فكري .. وطلبتُ حمدي الحسيني في التليفون . أصرّ أن أتناول الغداء معه في النادي . حين أمسكتُ الدجاجة ، ونحن نأكل تذكرت .. حكاية قديمة . أبو العلاء المعري مرض ذات مرّة ، وصار ضعيفاً هزيلاً ، فطلب الطبيب من أهله أن يعدّوا له فرخاً صغيراً. وكان ـ رحمه الله ـ قد حرّم على نفسه أكل ما فيه روح من الحيوان، والطيور ، والأسماك . حين جاءوه بالفروج الصغير بعد طهيه .. أمسك به وقد عزّ عليه ما حدث له ، وتساءل في نفسه : هل لو وصف الطبيب أسداً لعلاجي .. أكانوا يفعلون ؟ . ثم أبعده عن الطعام ، ولم يأكل منه شيئاً .

بعد تناول الغداء مع حمدي .. رآني مضطرباً على غير العادة . ربما كانت علاقتي بحمدي ـ على وجه التحديد دون كل بقية الأصدقاء ـ علاقة خاصة جداً. حمدي هو الأخ الذي تمنيتُ أن يكون قد ولده أبي أو أمي . لا .. لم نكن صديقيْن .. كنا شقيقيْن .. بل توأميْن . بيننا حاسة خاصة ، تجعل كلا منّا يشعر بما يعانيه صاحبه ، حتى لو كان في بلدة أخرى .

ـ كنت أتمني أن أري هالة اليوم .

ـ نويت أنْ تخطبها ؟

ـ إنْ شاء الله .. حتى نتزوج معاً . أريد أن أطمئن عليها اليوم .. لا أقدر على الانتظار .

ـ يا مجنون هالة .. كنت في الجريدة ، فلماذا لم تسأل عن رقم تليفونها ؟

قروى ساذج .. الفلاح دائماً فلاح ، حتي لو ذهب إلى ليبيا . ليتني ما ذهبت .. !! كيف تاهت عنّي فكرة أن أسأل عن تليفون هالة .. ؟! غداً صباحاً .. سأفعل بإذن الله .

سألت عن الملفّ الخاص بها في أرشيف شئون الموظفين ، فقيل إنها جاءت للتدريب عن طريق رئيس التحرير ، لأنه صديق والدها . رئيس التحرير دائماً لا يأتي إلاّ متأخراً . الجريدة كلها مشغولة بالإعداد للاحتفال بعيد السادس من أكتوبر بعد يوم واحد. المكوجي .. ابن الكلب ـ أضاع ريال الفضة .. أوْ سرقه .. الله أعلم . لا .. الله يخرب بيته . أول تذكار من هالة يضيع . ماذا أقول لها .. ؟!

* * *

وصل رئيس التحرير مبكراً على غير العادة . باقي يوم .. ويأتي السادس من أكتوبر .. ويومان ، ويأتي العيد الكبير عيد الأضحى . مناسبة تاريخية سوف أضيف إليهما عيد خطوبتي لهالة.

تشجعتُ .. وذهبت إلى رئيس التحرير، كان الرجل مشغولاً بالإعداد لملحق خاص عن حرب أكتوبر . الصحف كلها تتبارى في الحديث عن عيد النصر .. واختيار الصور المناسبة . الرئيس السادات وكبار رجال الدولة سوف يشهدون العرض العسكري الذي يقام بهذه المناسبة العظيمة . شيء ما .. أطفأ حرارة الفرحة ، فقد أصدر رئيس الجمهورية عدة قرارات - في ٥ سبتمبر ١٩٨١ - تمَّ بمقتضاها اعتقال كثير من رجال اليسار واليمين وبعض المفكرين والمثقفين وأعضاء الأحزاب السابقة - رغم مرور ثلاثين عاما على قيام حركة يوليو ١٩٥٢ .

آه .. تذكرت .. لقد نسيت زيارة أدهم بدير في المعتقل - كما وعدت سميح عبد المسيح . كيف حدث هذا مني نحو صديق عزيز.. ؟! بل لقد نسيت أيضا أن أزور أسرته . أحسستُ بقدر من الحسرة على ما فرطت في حق صديقي أدهم وأسرته .

ليس من عادتي أن أجلس كثيراً عند رئيس التحرير . يبدو أنه أحسّ شيئاً غير عادي . لكنه لم يتكلم .. لابد أن أتكلم أنا. الوقت يمرّ بطيئا .. كريها. كل ثانية تمرُّ .. تحرق من دمي قطرة . تشجعت بعد .. بعد طول تردد.

- الآنسة هالة ..

تعكر وجه الرجل فجأة ، كأنما ارتكبت إثماً عظيماً . وسأل على الفور : مالك ومالها ؟

احترت ماذا أقـــول . لا أدري .. لم كذبت : عـنـدها بعـض كُتب لى .

ردّ بهدوء : حسبتك تعلم شيئاً .

أعلم ماذا يا أستاذ مصطفي . قـل اللـه يرحم والديك .. لا اللـه يرحـم كل عائلة فودة .

سألت بلهفة : ماذا تقصد ؟

سكت .. ولم يجب . اقـتربت مـنه أكثر : لماذا لا تتكلم .. ؟ قل شيئاً .. أريد أن أطمئن .

- بينك وبينها شيء ؟

ماذا أقـول لك يا أستاذ مصطفي .. هل أنت أبوها .. أو وليّ أمرها ؟ بيني وبيـنها .. أوْ بيـنها وبيـني .. مـاذا يهـمك في هذا ؟ أنت صحفي .. أم مخبر بوليسي ؟ أسئلة بسـيطة جدا ، لكن الإجابة عنـها - أحيانـا - صعبة . لماذا .. لا أقول الحقـيـقـة ؟ إنه صديق والـدها.. ورئيسي في العمل . قد يستـطيع أن يقـوم بـدورٍ ما . الريـال ضاع .. لمـاذا ضاع .. ؟! أجبت با ختصار وأنا أبلع ريقي : نعم .

- مـا هــو ؟

سوف يجنني هذا الرجل .. هل أنا ناقص حيرة وحسرة ؟ لايزال ينظر إلى نظرة .. لا أفهم دلالتها .

ـ أنوي بإذن الله أن أخطبها .. ستكون أول المدعوين .

ردّ .. وهو يتحاشى النظر إلي : حاول أن تنسي ..

ـ أنسي .. أنسى ماذا ؟

ـ كل ما تفكر فيه نحو هالة .

ـ اتفقتُ معها قبل أنْ أسافر .

ـ أعرف هذا .. لكن حاول أن تنسي .

اظهرْ على حقيقتك يا رجل يا عجوز . كنت تعرف علاقتي بها .. واقترحت هذه السفرة ، حتى تمنعها من التدريب في الجريدة .. وتبعدها عنّي أنا . لكن ماذا يخصك يا رجل ياعجوز .. شاب يحبّ فتاة حباً طاهراً نقياً ، ويريد أن يتزوجها. ماذا يضيرك في هذا.. ؟ تريد أن تتزوجها أنت .. ؟! تتزوج فتاة في سنّ أبنائك . صحيح الذين استحوا ماتوا . عملتها يا أستاذ مصطفى .. لماذا ؟! حرام عليك .. والله حرام عليك . لماذا تريد أن تسرق حُبّى وفرحتي .. سامحك الله . أعرف نفسي .. أنا نحس . الكعكعة في يد اليتيم عجبة . لست يتيما فحسب ، بل أنا يتيم ولطيم .. أنا تمثال مجسدٌ للذل البشري . أنا ضحية هذا الزمان الرديء .. كل من أعرفهم أساءوا إليّ ، حتى أنت يا أستاذ مصطفي. أنا من أنا .. ؟! أرنب ضعيف في حظيرة ثيران ، وعود حطب جاف في فوهة بركان .. !!

ـ لو سمحت اتركني الآن .. وعدْ إليّ .. بعد أن أنتهي من مراجعة الجريدة .

ماذا يظن بي هذا المغرور حتي يطردني من مكتبه .. ؟! أتحداك ياأستاذ مصطفي .. لا أنت ولا كل رؤساء تحرير الصحف في مصر ، تستطيعون أن تفرّقوا بيني وبين هالة . المحبة هبة الله ، يمنحها من رضى عنهم .. ورضوا عنه . كل ما في الحياة يفنى ويزول .. إلاّ المحبة ، فإنها تدوم إلى أبد الآبدين .. !!

ـ ماذا تقصد يا أستاذ مصطفي ؟

ـ أقصد ما قلتُ .

نظرت إليه نظرة تجمع بين العجب والسخط . أحسست أنني غير قادر على القيام من مجلسي . غريب .. رأيت في عينى الرجل ـ لأول مرة ـ نظرة حزن عميق . لكنه صامد .. صامت . تكلم يا أبا الهول .. تكلم . لكن الرجل ظل على موقفه . قال وهو يودّعني عند الباب: انتظرني .. سوف أتكلم معك كثيراً ، إن كنت تريد ذلك.

ـ نعم .. نعم .

حين دخلت مكتبي .. لم أدر ماذا أفعل . توقف فكرى كله .. لم أعد أقدر على شيء .. أو أصلح لشىء . أيقظني ربيع من شطحاتي : أحضر لك سندويتشات يا أستاذ حسن ؟

ـ قهوة سادة .

احترقت أعصـابي .. قبل سجائري . أنتظر حكما بالحـياة أوْ الإعـدام . مـتى ينـتهـى الأسـتاذ مصـطفى ويـرسـل في طـلبي ..؟ الصـبر مـرّ .. يا جدتي .. !!

حين دخلت عليه أغلق باب الحجرة ، وأخذ ينظرُ إليّ نظرة عطف ومودّة : ـ قـل .. ماذا تريد من هالـة ؟

أجبت سـريعا دون تفكير : ما يريده أيّ شـاب من فتاة يعجب بها .

ـ لكن الظروف الآن غير مناسبة .

ـ اتفقت معها قبل سفري على كل شيء .

ـ هناك أشياء تغيّرت .

ـ في أسـبوع واحـد .

ـ نعـم

ـ أرحنى .. أراحك اللـه .

ـ هالـة هذه ـ شفاها الله ...

ـ ماذا تقول ؟

ـ ادعُ لها .

ـ الله يحميها من كل سوء .. تعرف شيئاً ، وتخفيه عني .. ؟!

ـ هـالـة ابنـة صديق عـزيز .. وأنـا الـذي وجهـتـها إلـى دراسـة

الصحافة ، وسمحت لها بالتدريب في الجريدة أملاً في أن تعيّن فيها بعد ذلك .

ابتلع ريقه .. ولم يكن يحاول أن يمعن النظر إليّ ، بينما كنت أبحْلق فيه بسمعي وبصرى .

- هالة تعرضتْ لحادثٍ مؤسف ، وأنت مسافر .

وقفت كمن لدغه ثعبان جبلى : إيه .. ماذا .. ؟!

- بعد سفرك بيومين خطفها سائق تاكسي ..

- كيف ؟

- بعد أن ركبت .. توقف التاكسي فجأة ، ودخل ثلاثة شبان .. أحاطوا بها .. ثم أخذها الذئاب الأربعة ..

- وماذا بعد ؟!

- يمكن أن تتخيّل بقية المأساة .. !!

- الكلاب .. أولاد الكلاب .. الذئاب المسْعورة .. اعتدوا على الملاك الطاهر . القاهرة صارتْ شيكاغو . الدنيا أصبحت غابة .. !!

- تماسك يابني .

- لا أقدر .. ولا أستطيع .

- قلت لك .. ادع الله أن يشفيها من هذه الأزمة .

- أريد أن أراها اليوم .

- مستحيل .

- لم ؟

- الطبيب منع زيارتها .. وهي أيضا لا ترغب في رؤية أحد .

- لابد أن أفعل شيئاً .

- الصبر .

انهارتْ عزيمتي .. وشُلت حركتي .. معقول .. يا ألله .. لم كل هذه الآلام ؟

- هل قبضوا على الذئاب ؟

- ليس بعد .. هناك جهات أمنية عليا مهتمة بالحادث .

قلت في داخلي : لا .. الأمن لم يعد مهتماً بحماية المواطنين . المهم هو حماية الكرسي الذي يستمدون منه وجودهم . خسارة وألف خسارة عليك يا هالة . ماذا جرى ..؟! لماذا تغتال البراءة والطهارة .. لم تدوسُ الأقدام القذرة الزهور الجميلة ..؟!

احتواني الرجل بين ذراعيه ، واحتضنني باكياً .. ظلّ يبكي ، وأنا أبكي معه . تمنيتُ أن يكون أبًا لي .. !!

عدتُ إلى البيت .. والدموع لا تتوقف . تلك هي البدلة التي ضاع منها ريال الفضة . ارتميت متهالكاً دون أن أخلع حتى الحذاء . تمنيت أن أموت . ما فائدة الحياة .. وقد اغتالوا هالة حبيبتى ؟! لا أدرى كيف .. ولا متى نمت ؟ دق جرس التليفون أكثر من مرة . لم أسمعه .. وحين كنت أسمعه لم أحاول أن أردّ .. لا أتذكر .. هل كان ذلك في الليل أم في النهار ؟

لا أدرى .. كيف استيقظتُ صباح الثلاثاء ٦ أكتوبر ١٩٨١ـ الذي كان يصادف وقفة عيد الأضحى . آثار الحزن لاتزال في قلبي .. والدموع لاتزال تسحّ من عيني . أنا إنسان منْحُوس . لا .. أنا من قتلت الأحزانُ فرحته . يا ميت ندامة يا هالة .. اللهم احمها من كل سوء . يا ربّ .. ارحمها من أجلي .. واشفها وعافها من بلاء الدنيا وشرّ الناس . أعوذ برب الناس .. من ظلم الناس .. وكيد الناس .. !!

طرق شديد على الباب .. جاء حمدي ، وقد شُغل عليّ بعد أن طلبني في الجريدة وفي البيت . أحسّ أنّ ثمة شيئا غير عادي . جاء .. وخيراً فعل . لم أكن قادراً على أن أقول له شيئاً . لكنه بادرني قائلاً :

ـ ألم تعرف ما حدث ؟

ـ لا .

ـ الـدنيا مقلوبـة .

ـ لـم ؟

ـ اغـتـالت مـجـموعـة من الضباط الشـبـان .. الرئـيـس أنـور السادات في أثنـاء العـرض العسكري ...

.. ..

٣ ـ خسوفُ القمر

كلانا في مأتم .. أنا والوطن .. !!

رغم كوني مدمن سياسة ، فإني لا أرغب في التعليق على الحدث الدامى الخاص بمقتل الرئيس السادات . السادات خلفه أمة .. تفكّر في مصرعه وتقيّم سياسته . أما هالة .. فمن لها غيرى .. ؟! حُزنى عليها أكبر من حُزن أهلها جميعا . الموتُ أهون من اغتصاب عذراء . كل ما في الكون باطل وقبض الريح . عبد الله عاشور كان على حق .. الدنيا خرافة ، لكنها ليست جميلة .. إنها خرافة مأساوية . مأساة هذا الزمان المجنون .. أن الشرفاء ـ وحدهم ـ هم الذين تبطش بهم أيدى الغدر وأقدام الدنس ... بينما الأشرار يمرحون .. ويعكرون كل مياه نقية ، ويخربون كل أرض صالحة .. !!

لو كفّتْ العيونُ عن النظر .. والأشجارُ عن الثمر .. لو امتنعت

الأنهار عن الجريان .. وتغيرت معالم المكان .. فلن أنسي ذكرياتي .. أو أغير إحساساتي . الحب قدر عنيد .. عندما لا نريده يأتي .. وعندما نريده لا يأتي . هالة يا أملاً ضاع .. وحُلماً تلاشى .. وقمراً خُسف .. وعمرا قصف .. ونهراً جَفّ .. وثوبا تمزّق .. و وشاحاً تشقق . لن أتخلّى عنك .. فأنت قدرى إلى أبد الآبدين . أنا بغيرك ضائع .. حائر .. تائه ، كالطير يرقصُ مذبوحاً .. من الألم .. آه .. آه .. آه .. يا صبر أيوب .. أين الصبر .. يا جدّتي العزيزة .. ؟!

أصبح مصطفى فودة هو الرابطة التي تربطني بالحياة .. حياتي الآن مرتبطة بالاطمئنان على هالة، التى لا أعرف لها عنوانا .. ولا أقدر أنْ أراها. حين أتأمل ما حدث لها .. أحسّ دواراً من نوع غريب. ليتني ما سافرت .. !! ويكأن القدر دبرّ هذه الرحلة من أجل تلك المأساة . أنا السبب .. من يحب ينبغي أن يضع حبيبه بيْن الضلوع .. أوْ في مآقي العيون . الزهور والثمار إذا لم يكن هناك سور يحميها .. تعتدى عليها الثعالبُ والذئاب. الحقُّ .. لايتحققُ إلاّ بالقوة ، والعدلُ .. لايكون إلا بالتعادل . عصرُ الانفتاح والانزياح .. والمدن الحرة .. والخصخصة الاقتصادية .. والصلح الزائف مع أعداء البشر ... و ... و .. صنع اللصوص ـ أصحاب شركات استثمار الأموال القذرة .. وجماعات الإرهاب والغدر، التي تسمي زوراً .. الجماعات الدينية . أنا على يقينٍ من أن أعداء الأمة ـ أيًا ما كان اسمهم ـ هم

الذين أنشأوا شركات توظيف الأموال . وبعد أن سحبوا مالدينا من عملة محلية وأجنبية ، ادّعوا الفقر والإفلاس .. وهربوا إلى الخارج . العجيب أن هذا .. تمّ تحت سمع الحكومة وبصرها. الفضلُ في ذلك يرجع إلى « كشوف البركة » .

أعداء الأمة أيضا هم الذين خططوا لقيام الجماعات الإرهابية - التي تسمى زوراً وكذبا الجماعات الدينية، حتي يكفّر، ويحارب ، ويقتل المسلمون بعضهم بعضا ، ويتصارعون حول قضايا الجنس ، واللباس، وإطلاق اللحي، وقص الشوارب ... وينسون جوهر الدين الحنيف - دين التوحيد والرحمة والمحبة .. !!

لماذا فجرتْ المأساة .. كل هذه المعاني المخيفة في أعماقي ؟! لديّ إحساسٌ غامض أن ما حدث لهالة سراً ، يحدثُ لمصر علنا.. !! الجريمة حين تنمو في ناحية ، تنتشر في بقيه النواحي . في عصور الزيف يربيّ المجتمعُ الجريمة ، كما يربي مفاسد أخرى كثيرة .. !!

* * *

طلب منى رئيس التحرير في التليفون أن أعود فورا إلى العمل. الحزن في القلب .. لكن الشغل شغل . معه حق .. أخذتُ أسبوعا في ليبيا، ومثله بعد أن عدت . أكثر من هذا يكون تدليلاً ، لا يجوز أن يكون في عمل يومي مثل الصحافة . خاصة بعد حادث المنصة . الدنيا مقلوبة .. الناس مختلفون حول مصرع السادات ودوره السياسي .. وحول تجريم المجموعة التي قتلته ، وحول طبيعة المرحلة

القـادمة ، ومن سيحكم مصر .. وكيف .. ؟! هذه فرصة ـ كما قال رئيس التحرير ـ لإظهار موهبة أي صحفي ، يريد أن يكون لـه اسم في تاريخ الصحافـة المعـاصرة .

تأخـرتُ ذات مرة في الجريدة من أجل تجهيز العدد الأسبوعي الذي يصدر يوم السبت . شجعني وجود الأستاذ مصطفى على البقاء. ليس بسبب وجود رئيس التحرير .. وصحفي مبتدئ مثلي لا يجوز له أن يخرج ، لكن لسبب آخر لاعـلاقـة لـه بالعـمل . ثمة صلة روحية خفيـة بـدأتْ تربطني بهذا الرجـل . إنـه يعـرف كـل شـيء .. لكن لايقـول شـيئا . صحـفي خبير.. وأنـا صحـفي صغير .. !!

رغبـة مجهولـة جعـلتني أذهب إليـه في مكتـبه . ترك ما في يـده، ورحّـب بي في مـودّة ظـاهـرة . فاجأني بقولـه : هل تدعو لهـالة .. ادعُ اللـه حتى يشـفيها .

جسد الرجل ممتلئ أقرب إلى السمنـة . شعره أبيض ، ووجهه حاد الملامح ، لكنه يعكس شخصية رصينـة .. عاقلة مجربة . قلت وأنا أقدّم لـه سـيجـارة : بـدأت أستحي مـنـك . كلما فتحت معك باباً للسؤ ال ، تغلقه بدبلوماسـية ماهرة ـ رغم أني كنتُ صريحاً معك .

كان يتحـاشي أن تـلتقي عيـنـاه بعيـنيّ . أخـذ يقول بصوت مجـروح : لا أصدق ماحدث .. فتاة تركب تاكسي. ثم يهجم عليها ثلاثـة عاطلون بالتواطؤ مع السائق ، ويخطفونها بعد أن يـخدّروها ،

ويغمضوا عينيها. ويعتدي عليها الذئاب الأربعة .. في خرابة مجهولة .

ـ لماذا خرجت المسكينة وحدها في الليل ؟

ـ المصيبة أن هذا حدث في النهار .. والشمس طالعة .

لا أدري .. كيف انخرطت في النشيج . اضطرب كل عضو في جسدي . كونت الدموعُ سحابة ، جعلتني لا أرى شيئا .. لا أحسّ شيئا .

السيجارة حرقت جزءاً من بنطلوني ، وكادت تحرق رجلى .. لولا أن أنقذني الرجل، واحتضنني ، وأخذ يربتُ ظهري وكتفى بحنان أبوي، لم أعرفه من قبل . قال كأنما يكلم نفسه : لم أكن أودّ أن أخبرك بشيء .. لكن من حقك أن تعرف .. !!

* * *

لا أدرى لماذا لم أستطع أن أكون كاتب قصة ـ رغم أن جدّتي ملأت ذاكرتي ـ وأنا صبيٌ صغير ـ بحكايات وأساطير .. لا أول لها ولا آخر . كل ليلة بحكاية جديدة . أحسست ـ أحيانا ـ أنها تُكرر بعض الحكايات .. غير أنها كانت تسردها بطرقٍ مختلفة وأساليب متنوعة .. لكن لحظة النهاية .. كانت تذكرني بأنني قد سمعت بعض الحكايات من قبل . جيل جدّتي نفيسة انقرض ، إنه جيل يمثل العطاء والوفاء والمحبة . حكايات جدتي تشكل مدرسة في الأخلاق والمثل

العليا ـ رغم أنها كانت أمية .. وقليلة الاختلاط بعالم الرجال . كما أن الراديو لم يكن قد انتشر بشكل جماهيري . أما التليفزيون فكان سراً في رحم الغيب . ذات ليلة كانت تروى لى .. حكاية الذئب والعنْزاتِ الثلاث .

عنزة كبيرة .. ولدت ثلاث عنزات صغيرات ، وخوفا على بناتها كانت تبحث عن غذائها في حقول بعيدة ، وتتركهنّ يأكلن من المراعى القريبة . كل مرة تسرح فيها بعيدا ، كانت تحذرهُن من الذئب وطمعه وغدره، وتأمرهن إذا رأينه أن يدخلن الكوخ ، ويغلقن الباب عليهن . العنزة الأولى حين رأت الذئب لم تهتم بنصيحة الأم، فجاء الذئب وأكلها .. وهي في المرعى . الثانية حين رأت الذئب دخلتْ وأغلقت الباب ، لكن الذئب أخبرها أن الأم أرسلته ، لكي يحضرها لتنعم معها .. بالمرعى الخصيب والماء الصافي . فما كادتْ تفتح له، حتي هجم عليها وافترسها .

لم يبق من ذرية العنزة الكبيرة إلاّ الصغرى ، فأخذت الأم تحذّرها، لأن العنزتين الكبريَيْن لم تسمعا نصيحة الأم ، لذلك حدث لهما ما حدث . وإذا استطاع الذئب أن يأكل العنزة الأخيرة بسبب عدم وعيها بنصائح الأم ، فإن جيل العنزة .. سوف ينقرض من هذه الدنيا .

لكن العنزة الأخيرة الصغيرة .. وعت النصيحة وتعلمت الدرس. فقد تعمدت أن تخرج إلى المرعى، وتُرى الذئبَ نفسها، وحين اقترب

تظاهرتْ بأنها لا تراه ، فظل يمشي وراءها ، ويتبع خطواتها في هدوء، حتى لا تشعر به . وعندما اقتربت من الكوخ .. جرتْ سريعة ، وأغلقت الباب خلفها. أخذ الذئب يطرق الباب بقوة ، والغيْظ يملأ صدره . بعد مدة ردتْ عليه دون أن تفتح الباب ، وسألته ماذا يريد منها. فقال مطمئنا إيّاها: إنه ما جاء إلا من أجل الأم الطيبة ، التي أمرته أن يحضر ابنتها، لتأكل معها من العشب الأخضر النضير ، وتشرب من الماء العذب النمير .

قالت له : أمي طلبتْ منك هذا ؟ قال : نعم . قالت : انتظر حتىٰ أعد نفسي للخروج معك . بقي الذئب أمام باب الكوخ يمنّي نفسهُ بأكلة شهية . لكن العنزة رغم أنها كانت أصغر أخواتها، حاولت أن تنتقم لهنّ ، فصعدتْ إلى السطح ، وحملت حجراً كبيرا ، ورمت به رأس الذئب الشرير ، فمات في الحال .

بينما جدتي تنهي الحكاية .. سمعت بعض أطفال القرية في الخارج ـ وكان الوقت بين صلاة المغرب والعشاء ـ يرددون أغنية شعبية ، وهم يطبلون على صفائح قديمة، ويصفقون بأكفهم الصغيرة.. منشدين:

يا قمرْ نا يا هادي	يا لابس البغدادى
يا قمر نا يا هادي	اطلعْ وطُلّ عَ الوادى

سألت جدّتي عن سبب خروج الأطفال وغنائهم ، فذكرت أن القمر

غائب الليلة ، لأن الشياطين الملعونة تريد أن تخنقه ، حتى تحجب نوره عن عباد الله الطيبين . لكن الملائكة المطهرين يتصدون لهم ، حتى يظهروا نور الله للناس أجمعين . ويبقى القمر مخنوقا، وتظل المعركة مستمرة إلى أن تنتصر الملائكة جنود الله على الشياطين أنصار إبليس، لعنه الله وأخزاه. قلْ : آمين يا بني ..!!

طلبتُ منها أن أخرج ، لكي أشارك زملائي في عملية الغناء والدعاء ، حتى يفك الله أزمة القمر . وافقتْ بشرط أن أغنى معهم هذا الدعاء :

يا بناتِ الحورْ سيبوا القمر يدورْ
يا بناتِ الحورْ ليلهْ بيضا وليلةْ نورْ

* * *

بعد عدة أيام استدعاني رئيس التحرير، وأخبرني أن هالة بدأت تسترد قدراً من الوعي والعافية . وعمّا قريب يمكن أن يسمح الطبيب بزيارتها. سألته في لهفة : هل زرتها .. رأيتها بنفسك ؟

ـ أتابع أخبارها من خلال صديقي المهندس محمد توفيق .. كان الله في عونه هو وأمها المسكينة .

ـ أريد عنوان المستشفى .

ـ لا آمن أن تضع نفسك في موقف حرج ، في لحظة لا يتحمل أهل هالة فيها أيّ شيء ، يثير مشاعرهم الحزينة وقلوبهم المجروحة .

- على الأقل أرسل باقة ورد .

- لم تفتنى هذه اللفتة .. وسوف أكررها اليوم من أجلك .

- أستاذ مصطفى .. أنت رجل عظيم .

الضوء مهما كان شاحباً ينبت الأمل في الصدر الجريح . دعوتُ لهالة من كل قلبى .. وقد استجاب الله . قريباً يتم الشفاء .. لن أتخلى عنها .

الحبّ الحقيقى يعنى أن الإنسان قد وجد النصف المكمل ، الذي يعطى بسخاء وكأنه يأخذ .. الذى يحرص على رضا الآخر أكثر من حرصه على إرضاء نفسه وإشباع حاجاته ، لذلك يصعب إذا أحببتَ امرأة حبا حقيقيا أن تجد الحبّ مع سواها . في إطار المشاعر الإنسانية الصادقة ، يصعب .. بل يستحيل أن تحل امرأة مكان أخرى . البشر ليسوا - في الحب - سواسية كأسنان المشط ، وإنما كل مليحة بمذاق .. !!

- لماذا .. لم تنشر الصحافة أى خبر عن حادث هالة ؟

- تلك رغبة والدها .. كيف يفضح ابنته على صفحات الجرائد ؟!

- أدرك حساسية الموقف .. لكن هل أمسكت الشرطة بأىّ خيط يقود إلى الجناة .. ؟!

- كلمت وزير الداخلية .. وهو مهتم بصفة شخصية بهذه القضية . الحادثة ليست حادثة عادية .

ـ أود أن أعمل شيئا .. من أجل هالة .

ـ سأكون أول من يطلب منك المساعدة ، إذا حدث ما يدعو إلى ذلك .

* * *

بدأت أمارس حياتي العادية ، وأخذت أستعيد قدراً من توازني النفسي . الحياة بلا أمل .. موت بطىء . الأمل لاينمو إلاّ في ظل الحرية ، وحين تتضاءل كمية الحرية في المجتمع ، يتضاءل حجم الإنسانية فينا. هالة يا حبيبتى .. كنت أنتظر طوال العمر، حتى وجدتك أيتها الفتاة الجميلة .. يا رمز كل جميل .. في بلادي الجميلة .

تجمعت الشلة في بيت سميح عبد المسيح للاحتفال بخروج أدهم بدير من المعتقل ، حيث يسكن في حارة من حارات دير الملاك بحدائق القبة . الشقة متواضعة المبْني . الأثاث شعبىّ مصنوع من الخيزران والجريد . على أرض الحجرة كليم بلدى ملون ، على الحائط صورة زيتية للسيدة مريم العذراء وهي تحمل السيد المسيح عليه السلام ، وخلفهما يوسف النجار، على الحائط لوحة مرسومة بالزيت لبعض الآثار الفرعونية ـ وصورة للوالد القس بُطرس عبد المسيح . تخلف عن الحضور أحمد حلمى وعبد الله عاشور ، ولم يحضر سوى أنا وحمدى وأدهم وسميح ، الذى اقترب من أدهم قائلا : حمداً لله على

السلامة يا زعيم .. أحضرتُ اليوم من أجلك .. زجاجتين من نبيذ الأديرة .

ردّ قائلا : شكرا .. يا صديقى العزيز .

سأل حمدى : هل حققوا معك في المعتقل ؟

ـ دخلت مثل كل الذين دخلوا من أصحاب اليمين ، وأنصار اليسار، ورجال الأحزاب القديمة .. دون أن يعرف الذين اعتقلونا أنفسهم السبب الذى من أجله تمّ اعتقالنا .

قلت ساخرا : منطق رجال السياسة في بلادنا اليوم منطق عجيب .. إنهم يدركون تماما أن الأحزاب قد ألغيت بقوانين صارمة ، والعمل السياسي لغير حزب الحكومة .. ممنوع ومُجَرَّم . ومع ذلك يدعون أن هناك جماعات إخوان مسلمين ، وفصائل شيوعية ، وأنصار لحزب الوفد . حتى لو كان ذلك حقيقة ، كيف يعملون بالسياسة في ظل قوانين الطوارئ .. ؟ !

قال أدهم : السادات خشى على نفسه بعد الصلح مع إسرائيل، لذلك ضرب كل خصومه السياسيين ، وتغدّى بهم ، حتى لايتعشوا به ـ كما توهّم .

أكمل سميح : لكن ذلك .. لم يحل دون اغتياله على مرأى من العالم كله .

قال حمدى : السادات .. ضحية الصلح مع إسرائيل .

ردّ أدهم : إنه ضحية الاستبداد والديكتاتورية . من يحاول قتل الحرية ، يكون أول شهيد في ميدانها .

قلتُ : إنه ضحية المفاسد التي بدأت تنمو وتنتشر في ظل سياسة الانفتاح .

قال سميح : اشربوا كأس حداد .. من أجل الوطن .

رانتْ لحظة صمت ، وهم يحتسون نبيذ الأديرة ، أتعبهم جميعا التفكير في شأن الوطن . يتمنّى كل واحد منهم ألا يفكر في أمور السياسة ، لكن ذلك مستحيل .. السياسة اليوم تتحكم في كل شئون الأمة والبشر ، فكيف يستطيع إنسان مثقف أن يبتعد عن عدوى الانشغال بها. ؟ كلهم يحبون الوطن ، ويرغبون في المحافظة على ترابه وتراثه . لكن هذا الحب خلّف لكل منهم حسرة ولوعة ، حتى البعيد منهم عن الاشتغال المباشر بها .

قطع أدهم الصمت ، وهو يشعل سيجارة كليوباترا من علبة كبريت :

ـ اتخذتُ قرارا .. أرجو أن توافقوني عليه .

ـ خيراً .. قال حمدى .

ـ قررتُ أن أستقيل من وزارة التعليم .. سأبحث عن عمل في بلدة من بلاد الخليج .

قلت بتحدٍّ : تُسلّم بسهولة .. وتترك كل ما كافحت من أجله؟!

ردّ بضعف وانكسار : تعبتُ يا أخي .. تعبت . أنا إنسان ضعيف ، اعتقلت في السنوات الأخيرة ثلاث مرات - دون سبب ودون تحقيق .. والأدهي - من ذلك كله - دون معاملة إنسانية .. لن تصدقوني ...

قال سميح : ماذا ؟

- في المعتقل .. كانوا يعاملون المجرمين من القتلة واللصوص وتجّار المخدرات ، معاملة أفضل من معاملة المعتقلين السياسيين .

مصر .. يا أول سطر في كتاب الحضارة ، وأعظم صفحة في تاريخ البشرية .. أنت أم الدنيا وأول من علم الإنسان القراءة والكتابة والفن والعلم وتوحيد المعبود .. لماذا تعذبين أبناءك المخلصين ، وتعكرين أمامهم صفو الحياة ، حتى ليصبح الكثير منهم منفيا داخل حدود الوطن ؟ الوطن .. سكن وأمن وراحة .. أمل ورغبة في الحياة وتواصل الأجيال . الوطن بالحرية والمحبة روضة من رياض الجنة ، كما أنه بالظلم والاستبداد غابة من غابات الأدغال ..!!

تلك كانت بعض الخواطر التي دارت في ذهني ، وأنا أفكّر في مأساة أدهم .. وهالة في آنٍ واحدٍ . أدهم مثلى شاب عصامى ، استطاع أن يكون إنساناً له مستقبل مشرق - رغم الفقر الذى يصل إلى حد الجوع والذل . من منطلق التحدّى أصرّ على أن يدرس اللغة الإنجليزية ، ويتقنها كأنه من أبناء لندن نفسها. لو ساعدته الظروف المادية قليلا ، لاستطاع أن يكون معيداً وعضو هيئة تدريس . عندما

كنّا طلابا في الجامعة صار هو المعلم الذى تعلمنا منه جميعا قواعد هذه اللغة . خسارة وألف خسارة .. أن يتخلي مناضل سياسي عنيد مثل أدهم عن مبادئه ، وأن يفكر في الخروج .. وربما عدم العودة . إذا فقد المرء الإحساس بالأمان ، فقد معنى وجوده الإنساني . الوطن بغير حرية منفى .. وإذا كان المنفى هو المصير المحتوم ، فيستوى أن يكون ذلك النفى داخل الوطن أو خارجه .. !!

في طريق العودة سألنى حمدى : هل هناك جديد في موضوع هالـة ؟

- يبدو أن الأطباء سوف يسمحون بزيارتها قريبا . الحمد لله .. ادعُ لها من أجلى ، فأنت رجل صاحب قلب أبيَض .

سألته بعد فترة صمت ، ونحن نقطع شوارع القاهرة بعد منتصف الليل في سيارته فيات 128 المتواضعة : ماذا فعلت مع نسرين ؟

- فتاة طيبة .. أكرمني الله بها. لولا ظروف هالة لأعلنت الخطبة في الأسبوع الماضى .

- إن شاء الله تكون الخطبتان في ليلة واحدة .

* * *

. اتصل بى أحمد حلمى صباح الجمعة - ٣٠ من أكتوبر ١٩٨١ - وأخبرني أنه اشترى - عن طريق نادى الضباط - سيارة جديدة بالتقسيط

ـ مــازدا 323 ـ وأنه ســـوف يذهب إلي القريـــة . طلب منى أن أصحبه .. وأكون ضيف الشـــرف في أول رحلة يقوم بها بالسيارة الحمراء الجديدة .

اعتـذرت له .. وبقيت وحدى في البيت . الجمعة يوم الراحة الوحيد في حياتى .. وحياة أيّ موظف بورجوازى صغير .. في بلادنا العزيـــزة . كانت بجـــوارى بعـض الصحـف والمجـلات .. وكتـــاب « الكوميديا الإلهية » للأديب الإيطالي دانتي أليجيري . ميولى نحو الشـقافة أقـوى من توجـهاتى نحو السياسة ، لذلك اخترتُ وفضلت الصحافـة على المحاماة . عـملت بعـد تخرجى فى كلية الحقوق في مكتب أحد أساتذتى في الكلية الدكتو محبّ محجوب ، رغم كفاءتى في العمـل .. قررت ـ بعد سنتين ـ أن أترك المحاماة التى تدافع من خلالها عن مظلوم واحد .. إلى الصحافة التي تدافع من خلالها عن المظلومين في الوطن كـله . أفضل من يـدافع عن فقراء المجتمع واحد منهم ، تعـذب .. وتألم .. وبات ليالى دون طعام .. دون حنان .. دون أمان ، حتى من أقرب النـاس إليـه .. !!

دون قصد وجدت أفكارى تحلّقُ بعيداً نحو ذكرياتى مع هالـة ، وأخـذتْ تعصف بى أمواج الحنين . عـلاقتى الزمنية معها لا تـتجاوز شـهرا .. لكنها تمثل أدفأ ذكريات عـمرى .. وأجمل لحظات حياتى . حبى لها أقوى من الحياة نفسها. أول مرة تقابلنا فيها.. كانت في الأيام الأولى لعملها في الجريدة . صعـدت الأسانسير، وأغلقت الباب

خلفى، حاولت أن أضع يدى على المفتاح . رأيتها من خلال الزجاج .. وهي تهم مبتسمة .. محاولةً فتح الباب المغلق . كان يمكن أن أصعد وحدى .. نداء مجهول جعلنى أرفع إصبعي وأفتح لها. لم يكن الباب هو الذى فتح .. وإنما صفحة جديدة سعيدة في مسيرة حياتي التعيسة. إنه الفتح المبين .. يضيء ذكريات السنين .. يوم تجد توأم النفس وطبيب الروح .

- آسفة .. صباح الخير .

- زائرة .. أم موظفة جديدة ؟

- لا .. زميلة يا أستاذ حسن .

- تعرفين اسمى ؟

- أنا واحدة من قرائك .. أحياناً - أعجب بما تكتب .

لم أحاول أن أتبيَّن ملامحها بدقة في اللحظات السريعة التى مرق فيها المصعد من الدور الأول إلى الدور الثالث ، لأن ما شغلنى في تلك اللحظة هو رائحة عطر جميل نفاذ ، ملأ خياشيمى ووصل إلى نخاع ظهرى . أسكرنى العطر .. أوْ كاد ، وزاد نبض دقات الفؤاد .

قلت بعد أن خرجنا من المصعد: أحيانا - التى قلتها من لحظة .. في حاجة إلى نقاش . تقبلين شرب فنجان شاي معي ؟

ـ أعدك .. إذا لم أتاخر عند رئيس التحرير ، على فكرة اسمى هالة .. هالة توفيق .

شغلنى أمر هالة النموذج عن هالة الإنسان . طالبة .. أو خريجة حديثة ـ لاتزال في مرحلة التمرين ، تعرف رئيس التحرير شخصيا ـ رغم ما يقال عن صرامته وقوة شخصيته . كما أن مقالاتى .. «أحيانا» تعجبها .. وبالطبع أحيانا لا غرور .. أم ثقة زائدة عن الحدّ ؟ وهي إلى هذا فتاة ضامرة القدّ، صاحبة رقبة غزال ، وشعر مهرة أصيلة ، وساقا نعامة ، ووجه بدر . قضيت في الجامعة أربع سنوات .. لم أر لها مثالاً . الدنيا تغيّرت .. في الماضي القريب كان عمر الجيل ثلث أو ربع قرن . اليوم كل خمس سنوات .. يظهر جيل جديد ، بينه وبين من قبله مسافات شاسعة في الفكر والسلوك . هالة نموذج جدير بالتأمل .. لابد أن أكتشف أسراره .

مرّ يوم .. وفي الثاني جاءت يسبقها عطر جميل . أول مرة اكتشف قيمة العطر بالنسبة لحواء .. لاشك أن له فائدة أخرى أجلُّ وأخطر.. فائدة واحدة يا حسن ؟!

انتطرتك طوال العمر حتى وجدتك .. أيتها الفتاة الجميلة . ما أنت بشرا .. أنت غزال شارد ، يبحث عن الأمان والحنان . يا بشراى .. هل يمكن أن تكون هذه الفاتنة من نصيبى ؟!

أخذتْ رشفة من كوب الشاي . وضعت ساقا على أخرى . نظرتْ إلى ساعتها ، فوجدتها تشير إلى العاشرة صباحاً .

- يمكن أن أبقى معك نصف ساعة .

صمتُّ حتى أشجعها على الكلام ، وأنا أتحاشى النظر إليها ، فوجهتُ عينيّ نحو فضاء الغرفة : نعم يا آنسة هالة .

- أنت الذى شجعتنى على الكلام .. أنا صريحة جداً .

- هذا ما أريده .

- أهم ملاحظة حول مقالاتك .. أنك تكتب في السياسة من مقعد المحافظة . بالمناسبة .. أنت عضو في الحزب الوطني ؟!

- لا .

- المقال السياسى يصبح حيويا وجذابا ، إذا كان يعبّر عن رؤية مختلفة تماما عما هو مألوف .. ومعروف .

- تقصدين .. رؤية معارضة ؟

- نعم .. حين تدافع عن وجهة نظر الحكومة ، تكون مثل الطفل الذى يرى أباه أعظم رجل في الدنيا ؛ ومن ثم يصبح المقال مثل الخضار المسلوق . إذا أردت أن تكون من كتّاب المقال السياسي بحق ، فحاول أن تسبح ضد التيار .. وإلاّ ..

- إلا ماذا ؟

- ابحثْ عن مجال آخر للكتابة .

كبرتْ هالــة في عينيّ . ليس هذا رأى فتاة صغيرة في أول الطريق ، بل رأي إنسانة مثقفة ذكية . سكت إعجابا بما قالت .

أضافت في حياء : ما معني سكوتك ؟

ـ السكوتُ علامة الرضا .

ـ هذا مع العذارى فقط .. يا أستاذ حسن .

ـ هـذه قاعـدة إنسانية عامـة .

ـ من أين تعلمت هذه الفلسفة .. يا آنسة هالـة ؟

ـ من الحياة .. على كل حالٍ ، لو كنت مقتنعاً بكلامى ، فأرجو أن أرى أثره في مقالك القادم .

لطمتنى الفتاة كفين على صفحتيْ وجهى بقفاز من حرير . فتاة لم تكد تتجاوز العشرين ربيعا .. تملك كل هذا الجمال .. ومثل تلك الرؤية الثـاقبة . خفق قلبى أول مرة .. لكنى لم أكـن أدرك هـل أنا صائـدٌ أو .. مصطاد ؟! ما الفرق ..؟! النتيجة واحدة .. وأنا سعيدٌ بها .. !!

٤ ـ منازل الأمـــوات

الخريف .. رمز الشيخوخة والعجز والحزن ، أليس عجيباً أن يكون أجمل فصول السنة مناخاً في مصر .. ؟ ! مصر ربيع الكون ، لكن الخريف أجمل فصولها جواً ، وألطف أيامها هواء . انتهى شهر أكتوبر ١٩٨١ ، وبدأت نسمات الخريف تحتوى مصر كلها ، وأشرقت شمسه الهادئة على كل بقعة من ربوعها ، وأخذت زهور الحدائق تبتسم ، والحقول تستعدُّ لموسم الزراعة ، والطيور تسبح في سماء صافية ، والناس يعودون إلى العمل بعد صيف حار طويل . قلبى يحدثنى أن هذا الفصل .. بداية عهد جديد في حياتى . بإذن الله تعالى ستشفى هالة .. وأخطبها. لا.. نحن في عصر السرعة، سأتزوجها .. وأعيش معها حياة سعيدة . أتمنى أن ننجب فتاة جميلة أسميها نفيسة .. ذكرى لجدتى العزيزة . نفيسة .. وهالة .. هما المرأتان اللتان أدينُ لهما بالفضل والحب : الأولى ربتنى

وحافظتْ عليّ ، والثانية أعطتنى السعادة والمحبة. أتمنى أن تكون نفيسة الحفيدة خلاصة معطرة للجدة والأم .

هدأتْ مشاعرى المحترقة بعد الأخبار الطيبة التي نقلها مصطفى فودة عن هالة . يا قلبى الحزين .. أخيراً ستعرف السعادة طريقها إليك . تفاءل .. وابدأ الحياة من أجل هالة الجميلة . حظنا من السعادة في الحياة ، يكون بنفس القدر الذي تمنحنا إيّاه من الحب . !!

دارتْ هذه الخواطر في مخيّلتى ، وأنا في الطريق إلى القرية منذ مدة طويلة لم آت إليها. ماتت المرأة الطيبة التي كانت حصنى وملاذى .. فلمن أحضر ؟ حتى أمى فوزية .. شُغلتْ عنّي .. وشغلتُ عنها ، بيننا صلة رحم .. لكن ليس بيننا علاقة حُبّ . من يصدّق أنْ يأتي على الناس زمانٌ، تنسى فيه الأم ولدها ، ويتنكر الابن لأمه ..!!

لم تواظب هالة على التمرين في الجريدة سوى شهرين فقط ، هذان الشهران : كل ما تبقى لى من ذكريات عزيزة في هذه الدنيا . نحن الرجال أطفال كبار .. لا لذة لأىّ نجاح نحققه أو مال نكسبه إلا إذا كانت هناك امرأة تحبها .. و تحبّك ، إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا طلبت وهبتك ، وإذا غبْتَ حفظتك . هالة يا محبوبتى الجميلة .. جمع الزمان فكان يوم لقاك . عندما نتزوج سأضعك في عيونى .. بل بين ضلوعى . لن أذهب إلى أىّ مكان في العالم .. إلاّ وأنت معى.

ستكونين البوصلة التى نحوها أتوجّه ، والقبلة التى بهداها أقتدى. الدنيا قبلك صحراء قاحلة .. فلما أشرقت ، تفجرت المياه .. وابتسمت مسيرة الحياة .. !!

دخلت عليّ هالة صباح يوم خميس ـ لاينسى . جاءت ـ كالعادة ـ رشيقة أنيقة ، هناك تناسق محبب بين جونلة خضراء .. وبلوزة صفراء فاتحة اللون . بدرتْ التفاتة سريعة .. فوجدت أن الحقيبة والحذاء أيضا ينتميان إلى حقل الخضرة . فلاح طيبّ .. لم يعرف إلا خضرة الزرع، يرى حذاء أخضر لأول مرة في حياته . تعالى ياجدتى .. لترى سعادتى . صدر ضامر كأنما النهدان بيضتا يمامة أو حبتان من اللؤلؤ. كل عضو من أعضاء قدّها ضامر ، حتى أذنيها اللتين تشبهان أذنى القطة ، ماعدا الشفتين فإنهما مكتنزتان مثل ثمر الفراولة ، أو ربما كانتا ممتلئتيْن برحيق مختوم ، لا يمسهُ إلا المقربون . هذه الفتاة ساحرة .. حين أراها لا أعرف أين أنا .. ولا من أنا ؟ !! ترى .. هل هذا هو الحبّ الذي كنتُ أقرأ عنه في الحكايات والروايات .. ولا أصدقه ؟ لا .. هذا هو الحبّ الصادق . حين تكون روحاً طاهرة .. لا بد أن تحلق في عالم الملائكة .. !!

دخل ربيع بفنجانيْن من القهوة السادة . وضعهما على المكتب بالقرب من الناحية التي تجلس فيها هالة ، وهو ينظر إليها منبهراً : خدمة أخرى .. يا أستاذ حسن ؟

أدركت أن الرجل يتعمد الحضور كثيراً في أثناء وجود هالة.
هل ذلك تعبير عن فضول ومحاولة أن يعرف ما بيننا .. أم هو جاسوس لرئيس التحرير .. أم أنه معجبٌ بالفتاة نفسها ؟!

- شكرا ياعم ربيع .

لكنه التفت ناحية هالة : أيتها خدمة يا ست هالة هانم .. والله أنا أحبك مثل بناتى .. أي والله .

حتى أنت يا ربيع .. يا رجل يا طيب .. تحب هالة .. ؟!

استوقفته بحركة سريعة من يدها : انتظر ياعم ربيع .

أخرجت ورقة مالية .. أخفتها في يدها ، ثم وضعتها في يده ، وأردفت : تشترى حلوى لبناتك اليوم .

- لا .. لا ياست هانم .

ردتْ مبتسمة : انتهى عصر الهوانم .. ياعم ربيع .

خرج يدعو الله أن يرزقها بابن الحلال ، وأن يوفقها ويسترها .. وينصرها على من يعاديها . كشف هذا الموقف الطارئ عن بُعد جديد .. لم أكن أعرفه في محبوبتى . الكرم بالمال .. جزء من كرم النفس والرغبة في حبّ الناس .

- أريد مناقشتك في المقالة الأخيرة .

- تحييد العنف في الخطاب السياسي المعاصر .

ـ أعجبني العنوان .

ـ المضمون هو الأكثر أهمية .. يا عزيزتى .

ـ الدعوة إلى نبذ العنف في أيّ خطاب سياسي ، وتأكيد آليات الحوار الفكري ، الذي يتلاءم مع منطق الإنسانية والحضارة على أساس أن .. اختلاف الرأي لا يفسد للودّ قضية .. فكرة أعجبتنى كثيرا .

ـ أول مرة توافقين على رأيى دون أن تقولى .. أحيانا .

ـ وهل انتهيت من كلامى ؟

– كلى آذان مصغية .

ـ لكن .. ألا ترى أنها فكرة مثالية إلى حدٍ ما ؟

ـ ومن قال إن الواقع يحيا بغير مثل ومبادئ .. ؟!

ـ أفهم من هذا أنك ترفض منطق الأصوليّين أوْ .. العرب الأفغان .

ـ أرجو أن تعرفي حقيقة مهمة .

ـ ماهي .. ؟

ـ الأصولية اتجاه فكري عام موجود في عالمنا المعاصر كله تقريبا .. وهذا الاتجاه موجود .. عند المسلمين والمسيحيين واليهود ، وحتى عند بعض أصحاب الديانات الأخرى .

ـ لكني لم أفهم بوضوح موقفك من الجماعات الأصولية في مجتمعنا.

ـ مادمتُ أدعو إلى الحوار والتفاهم .. فأنا بالضرورة ضد العنف والاغتيال . مستحيل أن أوافق على منطق بعض الجماعات المتطرفة ، التي أباحتْ لنفسها أن تنوب عن الحاكم والحكومة وسائر المجتمع في إصلاح ماقد تراه ـ من وجهة نظر ضيّقة ـ خارجاً على قواعد الشريعة .. كما تفهمها، وليست كما هي في مصادرها النقية .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ حتى لو كان هناك خطأ ما في المجتمع ، فإن الحكومة والحاكم هما المفوضان وحدهما في تصحيح الأوضاع الخاطئة ومحاسبة الفئات المنحرفة .

ـ في هذه معك حق .. بقيت نقطة .

ـ ما هي ؟

ـ المقدمة طويلة إلى حدٍ ما .. المقدمات الطويلة قد تصلح لبعض الأبحاث الأكاديمية التقليدية ، لكن المقالة الصحفية ينبغي .. ينبغى أن تكون مركزة ومباشرة .

نظرت إلى ساعتها، وقامتْ واقفة : لقد تأخرت .. عن إذنك.

قلت وأنا أصافحها : تقبلين دعوتى للغداء ؟

- ليس اليوم .. لابد أن أستأذن ماما .

خرجت وأخذت روحى معها . أحس أنها تسكن مثل الدم في أعماقي .. وتعيش مثل الطيف في أحداقي .! هالة يا حبيبتي .. أنت عنيفة مثل الموج .. لطيفة مثل الورد .. !!

* * *

حين نزلتُ من التاكسي شعرتُ بغُربة موحشة . قريتى العزيزة .. من الذي تغير أنت أم أنا ؟ في هذه الترعة الصغيرة تعلمت العوم .. وفي تلك المدرسة المتواضعة .. عرفت الأبجدية ، وتعلمت مبادئ القراءة والكتابة . عند هذا الكوبرى جلسنا في النهار وفي الليل نثرثر ونحلم .. نبكى ونفرح . شيء ما في هذه القرية يذكّرنى بجدتى نفيسة .. ما هو ؟!

هذه القرية مثل كل قرى مصر .. مصنع للرجال وورشة لتربية الأبطال ، لكن المأساة هي أن كل من ينجح من أبنائها يرحل بعيداً .. وينسى عالم الريف ، تبهره أضواء مدينة في الشمال أو الجنوب .. في الداخل أوْ الخارج .. العزاء الوحيد أنهم يعودون آخر العمر في صناديق مغلقة ، لتبدأ دورة جديدة .. وتستمر الكوميديا الإنسانية في تقديم فصولها الحزينة .. إلى ماشاء الله .. !!

الوقت ضحىً .. أريد أن أنهى المهمة التي حضرت من أجلها سريعا ، حتى لا أضطر إلى المبيت عند أبي أو أمي .. والأكثر استحالة أن أذهب إلى بيت جدتى نفيسة ، تلك هي دارى الحقيقية في هذه البلدة الظالم أهلها . لكن لا أقدر أن أدخلها .. وقد أفلت الشمس المضيئة ، التي كانت تملؤها حبا وخيرا وبركة .. رحمة الله عليك يا جدتي .

جاءتنى برقية بالأمس :

احضر للأهمية ، أبوك في خطر ، ويريد رؤيتك في أسرع فرصة .

أخوك .. خليل إبراهيم

حين تسلمت البرقية لم أكن حزينا على مرض أبي - إن كان مريضا . أسعدنى شيءٌ .. هو أن أخى وقّع في آخر البرقية باسم : خليل إبراهيم . الكل يعرف أن اسمى حسن الشاعر ، وذلك ينفى أية صلة بينى وبينه .. بل بينى وبين ذلك الرجل الذى يعرفه معظم أهل القرية باسم إبراهيم أبو مصطفي .

حين طرقتُ الباب ، فتحتْ لى زوج أبى .. لا أتذكر اسمها ولا أريد : السلام عليك يا أم خليل .

قالت بودّ متكلف : أهلا يا حسن يا ابنى .. حمداً لله على سلامتك .. ادخل يا حبيبى .. هذا بيتك .

أول مرة ترحب بى هذه المرأة .. في الأمر سر .. هل أنا صحيح ابنك .. يا بنت الكلب . ؟!

أردفتْ .. وهي تلف طرحة سوداء حول رأسها : أبوك دائما يسأل عنك، كأنه لم ينجب غيرك .

ـ خيراً .

ـ أبوك تعبان يا حبيبي .. ويريد أن يراك .

أنا حبيبك يا خبيثة .. يا شواهى يا أم الدواهى .

صاحتْ : خليل .. خيرية .. فكرى .. تعالوا .. سلموا على أخيكم الأستاذ حسن . ثم التفتت نحوى : صحتك لا تعجبنى .. بك شيء ؟!.

قلت وأنا أنتزع الكلمة التى لم أجد أصغر منها في مفردات اللغة : لا .. !!

أخذتنى إلى حجرة مظلمة ، كان الوالد ـ كما تراءى لى ـ بين النوم واليقظة . يبدو أنه في الأيام الأخيرة .. وربما اللحظات الأخيرة .. من يدرى . أمثال أبي ينبغى أن يعذبهم الله في الدنيا قبل أن يقبض روحهم ، حتى يعلم الناس أن ربهم بالمرصاد .

رائحة الموت .. والعفن .. أطلت من تحت اللحاف المغطى به. مدّ يده في ضعف ، فسلمتُ عليه ـ دون أن أقبّل يده ، ثم جذبت

كفى سريعا . لم يقل شيئا . لكنّي قلت له : خيراً .. سلامتك .

- نسيت أباك .. ياحسن .. ؟ !

- العمل في الصحافة ليل نهار .

سلمت على إخوتى : خليل .. وفكرى .. وخيرية ، التي حاولتْ أن تقبل يدي . دون أنْ أنوي أوْ .. أدري وجدتني أقبّل خدّيْها . خليل الآن شاب تجاوز العشرين . لم ينجح في المدراس، لكنه يزرع الفدادين العشرة التي كونها أبوه بالحق أوْ بالباطل . خيرية أصبحت عروسة في السادسة عشرة .. وهي طالبة في الثانوية العامة. فكرى تلميذ في السنة الأولى بمدرسة الصنايع الثانوية - في الرابعة عشرة من عمره . كانوا يحيطون بي .. ويبدون قدراً من المودة والبشاشة . أخذوا يثرثرون حول بعض ما أكتبه في الجريدة من مقالات . خيرية كانت هي الوحيدة التى قرأت بعض المقالات بوعى وفهم . ابتسمت في خاطرى لفكرة غريبة ، فقد تذكرت بعض أحداث رواية « الإخوة الأعداء » ، لكن نسيت في تلك اللحظة اسم مؤلفها .

لم ألحظ أن فكري غاب برهة .. ثم عاد بعد لحظات ، وهو يسحب يد العريف . الشيخ باز .. ضعُف وشاخ ، وبدتْ عليه بوضوح آثار العجز ، وصار شبه ضرير . من يصدق أن الرجل الذى كنا نرتعش بين يديه ، ويرعبنا صوته ، وتخيفنا عصاه ، أضحى مثل عود

الذرة الجاف . تلك حكمتك يا ألله .. لا راد لقضائك، ولامعقب لحكمك .. {و من نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون} .

قال وهو يمدّ يده دون أن يحدد لها اتجاهاً : أهلاً يا حسن يا ابني ، نسيت فضلى عليك يا شيخ حسن .. ؟! أيوه أنت الآن الأستاذ حسن ، لكن كل ما حققته من نجاح .. بفضل ما علمتك إياه من آيات الذكر الحكيم .

صافحته .. من بعيد ، حتى أحول بينه وبين محاولة معانقتى : أهلا يا عم الشيخ .

- شغلتك مصر عن القرية يا حسن .. عندك حق .. مصر محروسة بأهل بيت النبيّ الكريم رضي الله عنهم . والله نفسى أزور السيدة زينب أم هاشم .. لكن اليد قصيرة .

- حدد الموعد .. وأنا آتى لكى آخذك من هنا ، وأعيدك مرة ثانية . فقط أشرْ .

قال الوالد بضعف : أيوه يا شيخ باز .. من علمنى حرفاً صرتُ له عبدا .

أيّ حرف .. وأيّ عبد تعنى يا أبي ؟ الدنيا تغيرت .. صرت أعمى مثل العريف أو أشدّ .

- أين أمك يا خليل ..؟ تساءل الشيخ .

ذهبتْ خيرية سريعا وأحضرتها ، وهي تقف خلفها في حياء .

ـ نعم يا سيدنا الشيخ .

ـ ماذا سوف تعدون من غداء للأستاذ حسن ؟

قلت على الفورْ : لا .. لن أنتظر . سأ طمئن على أبى ، ثم أسافر.. عندي شغل كثير .

ردت أم خليل : ما هذه العيبة .. تخرج من دار أبيك قبل أن تتغدي .. هل هذا يصحّ ياسيدنا ؟

ـ صاحبة واجب يا أم خليل .. .. أصيلة وكريمة .. أي والله .

خرجتْ زوج أبى ومعها خيرية .. ثم خرج فكرى ، وبقيت وحدى مع الشيخ والأب والأخ . إحساس داخلي أيقظ الوسواس الخناس . لابد أن في الأمر شيئا . لا داعى للعجلة .. أمور كثيرة يحلها الصبر. هذه وصية جدتي . بعد فترة صمت قال الشيخ : أنت مستريح في الصحافة بعد أن تركت المحاماة ؟

ـ الحمد لله .. الشغل متعب ، لكنّي أحبه .

أخذ يحرك عصاه بيديه قلقا : هل الراتب يكفى .. ؟

سكت .. ولم أقل شيئا . لكنه استمرّ قائلا وهو يحرك جفون عينيه بحركة لا إرادية : حاول أن تدخر، حتى نبحث لك عن عروسة من بنات القرية . ابعدْ عن بنات البندر .. يا ابني .

قال خليل : بنات البندر مثل بنات السينما ، لا تعرف لهنّ أصلاً من فَصل .

لا أدرى لم كذبتُ : لا أفكر في هذا الآن .

قال أبى بصوت شاحب : حسن طول عمره عاقل .. ابنى وأنا مربيه تربية طيبة . ربنا يوفقه .. ويكمله بعقله .

أنت الذي ربيتنى يا رجل .؟! حرام عليك .. بينك وبين القبر خطوات ، ولازلت مصراً على الكذب . سامحك الله .. أحسُّ ـ أحيانا ـ أن الله أكرمنى بسبب تقصيرك في حقي .

قال العريف : أبوك يريد منك طلبا يا أستاذ حسن .

ـ خيرا .

ـ الحمد لله .. ربنا فتح عليك ، معك صنعتان : المحاماة والصحافة .. ما شاء الله . هذا كله بفضل بركة القرآن الكريم ، الذي حفظتك إياه وأنت صغير يا ابني .

حفظ القرآن الكريم يكون بفضل الله سبحانه .. وليس بفضلك ياشيخ باز .. لأنك مثل الحمار يحمل أسفارا .. !!!

أكمل أبى بصوت ضعيف : فكر بعقل يا ابني .. فيما يقوله الشيخ باز.. من أجل إخوتك الصغار .

الحجرة شبه مظلمة ، وأنا أحاول أن أتبيّن فضاء الأشياء من حولي . رأيت هذه الحجرة أكثر من مرة قبل اليوم ، لكن معالمها

ضاعت من مخيلتى ، مثلما ضاعت أمور كثيرة من ذاكرتى .. بشأن هذا المنزل الكريه إلى نفسي . أحسُّ ـ في الظلام ـ با ختناقٍ شديد . أخذتُ أقلب بصرى بين الرجال الثلاثة ، وأنا أتخيل شبح العفن ، يفرش ظله على المكان ، وقد ارتدى الزيّ الأزهرى الذى كان يلبسه أبي .. ومعلق الآن على مسمار في جدار الغرفة . أحس بضيق .. هل أمشى .. ؟ لا .. لابد من الصبر، حتى أعرف الحكاية التي جئتُ من أجلها. حكاية .. لا ليست هذه حكاية ، إنها تراجيديا سوداء .. أكثر إحكاماً من حبكة أية مسرحية لراسين أو كُورنيى أو موليير .

قال الشيخ باز بصوت مثل فحيح أفعي : أبوك يا أستاذ حسن ـ شفاه الله .. بحكمته المعروفة أراد منك .. هذا إذا وافقت . أنا واثق من أنك ستوافق ، لأنك لن تردّ لى أوْ له طلباً .

قلت بضيق وأنا أفك الزرار العلوي للقميص : قلْ وخلصنا يا شيخ باز .. أنا مستعجل .

ـ أبوك .. لايريد أن يحدث نقار أوْشجار بينك وبين إخوتك ـ إذا لا قدر الله ...

قاطعه خليل : أطال الله عمر أبى .

ـ لا أفهم .

ـ قلت الآن بعظمة لسانك .. أن الراتب الذى تأخذه من

الصحافــة ، يكفى وزيادة ، لذلك يريد أبوك .. أن تتنازل عن حقك في الميراث لإخوتك الصغار .

سكتُ قليلا.. وتضايقتُ كثيرا ، لكنى التزمتُ الصمت . هذا إذن .. هو الأمر الخطير الذى أرسلتْ البرقية من أجله . الآن .. ظهرت أبعاد المسرحية .. مسرحية إيه يا أستاذ .. قل ظهر إطار الخيانة . هذا الرجل يريد أن يظلمنى حيا وميتا . ماذا أقول لرجل ظالم .. وهو يحتضر ..؟! كل مرة يتذكرنى فيها هذا الطاغية ، يريد أن يقدم إساءة جديدة .. وتلك خاتمة المطاف . الظلم ليس جديدا عليك يا أبى .. !! لكن العجيب .. هو أن الرجل الذى يحفظ كتاب الله ، وعلمه لكثير من أبناء القرية ، يقف بجواره ويسانده . خسارة .. وألف خسارة .. الشيخ باز .. باظ .

قال أبى : لم تقل شيئا يا ابنى .

ـ ماذا تريد منى ؟

ـ توافق على ما قاله العريف .

سكت لحظة . كل مرة كنت تقول .. وتأمر . اليوم يجب أن تسمع أنت . ولن أكون ظالماً مثلك . ازداد إحساسي بالظلام . أخيراً تشجعتُ :

ـ مازلت على قيد الحياة .. الأرض أرضك ، والدار دارك .. فأنت حتى الآن .. مالك كل شيء . وأنا لم آخذ حتى أعطى .

قال العريف : لكن يا ابنى ...

قاطعته قائلا : اسمعونى مرة واحدة .. من حق أبي أن يكتب كل ما يملك لأولاد زوجته الثلاثة . وليس عندي اعتراض على ذلك .. الآن أوْ في المستقبل .

قال العريف : لكن هذا ليس عدلاً .

لا أدرى كيف انفجرتُ غاضبا : عن أي عدل تتكلم أنت وهو ..؟ جملة واحدة : أنا لم آخذ شيئا حتى أتنازل عنه ، من حقه أن يكتب لأبنائه كل الميراث .. أو يترك الأمور على ما هي عليه ، وبعد ذلك أتصرف أنا.. بما يمليه عليّ ضميرى .

ظل خليل صامتا .. كأنه غير موجود ، لكن آثار الضيق والقلق بدتْ على وجهه في الظلام الشاحب .

قال الشيخ : أبوك لا يريد أن يحدث بين أبنائه مشاكل بعد وفاته .

- من الذي يصنع المشاكل الآن .. ؟ لوكنتُ أعلم أن هناك مؤامرة ما جئت .

تركت حجرة العفن ومضيت .. وخليل ورائى يحاول أن يوقفنى قائلا : تعال إلى حجرة أخرى .. هذا بيتك ياحسن .. وأنا أخوك .

أحسستُ في كلامه نبرة صدق .. لم أتوقعها ، لكني لم أقدر

على خنق مشاعر الغضب : أنت أخي صحيح .. لكن هذا البيت لم يكن بيتى في يوم من الأيام .

جاءتْ أم خليل وخلفها خيرية : لا .. يا أستاذ حسن ، لقد ذبحت أوزة من أجلك .. أختك خيرية هي التى أعدت الطبيخ .. ألا تريد أن تأكل من يديها ؟ خيرية الآن صارتْ عروسة ، وأنت رجلنا ...

أطرقت .. ولم تكمل .

قلت وأنا أحاول الفرار : لا أستطيع أن أتأخر أكثر من هذا ، عندي شغل كثير ..

خرجتُ سريعا من الدار .. وخليل ورائى ، لكنه لم يقدر .. أنْ يقنعنى بالعودة معه . لم أصدق أننى استطعت أن أخرج ، فكيف أعود إلى دار ليس لى فيها أحد؟ لم أفكر في يوم من الأيام أن آخذ شيئا من ميراث أبى .. لكن طريقته المستفزة فجرت في أعماقي كل مشاعر الغضب . تلك المرأة الداهية .. كيف تغيرتْ بين يوم وليلة ؟ أكيد هى المؤلف والمخرج لهذه المأساة العائلية . في داخلى سؤال لم أعرف له جوابا في تلك اللحظة العاصفة : كيف يجمع جنس النساء أمثال جدتي نفيسة .. وحبيبتى هالة .. وزوج أبي .. ؟!

في أثناء العودة إلي القاهرة لمت نفسى لوماً شديدا ، لأني لم أذهب لزيارة أمي . من يدرى .. متى سأعود مرة ثانية ؟ زاد من مشاعر الإحساس بالذنب في داخلي .. أنني كنتُ قد وطنت نفسي على هذه الزيارة. لكن ما حدث أطار بُرجًا من عقلي .. بل إنه ذهب

بكل عقلى. لم أكن أفكر إلا في طريقة للهروب .. في أسرع وقت، وبأية وسيلة ، لذلك ركبت عربة نقل إلى المنصورة . من هناك ركبت الأتوبيس إلى القاهرة .. وكان الوقت عصرا.

أمي معذورة .. لانشغالها عنى ، لأن تجربتها الفاشلة مع أبى، جعلتها حريصة على أن تنجح في المرة الثانية . ومع أن زوجها الحاج على النجار يعمل مزارعاً ، فهو رجل طيّب . لا أذكر أنى ذهبت إلى داره مرة دون أن يرحب بى .. ويعاملنى مثل واحد من أبنائه . أمى تحبنى .. لكن مسئوليتها أكبر من طاقتها ، خاصة وأنها تعيش بكلية واحدة بعد أن أتلفت البلهارسيا الأخرى . سامحينى يا أمى . لم أكن أقصد، الأيام ظلمتنى .. وظلمتك . كنت أتمنى أن أبكى على صدرك .. وأن أشعر بحنانك . ليس كل مايتمناه الإنسان يدركه . أحلام .. أوهام .. عقل .. جنون .. سأم .. عبث. الحياة خرافة غير جميلة .. يا صديقى عبد الله .. !!

* * *

بعد عشاء اليوم التالى أحسستُ بضيق شديد، لم أكن قادرا على البقاء في البيت بعد أن نمتُ طوال اليوم .. ولم أذهب إلى الجريدة . أمامى ليل طويل .. لا أرغب في القراءة ولا الذهاب إلى نادى الصيد. ماذا أفعل هناك ..؟! تذكرت .. منذ مدة طويلة لم أزر

عبد اللـه عاشور . عـظيم .. جاءت الفرصـة ، لكي أطـمـئن عـليه .. وأقضـي وقتا سعيدا، لأنـه إنسـان متـفائـل .. ضحوك ، لا يـقـدر على الحزن ، ولا يحبّ النـكـد مثلي ـ كما يـقـول هـو .

لبست ملابسى .. بنـطلون رمادى صيفي ، وقـميـص أبيـض بـنـصف كـم .. وبدأتُ أبحـث عـن جورب يناسب الحذاء الأسود. من يحب هالة يجب أن يكون أنيقاً مثـلها. شفاك الله يا حبيبتى .. متى نتزوج .. وتنظمين حياتى المضطربة ؟ ! عـبـد اللـه يسكن في حيّ الكيت كات في شقة متواضعة قريبة من النيـل . ركبت التاكسى .. خشيت ألا أجده . على كل .. لن أخسر شيـئا. إذا لـم أجده أذهب إلى حمدى الحسينى ، لكن الدكتور حمدى الآن في عيادتـه الخاصة .

نزلتُ بعيدا عن البيت ، حتى آخذ فترة في المشى ، لكي أضمن وجود عبد الله. أخذتُ أتأمل السائرين ليلاً . لا أحد يعرف أحدا .. ولايهمه إلا أن يسير في طريقه . الناس في المدينة تحولوا إلى كائنات من الحجر والأسمنـت . تمنيتُ أن أتـكلم مع أيّ إنسان .. المهم أن أمارس الحيـاة .. أن يسمعنى أحد .. أيّ أحد. اصطـدمتُ بشخص يلبس ملابس قديمة .. متوسخة . حاولتُ أن أعتذر له ، لكنـه حرك شفتيه وسط لحية كثيفة. قـال وهو يمدّ يده في حياء : أعطنى قرشا حتى تعرف الطريق .

وضعتُ يـدي في جـيبى .. أعـطيتـه ورقــة بنصف جنـيه . أخذ يـتأملـهـا ، ثـم أردف : أنـا عـاوز قـرش فـضة .. الفـلـوس الـورق فالصـو .. الفضـة هي الفلوس بحق وحقيق .

مضى في طريقه متوكئاً على عصاه ، وهو يـردد : يا خفيّ الألطاف .. نجنا مما نخاف .

ذكرنـى هذا الشحاذ المسكين بهـالة حين تحدث عن الفـلوس الفضية. ضاع الريال الفضة الذي أعطتنى إياه . التذكار الوحيد ضاع .. أنا الذى ضيّعتـه . شعرتُ بانقباض .. نسرٌ جارحٌ ينهــش قلبى ، ويعصر كبدى . وجدتنى دون وعى أكرر قوله : ياخفى الألــطـاف .. نجنا مما نخـاف .. !!

استقبلنى عبد الله بفرحة طفل . آثار فوضى العزوبية تطلّ من كل مكان في الشقة ، لأنها فقط مكان للنوم . يكتب معظم القصص والسناريـو في مقهى بشارع عماد الدين .. ويتناول طعام الغداء في أى مطعم . عبد الله فنان فوضوى .. يحب الحياة والضحك .. لكن لايطيق النظام والعادات الرتيبة . الشيء الوحيد الذى يحرص عليه هو حسن المظهر الخارجى ، حتى لو كانت ملابسه الداخلية غير نظيفة .. جزء مهم من حسن المظهر ـ في رأيـه ـ العطور الجميلة باعتبارها من أهم مبادىء شياكة الرجل العصرى .

صحبـنـي إلى حجرة صـالون بهـا أنـتريـه .. «من كل فيـلم أغـنـية» .. لايوجـد كرسى يشبه الآخر . يفتخر بهذا قائـلاً : الفن

المعاصر اليوم ضد القواعد والتناسق الشكلى . التجريب سوف يقودنا حتما إلى نماذج ضد التوقع .. نماذج مدهشة .

قال بعد أن أحضر زجاجتين سفن أپ : حسن ابن عمى عندنا .. يا مرحبا .. يا مرحبا .

- لم تسأل عنىّ منذ مدة .. قلت أسأل أنا .

ردّ بعد أن ابتلع الزجاجة مرة واحدة : أصيل والله يا حسن .. ربنا أرسلك الليلة ، لأنى في حاجة إليك .

جئت كى أشكو إليك .. لا أن أسمعك . على كل .. من يسمع مصائب الآخرين ، تهن عليه مصيبته . عبد الله رجل في حوالي الثلاثين من عمره ، جسمه أقرب إلى الامتلاء النسبى ، لذلك يعطيه قدراً من الهيبة والوقار ، وجهه أبيض صاف ، تدل قسماته على أن صاحبه يملك قلبا نقيا ونفساً طاهرة . شعره مُسْترسل ناعم ، يفرقه من ناحية الشمال ، لذلك يفتخر بأنه يشبه كمال الشناوى .. واستغل هذا الشبه ، لكي يجد لنفسه مكاناً عند بعض أهل الفن .

- خيراً يا عبد الله .. شغلتنى .

- ظننتُ أن الوسط السينمائي عالم شريف نظيف ، فوجدته مثل سوق روض الفرج .. كله بيع وشراء على عينك يا تاجر .

- كيف ..؟!

ـ هنـاك عصابات مافيا تحتكر العمل .. منتج تاجر ، ومخرج شاطر ، وراقصة درجـة تـاسـعة ، وممثـل كان في الأصل .. الله أعلم .. يكوِّنـون شـركة ، يأكـلون معـا .. ويلعبون القـمار .. ويشربون المكيفات .. ويعملون كل ما تتخـيل .. وما لا تتخيل .. يطلبون أن أكتب لهـم قصصا عاطـفية محبـوكـة على المـمثـلة الراقصـة .. والفنان المسطول .

ـ يسـمونها .. أفلام المقاولات ، ويصورونها في أقـل من شـهر في عـجمان .. أوْ لبنان .. أو بـلاد اليـونـان .

ـ أنا محـتـار يا أخى .

ـ لماذا .. ؟

ـ كنت أرى أن الفن رسالة سامية بل مقـدسة ، والكاتـب لابـد أن يكـون مـلتزماً بقضايا المجتمع الساخنة .. وحـين دخـلت وجـدت الطـريق مسـدودا .. أعمل مع هذه العصابات أو أموت جوعـاً ..!!

ـ حاول أن تمسك العصا من المنـتصف .

ـ حين تمسك العصا من المنـتصف .. لا تستطيع أن تضرب بها .

ـ هذا صحيح .. أنا معك . إياك أن تتنازل .. مازلت في أول الطريق.

ـ أعرف أن الحاجة أمّ التنازل .. أنا صحيح محتاج . لكني لن أتنازل . الحمد لله .. ليس عندى زوجة .. ولا ولـد .

- تمسك بالرأى الذى تقوله دائماً يا عُبَد ..

- ما هو ؟

- أنا متزوج قضية الفن .

- سأحاول .. !

جئت إلى عبد الله أشكو .. فوجدت عبد الله تعبان مثلى . يبدو أنه محاصر ، فهو غير موظف ، وليس له دخل ثابت . إما أن يعمل ما يخالف ضميره .. أو يموت جوعا .. كما قال . معادلة غير متعادلة .. تبيع نفسك أم تشترى ضميرك ؟! لو كانت الحالة تسمح لعرضتُ عليه سلفة . الحمد لله أنه لم يطلب .. تحمل يا صديقى .. جيوبنا خالية ، لكن قلوبنا عامرة .

خرجت من البيت بهمّ .. ورجعت بهميْن : همّى .. وهم عبد الله . كل شيء علاجه الصبر - كما قالت جدتى . لا أدرى لم كان النوم عصيا في هذه الليلة السوداء ؟ حاولتُ .. وحاولتُ .. لكني بقيت قلقا مؤرقا ، حتى مطلع الفجر . كل وساوس الدنيا ركبتْ فوق رأسى .. دخنتُ كل ما في البيت من سجائر . صليتُ الصبح .. واستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم .

مع نسمات الصبح بدأ النوم يداعب جفونى المرهقة . خشيتُ إنْ استسلمت للنعاس أن أغيب عن العمل يوماً آخر . فتحتُ شباك

الغرفة، حتى يوقظنى الضوء إنْ أخذنى النوم . بين النوم واليقظة رأيتُ كابوساً مرعباً.. أسير في شارع مظلم . وحدى في الظلام أسير. انفتحتْ .. انفتحتْ . فجأة . طاقة نور مثل طاقة ليلة القدر، التي حدثتنى عنها جدتى . ثم ظهر عصفور أخضر مثل عصافير الجنة . يغرد بصوت جميل .. ويرقص بجناحيه . يقف على كتفى . فرحا كنت .. توقفت .. تأملت .. دهشت . حام حولنا غراب أسود .. أخذ يدور .. ويزعق مثل عواء ذئب جبلى . طار الطائر .. وارتفع .. غاب عن عينى .. غاب بعيدا. نعيق الغراب لا يزال يدوّى. ما طار طير وارتفع ، إلاّ كما طار وقع .. وقع يرقص مذبوحًا من الألم .. دماء الطائر تنزف .. وصوت الغراب يصدر من الجهات الأربع .. غاك .. غاك .. غااك ... غاااك ... غاااااك ... غاااااااك ....

قمت حزينا ضيق الصدر، تضطرب أنفاسى .. وأنا أردد: اللهم اجعله خيراً .. اللهم اجعله خيرا. تحاملت على نفسى . دخلتُ الحمام .. بقيت فيه فترة طويلة ، حتى أبرد أعصابى المحترقة .

* * *

قبل أن أكمل ارتداء ملابسى .. سمعت جرس التليفون . تكاسلت عن الرد .. بل حاولتُ عامداً ألا أرد . من الذى يطلبني في هذا الوقت المبكّر ؟ أنا غريب في هذا العالم .. ربما كانت النمرة خطأ ـ كالعادة . انقطع صوت الجرس مدة ، ثم عاود الرنـــين . ما كدتُ أمسك السماعـــة ، حتى سمعت رئيس التحـرير يصـــيح فيَّ : أين أنت يا رجل .. لستَ في الجريـدة .. ولا في البيت .. ؟

ـ آسف يا أستاذ مصطفى .. صباح الخير .. كنتُ على وشك الخروج . سأصل حالا .. خيراً .. هناك أخبار جديدة .. بشْرْ ...

صمت لحظة ، ثم قال بحزن : البقاء في حياتك ..

ـ من ؟

ـ هالة توفيت اليوم .. أراك في الجريدة بعد ساعة ، لنذهب إلى العزاء .. إن كانت لديْك رغبة ..

لم أستطع أن أقول شيئا . من فضل اللـه أنى كنت وحـدى . أردف قائلا : أراك في الجريدة .. لا تتأخر .

يا ألله .. عفوك ورضاك . لم أعد قادرا على الوقوف والاستمرار .. أحس أن ما تبتلينى به فوق طاقتى .. أشعر أننى لا أتحمل أخطاء أبي وأمى فحسب ، بل أتحمل أخطاء جيل بكامله .



ما رأيته لم يكن كابوساً .. هالة ماتت .. لا .. لا .. هالة قتلت غدرا .. لم .. وكيف ..؟ بدلاً من أن أمشى بجوارها في زفة العرس أسير خلفها في موكب جنازة . يارب .. كيف حدث هذا .. لماذا لا تطهر أرضك الطيبة من الغربان والذئاب .. ؟ يا ألله .. ساعدنى .. ارحمنى . صوت الغراب الأسود لايزال ينعق .. غـاااك .. غـاااك .. غـااااك ....

ضاقت عليّ الأرض بما رحبت .. أخذتُ أبكى .. وأبكى .. بكاء مرا .. أبكى عصفورا أخضر قتله غراب أسود . كيف تكون حياتى .. بل كيف يكون العالم كله بغير هالة ؟ أذهب .. أمشى في جنازتى .. أكون داخل النعش وخلفه في آنٍ واحد ..؟! إنْ ذهبتُ يقتلنى الهم .. وإن بقيت يذبحنى الحزن . ماذا أفعل ؟ لم أعد قادراً على عمل أي شيء . أعرف نفسي جيداً .. شـؤم .. نحس . ماتت زهرة البنفسج وسط أشواك البرية . يا زهرة خيالى .. تحطمت آمالى .. وضاعت أحلامى .. وتفجرتْ آلامى .. وتوقفت أيامى ..!!

صرت هيكلا متخشبا مثل شبح فرانكشْتين . أذهب .. لا أقدر .. أعيش .. أموت .. أبكى .. أصرخ .. أستغيث .. أندب .. ألطم .، أقطع ملابسى .. أفقأ عينى .. أنتزع قلبى .. كيف أقدر ؟. لا .. لا أستطيع عمل شيء .. ضاع معنى كل شيء ..!!

أيها المعذب الجريح .. من كل ناحية تهب عليك الريح ..
فمتى .. متى تستريح ؟ الراحة الكبرى .. النعمة العظمى الآن .. الآن
أرغب في موتٍ من أيّ نوع .. وبأية طريقة . ألا موت يباع ..
ألا موت يباع فأشتريه بعمرى الذى ضاع .. وحُلمي الذى
تحطم .. ؟ !

عالم موبوء .. وجيل ملعون .. ملعون .. ملعون . ليتنى أكون
قادراً على قتل نفسى . . لكن أنا .. أنا عاجز .. جبان ، يضربنى
الزمن على خدى الأيسر .. فأدير له الأيمن .. بقيت ضربة على
النافوخ ، حتى أفقد الوعى .. وألحق بهالة .. !! يا أللـه .. إنْ لم
يكن بك عليّ غضبٌ أوْ سخطٌ .. فتداركنى قبل أن يأتي
الطوفان .. الطوفان قادم .. قادم .. لكن أين الذي يمكن أن يصنع
سفينة النجاة .. ؟!!

٥ ـ متى تطلع العذراءُ من خِدرها .. ؟!

أحمد حلمي .. أكثر أفراد شلتنا صفاء ، وهو ينتمي إلى القرية التي ولدتُ أنا وهو بين حاراتها الضيقة ، بينما بقية الشلة تنتمي إلى قرى أخرى متناثرة حول المنصورة ، وما أكثر القرى التي تحيط بهذه المدينة المناضلة التي ولدت غداة الانتصار على جيش لويس التاسع وأسره في دار ابن لقمان . هذه المنطقة فضاء معطاء .. قدم للوطن كثيراً من رجال الفكر والفن والحرب والسياسة . أحمد بلا شك أحد صناع النصر في حرب أكتوبر ١٩٧٣. زرته بعد الحرب بمدة قليلة مع صديقنا سميح عبد المسيح ، حيث كان يعالج من كسر في الساق اليسرى .. ومن بعض الشظايا التى استقرتْ في ساقه اليمنى. رغم كثرة الأربطة التى كانت تحيط بساقيه ، كانت نظراته تشعّ رضا وصبراً وإيماناً. زوجته تغريد تجلس عند قدميه . تركت أطفالها عند أهلها ، وتأتى كل يوم لتكون في خدمة رجلها . تغريد سيدة غير

متعلمة ، لكنها نموذج طيب للعطاء الفطرى . معادلة بدت لى أحيانا غير مفهومة .. بيوت كثير من السيدات غير المتعلمات وغير العاملات أكثر استقراراً ودفئاً من بيوت بعض المتعلمات العاملات ..!!

لم أكن قادراً على أن أقول شيئا ، بينما قطع الصمت سميح : حمداً لله على سلامتك يا بطل .

ردّ بإيماءة من رأسه أتبعها صوت ضعيف: سلمك الله يا أخى.

أشار إليّ لأجلس قريباً منه . وضع يده اليمين في يدى اليسرى : صحتك لا تعجبنى يا حسن .

- أعمل كثيرا .

- ليس هذا هو السبب .

قالت تغريد: ليتك تتزوج يا أستاذ .. قلْ نعم ، وأنا أحضر لك عشرين عروسة .

ابتسم سميح قائلا: يامدام تغريد..أنا وحسن حالة ميئوس منها.
قال أحمد : لماذا لا تقول شيئا .؟

قلت مبتسما : أنا مثل سميح وعبد الله عاشور ، هما .. متزوجان قضية الفن .. وأنا متزوج قضية الصحافة .

خرجت أنا وسميح .. من عند أحمد حلمى ، وأشجار الحزن تتطاول في أعماقى . صحيح .. لماذا لا أتزوج ؟ اقتربتُ من سنّ

الثلاثين ، وتعودت على حياة العزوبية . الإنسان أسير عاداته .. وأنا أسير الوحدة والأحزان . تركت المحاماة بإرادتى ودخلت عالم الصحافة . المحاماة مهنة الدفاع عن أفراد مظلومين ، أما الصحافة فوظيفتها الدفاع عن أمة بأسرها، تعانى من غياب الحرية ، وفقد العدالة الاجتماعية . إنسانية الإنسان منفية في ظل القهر والفقر . الظلم والفقر .. هما سرّ ضياعى وسبب مأساتى ، لذلك نذرت حياتى من أجل الدفاع عن المظلومين .. لأني واحد منهم . لست غاوى نكد .. لكن هذا قدرى . لم أختر أبى .. ولا أمى .. بل حتى ولا اسمى ، فكيف أقدر على تغيير مجرى حياتى ؟! نحن ضحايا الظروف .. وشهداء البؤس . أبو العلاء المعرى كان على حق .. « هذا جناه أبي على وما جنيت على أحد » . يا حكيم المعرة .. لن أجنى على أحد . تذكرت قول عبد الله عاشور : « الحياة خرافة جميلة .. يا صديقي » .

ثارت هذه الخواطر في ذهنى ، وأنا أركب التاكسى مع سميح .. عرضت عليه أن نتغدى سويا ، لكنه رفض بحجة أنه مرتبط بموعد .

ـ سأقبل عذرك .. إذا كان لديك موعد عاطفى .

ـ يا رجل .. لا تحرجنى .

ـ هنيئا لك يا صديقى .. عندك قدرة متجددة على الحبّ .

ـ يعنى لا حبّ .. ولا زواج . يا صديقي .. الرجل بغير امرأة طفل ضال .

شغلتنى الفكرة التى قالها سميح بشكل تلقائى .. « الرجل بغير امرأة طفل ضال ... !!! » هل هذه حقيقة .. أم وَهْمٌ ، نشغل به أنفسنا - نحن الرجال - تعبيرا عن حاجتنا الشديدة إلى المرأة .. ؟! هذا صحيح .. لكن الذين يشغلون أنفسهم بقضايا الوطن .. وهموم الأمة لا مكان للمرأة في حياتهم . لا .. لا .. هذا غير صحيح . كل أصحاب الرسالات تزوجوا ، وأحبوا ، وعاشوا حياة خاصة .. عامرة بالحبّ والمودّة .

* * *

طرق خفيف على الباب .. لم ألتفت إليه في بداية الأمر ، خاصة وأن الطارق لم يستعمل الجرس ، وإنما أخذ يطرق بأصبعه طرقات هادئة .. متقطعة . لازلنا في أول الليل .. حوالى الثامنة في ليلة من ليالى نوفمبر المنعشة . تمنيت أن يكون الزائر واحداً من الأصدقاء .. حتى لو كان عبدالله .. الوحدة إحساس مرّ ، خاصة في لحظات الحزن والملل . فتحت الباب .. فإذا بالسيدة عطيات فؤاد .. التي تسكن في الدور الثالث ، وقد ارتدت ملابس أنيقة ، كأنها ذاهبة إلى عرس أو موعد غرامى . الملابس ملابس سهرة سوداء ، وقد غطت وجهها الأبيض بوشاح أسود . رحبت بها فأنا أعرف زوجها أشرف مجدى ، وهو صحفى سافر إلى جدة للعمل في إحدى صحف المملكة العربية السعودية . وقد طلب منى بحكم الزمالة والجيرة .. أن أقدم ما

أقــدر عـليه من مساعدة لزوجته وأطـفالـه الثلاثــة : أسامة وأميمة وإسلام .

ـ أهــلا .. يـا أم أسـامـة .

ـ أفضل أن تناديني باسمى .. !!

ـ مـدام عطيات .

ـ يكفى عطيات .. ألسنا إخوة ؟

جلست أمامي .. صمتٌ برهة طالتْ ، لأنى .. لا أعرف سرّ هذه الزيارة المفاجئة . أحياناً أمرّ عليهم للسؤال عن أحوالهم ـ إذا قابلنى أحد الأبنـاء بالمصادفة .. خاصة أميمة الطفــلة الجميلة التي لا أمــلّ من الكلام معها، لأنها نموذج نـادر لبراءة الأطفـــال . عـندما ترانى تتعلق بى، وتحيط رقبتى بذراعيها الصغيرتيْن ، وهي تردد : عمو حسن .. عمو حسن .

ـ ماذا تشربين ؟

ـ شكرا .. لا أريد شيئا الآن .

ـ هـذه أول مرة ..

ـ ولـن تكون الأخيرة .

تأملت المليحة في الخمار الأسود . أول مـرة أدرك أنها امرأة جميلة . لا أعرف عـمرها الحقيقي ، لكنها قـاربت الثلاثين دون شـك.

امرأة مرتوية بضة القدّ .. ممتلئة الذراعين .. مرتوية الساقين .. وجهها أبيض .. في أسفل ذقنها غمّازة محببة . وضعت بعض مكياج خفيف وعطر ساحر الرائحة . عندما كانت تريد منى شيئاً ترسل أحد أبنائها .. لكن هذه أول مرة تزورنى فيها .

في بعض المواقف الحرجة يعترينى صمت وخجل ، بحيث أبدو مرتبكاً بعض الشيء ، وعاجزا عن أخذ زمام المبادرة .. أو فتح أى مجال للكلام . لولا ظلم أبى .. وإهمال أمى .. لما كنت على هذه الحالة التعسة . نظرت المرأة إلىّ .. وقد تاه جسدى النحيل داخل البيجاما وروب النوم . أشعلت سيجارة حتى أخفى حيرتى .

- صاحبك .. أشرف ..

- ماله .. خيرا ؟

- انتصف الشهر .. ولم يرسل الشيك ، حتى أحضر لوازم البيت ومطالب الأولاد .

أعرف جيداً .. أنه لم يبق من راتبى سوى خمسة جنيهات فقط ، لكنّي قلت بشجاعة : أحضر لك نقودا . ؟

- شكرا .. في الحقيقة أنا مشغولة عليه .

- عندك رقم تليفونه ؟

- مرّ علىّ غدا ..

- إن شاء الله .. أعد لك الشاى .

ـ سأعمله أنا .. دلنى على المطبخ والأدوات .

يا خبر أسود .. وأزرق .. وبنّى كمان . كيف تدخل المطبخ وقد تحول إلى سوق زبالة .. ومعظم الأوانى لم تغسل منذ حوالى أسبوع ، والحوض شبه مسدود .. ولا يوجد شىء في مكانه ؟

قلت منتفضاً : لا .. لا والله .. أنت ضيفتى .. لا يمكن .. لا يصح ..

تأملتها .. وقد همّتْ واقفة .. ثم خلعت الخمار الأسود برشاقة، فبدا شعرها الليلى الفاحم في تسريحة أنيقة ، تجمل وجهها المنير . تعرف الطريق جيدا .. فشقتها تقع في الناحية التى تقع فيها شقتى . الفارق الوحيد أنها في الدور الثالث .. وأنا في الدور الرابع . سبقتها ناحية باب المطبخ ، حتى أسد عليها الطريق . مددت ذراعى .. فإذا بها تحاول إبعادى .. تركتها تمرق إلى الداخل . تعمدتُ أنْ أجلس بعيداً .. خجلاً مما سوف تقع عليه عيناها في سوق الزبالة . لا أدرى.. كم سيجارة حرقت ، حتى عادتْ بعد ما يقرب من ساعة ، وهي تحمل صينية الشاي .

أخذت تنظر إلى .. وهى تذيب السكر بهدوء في الكوب: أستاذ حسن ..

ـ نعم .

ـ أنت مثل أخي .

ـ أعرف ذلك .

ـ لم لا تتزوج .. ؟ !

ـ حاولت .. لكن ..

ـ لكن إيه .. الرجل دائما في حاجة إلى امرأة .. وهو صغير.. وهو كبير .. حتى عندما يصبح عجوزا .

ـ معك حق .

تمنيت أن تكون أختا شقيقة .. لكن لا أمل في كل ما أتمنى .. !!

ـ سيجارة .. لو سمحت .

ـ لا أعلم أنك تدخنين .

ـ الملل يدفعنا أحياناً .. لعمل أيّة حماقة .

قمت لأحضر علبة كبريت من المطبخ . كدتُ أشك فيما أبصرت .. كل شيء نظيف ومرتب . سميح كان على حق : «الرجل بغير امرأة طفل ضال » . قلت وأنا أشعل العود : أنت سيدة طيبة .. يا مدام .

ـ قلت لك .. أفضل أن تناديني باسمي .

حدثتني نفسي وأنا أطفئ عود الكبريت : ما الفرق بين مدام عطيات .. وعطيات . أليست عطيات .. هي مدام عطيات ؟ أحيانا

لا أفهم منطق بعض النساء . أنـا ريفيّ ساذج .. لم أعرف من نساء العـالم سـوى جدتي نفيسة رحمها اللـه . متى أجد امرأة ـ مثـلها ـ تـنسيني أوجاع السنين ، وتغـنيـني عـن كل نساء العـالمين .. ؟!

نظرتْ إلى ساعـتها فـجأة .. وقـالـت : تأخـرت .

ـ الساعـة العـاشرة ..

ربطت الوشاح الأسود حولّ وجهها البدري ، وضعت كفي النحيلة البـاردة بين راحتيها : لاتنس أن تمر غدا ، لتأخذ رقم التـلـيفـون .

أغلقتُ الباب بهدوء قائلا : تصبحين على خير .

شغلتني زيارة عطيات ، لدرجة أنني أخذت أفكر فيمن أستدين منه ، لكي أعـطيها مبلغاً من المال إلى أن يصل الشـيك من زوجهـا المسافر ، الذي لم يـأت منذ حوالي سبعة شهور ، لأنـه غير مسموح لـه بالنزول إلامرة واحدة في السنة . حاولت حين فكر في السـفر أن أمنعـه ، لكن كان مصراً ، وقال :

ـ الحـظ لا يطرق الباب إلاّ مرةً واحدةً . عندى ثـلاثـة أطفال .. كلـما كبروا زادت احتياجاتهم ، كما ينبغى أن أدخر شـيئا من أجـل المستـقبل .

ـ المستـقبل بيد الله يا أخي .

ـ تقـــول هـذا يا حسن .. لأنـك لم تتــزوج ، وليس عليـــك التزامات ..

قطع كلامه لحظة ، ثم أردف : الأب حين يحس أنه عاجز عن تلبية حاجات أبنائه ، تخنقه نظراتهم المحرومة .

ـ على كل .. الحاجة أم التنازل .

ـ الأبناء مجبنة مبخلة .. ونحن نتعذب من أجلهم هنا .. أو هناك . هذه سنة الحياة .

لا يزال طيف عطيات حاضراً في ذاكرتي ، والوشاح الأسود يبرز مفاتن وجهها . حين تخيّلتها .. لا أدرى لم تذكرت هذه الأبيات التي قالها مسكين الدارمى :

قُلْ للمليحةِ في الخمارِ الأسودِ ماذا فعلتِ بناسكٍ متعبِّدِ

قد كان شمَّرَ للصلاةِ ثيابه حتى خطرتِ له بباب المسجد

رُدّي عليه صلاتَه وصيامَه لا تقتليه بحقِ دينِ محمدِ

لقد ذبحتني هالة .. فماذا يمكن أن تصنع بى عطيات .. ؟!

* * *

لم أعد قادرا على رؤية أى مكان كنت ألتقى فيه بهالة .. حتى الجريدة ، بدأت أفكر في طريقة مناسبة للاستقالة منها. أخذت أتهيأ لكتابة مقالى الأسبوعى . تمنيت كوبا من عصير الليمون حتى يروق دمائى الفائرة ، لكنى حرّمته على نفسى بعد وفاة هالة ـ رغم حبى له.

عندما أكتب مقالة تنتابنى حالة غريبة ، وأستعد لذلك بطقوس مختلفة ، مثل شاعر يتهيأ للإلهام بعد طول انقطاع . أحلق ذقنى حتى لو كان الوقت فجراً .. أغير ملابسى .. أمشط شعرى .. أتعطر ببعض ماء الكولونيا .. أعد علبة سجائر كاملة ، وعلبة كبريت .. وطفاية .. وزجاجة ماء .. وأوراق كثيرة .. وعدة أقلام: سوداء وزرقاء وحمراء ، وبعض الكتب والمراجع . أنا رجل غريب الأطوار في كلّ شيء . الصديق حمدى الحسينى علق على ذلك ذات مرة قائلا : هذه الغرابة في السلوك يسميها بعضُ علماء النفس عقدة، ومعناها بالإنجليزية « COMPLEX » .

قلت مبتسما : لا أريد أن أعرفها بالعربية ، فلم تريد أن تعلمنى إياها بالإنجليزية ؟

- هذا من اختصاص صديقنا أدهم بدير .

- لقد وحشنى كثيرا - رغم أنه سافر منذ مدة قليلة .

- ذكرتنى بجملته الشهيرة .

- ما هي ؟

- يا عزيزى .. TAKE IT EASY .

كتبت العنوان عدة مرات حتى يكون بخطٍ جميل :

من أشعل الحرب الأهلية في لبنان .. ؟!

حاولتُ أن أجمّع خواطرى المبعثرة .. منذ سنوات والحرب الأهلية في لبنان مشتعلة بضراوة .. القوى العالمية تهدد أىّ دولة تحاول التدخل في شئون لبنان ـ يقصدون بذلك إيران طبعاً .. العدو التقليدى للتحالف الغربى . أمريكا تتزعم النظام العالمى الجديد .. وتضع إصبعها الطويلة في كل مكان . أحيانا تكون هذه الإصبع ظاهرة مباشرة .. وأحيانا تستخدم مخلب قط . ما أكثر القطط التى تقوم بدور العمالة في هذا العصر الموبوء . في لبنان بعض المسيحيين يقاتلون بعض المسلمين .. وبعض المسلمين السنة يقاتلون بعض المسلمين الشيعة . وبعض سكان الجنوب يحاربون سكان الشمال تحت قيادة بعض كتائب من الجيش النظامى . وبعض أولئك وهؤلاء يحاربون بعض الفصائل الفلسطينية التى تتجمع حول صابرا وشتيلا . المهم أن معظم البلاد العربية عملت أذنا من طين وأخرى من عجين .. ينطبق هذا على مصر .. وسوريا .. ومعظم بلاد الخليج .. والعراق ، التى بدأت تستعد لدخول حرب غير مفهومة مع الجمهورية الإيرانية الجديدة . خسر كل العرب بما فيهم أهل لبنان . الرابح الوحيد من هذه الصفقة هى إسرائيل ، التي زرعت الخراب في المنطقة العربية ـ التى تسمى الآن المنطقة الشرق أوسطية ـ منذ وطئت أقدامها الدنسة أرض الأنبياء .. !! إسرائيل زُرعت في قلب الأمة العربية ، حتى تشرخ جدار الوحدة ، وتمزق صفوف الأمة ، وتنهب ثروات المنطقة . إسرائيل مخلب قط للنظام العالمى الجديد .. !!

تكاثرت الأفكار المخيفة في فكري المرهق حول مستقبل الأمة العربية في هذا المنعطف التاريخي الرهيب . العروة الوثقى انحلت .. الصفوف تفرقت .. البلاد تشرذمت .. الناس ضَلوا .. أو ضُلللوا. أصبح كل فريق بما لديهم فرحون .. وأقامت كل دولة حول نفسها آلاف الحواجز والمتاريس ، وأصبح من الصعب .. أو المستحيل أن يدخل العربى بلداً عربيا .. إلاّ بعد استمارات .. وتأشيرات .. وأقلام .. وأختام . بل إن الكتاب لا ينتقل من بلد إلى بلد إلاّ بعد فحص وفسح وموافقة رسمية . الثقافة أصبحت سلعة مشكوك في أمرها. سبحان الله .. متى نتدبر الأحوال والأهوال ، التى تحيط بنا من كل اتجاه .. متى ... ؟!

كيف أصنع من هذه الخواطر المبعثرة مقالة متسقة .. ترضى عنها هالة في مرقدها ؟ .. تلك هي القضية يا حسن .. !! نحن في حاجة إلى قائد في شجاعة محمد على .. أو جرأة جمال عبد الناصر، ليجمع أشتات اثنتين وعشرين دولة في إطار أمة واحدة، ترفرف عليها راية القومية العربية من الخليج العربى شرقا إلى المحيط الأطلسى غرباً . لماذا لا نبدأ ـ على الأقل ـ باتحاد فيدرالى .. ؟ لماذا لا يكون هناك قطار العرب السريع ، الذى يُقرّبُ بين أقطار الأمة ؟ لماذا لا نوحد العملات العربية في عملة واحدة .. ؟ لماذا لا نوحد برامج التعليم والثقافة .. بل لماذا لا تتجمّع الجيوش العربية تحت لواء قائد واحد .. ؟! لماذا .. لماذا لا نتوحد كما كنا فى عصر الخلفاء الراشدين، ودولة الأمويين، وعصر العباسيين ، وأيام صلاح الدين.. ؟!

تؤرقنى هموم هـذه الأمة .. التي كانـت ـ ولاتـزال ـ خير أمة أخرجـت للنـاس . أحسُّ أنى أحمل ـ وحدى ـ مسئولية الدعـوة إلى بعـث جديـد لوحدتها ونهضـتها. العرب في كل مكان ينبغى أن يستيقـظوا.. ويتحدوا.. فحاضرهم لن يصلح إلاّ بما صلح به ماضيهم : وحدة صف ، وقوة بغير ضعف . الاعتصام بحبل الله والتمسك بالعروة الوثـقى هما الصراط المستـقيم لـوحدة أمـة ، تفـرقـت أقـطارها .. ونهـبت ثـرواتـها .. وطـمع فيـها أعداؤهـا . هالة يا حبيبتي .. أتمنى أن يهبنى اللـه حكمة أبى بكر ، وبصيرة عمـر ، ورحمة عثمـان ، وفصاحة علـى ، وشجاعة خالد .. حتى أجـدد لهذه الأمة شبابهـا ، وأوحد صفوفها ، وأثـبّت أهدافها ، وأحقق آمـالها . من يبصر النور يكره إلى الظلمة أن يعود . سوف أمضى يا هالـة .. يكـفينى شرف المحاولـة .. !!

* * *

قـمت مكبرا حتى أستطيع كتابة المقالة التى كنت أفكر فيها بالأمس، لكن لم أجد لدى رغبة قوية . لا أستطيع أن أكره نفسى على الكتابة ، حتى أقدر على تنظيم أفكارى وتنسيق عباراتى .. لذلك آثرت أن أؤجلها إلى المساء .

ارتـديت مـلابسي .. وأخذت كـوبـاً من لـبن الزبـادى ـ فطورى التقـليدى .. إلى أن يأتيني ربيع ـ فـي الحـاديـة عشـرة تقريبا ـ

بسندوتشات الفول والطعمية .. التى يمكن أن تكون الفطور والغداء فى آن واحد . لا أهتم بالطعام رغم كثرة التدخين . أومن بالحكمة التى يرددها سميح : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » . على كل .. هذه حكمة .. وقلة حيلة يا صديقى .. !!

كدتُ أنسى أن أمر على عطيات ، لكي آخذ رقم تليفون زوجها. عند أول طرقة فتحت الباب .. وأغلقته سريعا خلفى . الأطفال ذهبوا إلى المدرسة ، الشبابيك مغلقة ، نور هادىء ... يفترش الصالة .

- صباح الخير .. يا مدام ..

- تانى يا حسن .. صباح النور ياسيدى .

- رقم التليفون .. لو سمحت ..

- الشاى جاهز .

- شربت .

- ما شربته ماء ساخن .. أما الشاى فلن تجد أحداً يصنعه لك مثلى .

- في وقت آخر .. أنا مستعجل .

- دقيقة واحدة .

مرقتْ خلف ستارة بيضاء ، تحجب ما بين الصالة وداخل البيت .

أحسست قدراً من الحيرة . لماذا دخلتُ .. ماذا يحدث لو جاء زائر فجأة .. ؟ عادتْ سريعا بصينية عليها كوبان من الشاي .. وطبق من الفطائر . جلستْ أمامي مباشرة . حين نظرتُ إليها ـ وهي تلبس قميص نوْم أحمر شفّاف ، وتضع مكياجاً خفيفا ، وعطراً جميلاً ـ أدركتُ أنني ... ارتكبت خطأ ما. أول مرة .. أقع في مثل تلك الورطة ... !!

فجأة تراءتْ أمامي صورة هالة .. أخذتْ تمتد .. وتمتدّ ، حتى ملأت الفضاء حولي من كل الجهات . نظرتْ إلى معاتبة ، كأنما تقول: هكذا تخون ذكراي يا حسن .. ؟ !

انقشعت الغشاوة عن عينيّ ، وبدأ ضميري يستيقظ .. وصاحتْ النفس اللّوامة في أعماقي .

ـ لماذا لا تأكل .. ولا تشرب ؟!

ـ آسف .. تذكرتُ موعداً مهماً .

ـ صنعْتُ .. هذه الفطائر .. من أجلك .

ـ شكراً .. عن إذنك ..

عدوْت بأقصى سرعة ناحية باب الشقة . لم أشرب الشاي .. ولم أتناول الفطائر .. ولم آخذ رقم التليفون . حين استقبلني ضوء الشارع أحسست أني استيقظتُ .. من كابوسٍ مخيف .

ركبتُ السيارة .. لم أحاول أن أذهب ناحية الجريدة ، لكنني توجهتُ إلى مكان آخر .. شرعتُ أسيرُ . وسط الزحام . ناحية المقابر . تركتُ السيارة بعيداً .. مضيْت أعدُو إلى أنْ وصلتُ إلى قبر هالة . أخذتُ أبكي إلى أنْ أحسستُ أنه لم يبق في عينيّ دموع . تخيّلتُ صورة هالة في ثياب ملائكية ، تبتسم لي وراء أفق بعيد . أخذتُ أطرق باب القبر باكياً : أما آن للعذراء أن تطلع من خدْرها ... ؟ !

٦ ـ جمرة الضوء

انتابني إحساس حاد بالذنب .. وتفجرت مشاعر الألم في داخلي بعد موقف الانتحار الأخلاقي ، الذى كدت أقع فيه مع عطيات . ما الصواب والخطأ .. كنت عاقلا أم مجنونا .. حراً أم عبدا .. حين رفضت أن أستجيب لما تدعونى إليه .. ؟ الشعور بالألم في بعض مستوياته ليس إلا مجالاً لفتح باب الجحيم الداخلى . الاكتشافات الحديثة .. استطاعتْ أن تعرف علة كل عضو في الجسد البشرى، أمّا عالم الروح ودائرة اللاوعى .. فتلك مناطق مجهولة ، لم يقدر أحد على اكتشاف أبعادها وأسرار حركتها . هناك مساحات معتمة في أعماقي .. ومواقف مجهولة في حياتي .. لا أجد لها تفسيراً أوْ تبريرا ، لكنى أدرك تماماً أن ثمة علاقة بين الحرية والشعور بالذنب . الشعور بالذنب إحساس بالمسئولية الأخلاقية . الذى لايقدر المسئولية .. بعيد عن حظيرة البشر ، لأنه غير ملتزم بأعرافهم ومثلهم . الشعور بالذنب أهم

خصال النفس اللوامة ، التى لا ترضى الخطأ من غيرها ، لأنها لا ترضاه من ذاتها . أشعر أحيانا أننى إنسان من طينة خاصة .. وأن القدر يضعنى في اختبارات صعبة . هذه فلسفة أم عجز يا حسن ..؟! لست أدري .. !!

أيقظنى من شرودى صوت جرس التليفون . قمت متثاقلاً . المتحدث هو الحاج أحمد حلمى .. الرائد أحمد سابقا . الآن لم يعد يليق به إلاّ لقب الحاج ، لأنه تفرغ للعبادة ورعاية الأسرة بعد أن أحيل للتقاعد بسبب الإصابات التى حدثت له في حرب ١٩٧٣.. صحيح أنه شفى منها، لكن لم يعد لائقاً للخدمة العسكرية. أخبرنى أنه قابل الحاج على النجار ـ زوج أمي ـ مصادفة في القرية، وطلب منه أنْ يخبرنى أن أمى مريضة ، وترغب في أن تراني، لكنها لا تريد أن أشغل عليها . وهى ترفض أن تبعث أيّ رسالة بحجة .. أن من لا يوجعه قلبه على أمه وهى حية ، فإنهاليست في حاجة إلى أن يبكى عليها بعد أن تموت .. !! حين سألته عن أخبار أبى.. ذكر أنه سليم معافى، وصحته أفضل من صحتى : أنت شاب نحيل ضعيف ، وهو شيخ متين قوى .

أمي مريضة ـ شفاها الله ـ لكنها لا تريد أن تشغل بالى عليها. لم تتحمل مسئوليتى صغيرا، لذلك لا تحاول أن تلزمنى

بشيء وأنا كبير. لم تعط .. فلماذا تطلب ؟ هذا منطقُ أمي .. وتلك شفافية روحها الصافية . أنا أعرف أمي دون أن تقول لي شيئا .. أو أقول لها شيئا ..!!

أبي الآن سليم معافى مثل فحل الجاموس .. إذن حكاية المرض والبرقية والشيخ باز.. كانت تمثيلية ساخرة، لكي أتنازل عن نصيبي في الميراث لأولاد زوجته . سلوك هذا الثور الهائج يغيظني .. ويحيرني . ظلمني هذا الرجل في كل مراحل حياتي . العجيب أنه ارتكب في حقي ذنوبا كثيرة .. لكن لم أقرأ مرةً واحدة في عينيه إحساساً بالذنب أو شعوراً بالندم على ما فرّط في حقي . الأغرب من هذا كما علمت من أحمد .. أنه يفتخرُ بي كلما ظهرتْ لي مقالة في الجريدة ، قائلاً لمن يحدثه وهو يفتح الصفحة التي بها المقالة : ألم تقرأ ما كتب الأستاذ اليوم ..؟!

عوامل الوراثة والبيئة تؤثر فينا دون أن نعي .. ترى ماذا أخذت عن هذه السيدة الطيبة الرقيقة .. وعن ذلك الرجل الظالم غليظ المشاعر .؟! يبدو لي ـ أحيانا ـ أن كثيراً من عاداتي وأخلاقي قد شكلتها جدّتي نفيسة .. تلك المرأة الحازمة العطوف ، التي منحتني عناية ورعاية ومحبة ، لم يحظ بها كثير من زملائي ، حتى أولئك الذين كانوا يعيشون في كنف والديهم . رحمة الله عليك يا جدّتي العزيزة .. أتعبني البحث عن نموذج نبيل مثلك ..!!

تشاغلت بقراءة الجرائد.. لكنى لم أجد لدى رغبة في ذلك. ذهبت لإعداد كوب من الشاى . تذكرت عطيات التى أعادت للمطبخ نظامه ونظافته . ماذا أفعل مع هذه السيدة المسكينة .. ؟! زوجة شابة .. هجرها الزوج ، وترك لها ثلاثة أطفال، عليها أن تدبر حالها ، وتتحمل مسئوليتهم .

امرأة أرملة ، زوجها بعيد عنها .. وأطفال أيتام ، أبوهم غائب .. كل هذا من أجل حفنة دولارات . من قال إن المال كل شئ في دنيا البشر . الدفء العائلى والحنان الأبوى .. أفضلُ من ذهب الأرض كلها. ليستْ هناك أسرة تقدر على الحياة بالمراسلة والمكالمات التليفونية . لو تخليتُ عن عطيات ، فقد تبحث عن رجل آخر .. وتمضى في طريق لا تعرف له بداية أو نهاية . لا ينبغى أن أتخلى عنها من أجل المعانى النبيلة التى جعلتنى لا أزل معها. الإنسان الحقيقي .. هو من يغفر ضعف الآخر، ويساعده على أن يمضى في الطريق الصحيح .

دقّ جرس التليفون .. جريت فرحا .. ظننتُ أن عطيات هى التى طلبتنى . القلوب الصافية تلتقي دون موعد في لحظة واحدة . رفعت السماعة فوجدت أن المتكلم صديقى العزيز الدكتور حمدى . كيف تجاهلته هذه المدة الطويلة دون أن أسأل عنه . أخبرنى أننى سأكون ضيف الشرف على غداء يوم الجمعة القادم في بيت أسرة خطيبته

نسرين ، لأنه أراد أن يعرفهم بأعزّ أصدقائه . أنهى المكالمة قائلا: لاتنس، حتى تصلح معدتك الخربة من أكل السوق .

شكرته بعبارات مختصرة ، لأنى كنت في حاجة إلى الاطمئنان على عطيات وأولادها . أدرتُ القرص .. بعد حوالى دقيقة ، ظننتُ خلالها أنها نامتْ ، وكدت أغلق الخط ..

- مساء الخير ياعطيات .

- أهلا .. يا أستاذ حسن .

- كيف حالك اليوم ؟

- بخير .

- أريد أن أطمئن عليك .

- اطمئن .. سأكون دائما بخير إذا رضيت عنى .. !

- لا يوجد أخ لايرضى عن أخته .. كيف حال الأولا د ؟

- عملوا الواجبات المدرسية .. وذهبوا جميعا للنوم إلا أميمة، التى أصرت أن تنام معى الليلة في سريرى .

- سوف أزورك قريباً للاطمئنان عليك وعليهم .

- صحيح يا أستاذ حسن .

- إن شاء الله .. لكنى نسيت أن آخذ رقم تليفون أشرف .

- لا داعى .. الخطاب وصل اليوم .

ـ الحمد لله .. إذا أردت أيّ شـيء .. في أيـة لحظـة اعتـمدى علـي .. نحن إخـوة

ـ أنا سـعيدة بهذا يا أستاذ حسن .

ـ لاتقولى يا أستاذ حسن ، حتى لا أقـول لك يا مدام عطيات .

ـ حاضر .. يا أخى .

ـ تصبحين على خير .

كـنـت سـعـيداً بهذه المكالمـة المخـتصرة ، لأنى كنت أخشـى أن تـظن أننى أسأتُ فهمها . الجـروح إذا عـولجت بطريقة صحيحة تـشفى بسرعـة .. ولا تترك آثـارا جانبية . الحـمـد لله .. انـتـصـرت عـلى ضعـفى وضعـفـها . تـذكرت «أوديسة » هـوميـروس .. وتعجـبت كيـف اسـتـطاعـت بنلوب أن تصبر عشرين سنة على غيـاب زوجهـا أوذيس ، لدرجـة أنـه عندما عاد .. بعد هذه المدة الطـويلة لم تكد تعرفـه .. !!

* * *

انـتهي اعـتدال الخريف ، وبدأت برودة الشتـاء في الأسبوع الأول من فبراير ١٩٨٢ ، ذهبت إلى الجريدة وقابلت رئيس التحرير . انتظرت برهة ، حتى ينتهى من بعض الأعـمال الروتينية . لا أدرى .. لماذا عانقته حين التقينا ـ رغم أني رأيته ، وقابلته منذ ثلاثة أيام . طـلب منى الجـلـوس .. وأخذ يحدثـنى بمـودة . هالة ـ رحمها الله ـ هى سرّ

تحوّل العلاقة بيني وبينه . ثمة مشاعر عاطفية بدأتْ تقوى بيننا. أكثر من ذلك بدأت أرى فيه صورة لنموذج أبويّ مفتقد . لكنى رغم تلك المودة اتخذت قرارا .. وأصررتُ عليه .

- لم أعد قادرا على الاستمرار في العمل هنا .

- لماذا .. ؟

- تعرف الأسباب التى دفعتنى إلى ذلك .

- أنا مقدر مشاعرك .. لكن الجريدة لا تستغنى عنك .

- ولا أنا .. لكنها ظروف خارجة عن إرادتى .. أرجو ألا تسىء فهمى، لأني حريص جداً على رضاك .

- هالة كانت ابنتى .. وأنت الآن ابنى .

- أتمنى ذلك .. وسأظل محافظا على مابيننا من مودة . لكن .. أرجوك .. لا تضغط على .. !!

- أنت صحفي ملتزم .. وإنسان حساس . كنت أحترمك في البداية ، لكنني الآن .. أحترمك وأحبك .

- أشكرك .. لا أقدر على هذا .. أرجو ألا تزعل منى .

- إذا كنت تريد أن تتركنا من أجل ذكرى هالة ، فأرجوك أن تفكر في البقاء من أجلى أنا .. أريدك أن تكون تلميذى ويدى اليمنى في الجريدة .

ـ لقد ولدت صحفيا في هذه الجريدة .. وأعدّ نفسى أحد تلاميذها .. وأحببت كل من فيها حتى عم ربيع .

ـ إذن لم تفكر في الاستقالة ؟

ـ سبب نفسى وعاطفى لا غير ..!!

ـ هذا منطق إنسان رومانسى .. أنت كاتب ومفكر ، سوف تتعب كثيرا إذا استجبت لمثل هذه المشاعر الحالمة .

ـ لا أستطيع أن أكون إلاّ كما خلقنى الله .. دون خداع أوْ قناع .

ـ سوف تتعب كثيرا في حياتك .

ـ ومن قال لك إننى مستريح ؟!

احتوانى الرجل بنظرة مودة .. ثم قال : أنا غير مقتنع بما تقول ، لكنى أعدك بالتفكير فيه .

ـ أشكرك .. أليس هناك جديد في قضية هالة ؟

ـ تزورنى مساء غدٍ في شقة المكتب .. سوف نتعشى سويا ، ونتكلم كثيراً في كل الأمور .

* * *

حضرت متأخراً إلى المكتب ، فوجدتُ سميح عبد المسيح في انتظارى .. ومعه رجل لا أعرفه . بعد التحية وشرب الشاى قال سميح : الأستاذ ألبير فهمي .. صحفى في جريدة « النهار» البيروتية، جاء .. لكي يتعرف عليك .

- أهلا وسهلا .

قال ألبير : قرأت بعض مقالاتك عن الحرب الأهلية في لبنان ، وجئت أعرض عليك اقتراحاً .

- ما هو ..؟

- دعوة لزيارة بيروت ، لترى بعينيك حجم المأساة التى يعيشها أهل لبنان . مؤامرة عالمية .. ضد شعب أعزل مسكين . الدنيا كلها تقف ضد لبنان الحضارة والعروبة . لبنان بلد سياحى .. ولاعلاقة له بالسياسة ، لكنها لعنة الموقع الاستراتيجي ومجاورة العدوّ الإسرائيلى .

- أنا سعيد بلقائك .. قريبا سوف ألبىّ هذه الدعوة .

- متى ..؟

- قريبا بإذن الله .

بعد أن خرجا أخذت أبحث عن القلم على مكتبى ، فوجدت خطاباً من أدهم بدير ...

صديقى العزيز.. الأستاذ حسن الشاعر

تحية عاطرة من بلاد الخليج الطيبة ، حيث الحرارة العالية

والرطوبة الخانقة .. إليك في القاهرة الجميلة الساحرة . اشتقتُ إليـك وإليها ، لكن مـاذا أفعل .. ؟!! اخترت المنفى بإرادتى . عجيب أن تـكون حراً في بلاد الآخرين ، وسجينا في بلادك . والأعجب أن تكون عاقبة التفكير السجن .. وضريبة الانتماء النـفى . يـدعون أنهم يحافظون على الوطن .. وهل فرطتُ أنا في حـقه ؟! حبُّ الوطن هدف نبـيل .. لكن ليس له طريق واحد ، من حـق كـل منا أن يفكر .. وأن يختار الطريق . الذى يزعم أنه يعرف الحقيقة وحده دعىٌّ أو مغرورٌ - على الأقل . وإذا ظن فـريقٌ من النـاس أنهم حُماةُ الحريـة .. فأول شـروط الحرية .. أن تعترف بحرية الآخر. وإلاَّ انطبق علينا قول الشاعر العربى القديم :

وكلٌّ يدَّعِي وصْلاً بليلى   وليلى لا تُقِـرُّ لهم بذاكا

أعمـل - في النهار - مدرساً للغة الإنجليزية في مدرسة ثانوية ، وفي المساء مترجماً بإحدى الشركات التجارية . النجاح في العمل .. ووفرة المكسب عالجا كثيراً من الجروح التى خرجت بها. أخذت تأشيرة اسـتقْـدام لزوجتي وأطـفـالى . أرجـو أن تمـرَّ عليـهم للاطـمـئـنـان والمساعدة .. إنْ لـزم الأمـر .

أخيراً تحياتي لك .. ولكل الأصدقاء ، فقد اشـتـقتُ إليك وإلى الجميع .

صديقك المخلص
أدهـم بـديـر

بعد قراءة الرسالة .. ندمتُ على نسيان أسرة أدهم وعدم محاولة الاطمئنان عليهم منذ سفره ، لذلك قررت أن أمرّ عليهم اليوم قبل العودة إلى البيت .

* * *

بصعوبة .. استطعت أن أصل إلى شقة مكتب الأستاذ مصطفى فودة ، وهي تقع في عمارة جديدة في أحد الشوارع المتفرعة من شارع شهاب في مدينة المهندسين . في العاشرة من مساء الأحد ٢٣ فبراير ... استقبلنى الرجل بحفاوة بالغة ، وصحبنى إلى حجرة المكتب .

أدركت منذ البداية .. أن شقة المكتب غير شقة الأسرة . لفت نظرى فخامة أثاث الشقة . شقة أم متحف ..؟! هل هذه الشقة تقع في حيّ الدقى الذى أعيش فيه .. وهل تلك الشقة هى الوحيدة التى يملكها .. غير شقة العائلة .. ؟! سبحان مقسّم الأرزاق ..!! الحجرة بها مكتب ضخم فخم .. ومكتبة مصنوعة من نوع فاخرمن الخشب ، لا أعرف له اسما .. وعلى الحائط لوحة زيتية لمعبد الكرنك . وفي ركنى الحجرة أبجورتان .. على هيئة صبية تحمل لمبة ، غطتها دائرة حريرية بيضاء مزخرفة بالدانتلا. ثمة كرسيان من الفوتيه المريح أمام المكتب . جاء الرجل ، وجلس مثلى أمام المكتب .

- أهلا يا حسن .

- فرصة سعيدة يا أستاذ مصطفى .



حاولت أن أقدم له سيجارة كليوباترا ، فرفض وأخرج علبة مارلبورو حمراء . أول مفارقة .. رجل مهم في الحزب الوطنى ، يدخن سجائر أمريكية . الأمريكان .. في كل مكان ...!!!

أيقظنى الرجل قائلا : ماذا تشرب ؟

ـ ما تشرب منه .

ـ لا يضيع برودة الشتاء إلا كأس اسكوتلاندى .

بعد أن انتهينا من تدخين السيجارة ، طلب منى أن أذهب معه إلى حجرة المائدة . جلستُ أمامه .. بينى وبينه زجاجة ديمبل . وهذا الشراب لم أعرفه من قبل .. ولم أسمع عنه . قال : هذا النوع معتق.. منذ خمسة عشر عاما .

يوجد أيضا طبقان كبيران من الكفتة والكباب .. لا أدري .. منذ متى لم آكل الكفتة والكباب ..؟! سلطة خضراء .. زيتون أخضر وأسود .. قطع جافة من خبز التوست .. طبق به تفاح وكمثرى وبرتقال .. طبق صغير به بعض الليمون المقطع .. إناء به مكعبات ثلج. قلت مندهشا : هذه وليمة ..!!

ـ احتفالاً بالصداقة التى ستكون بيننا .

ـ أنت الذي صنعْتَ كل هذا .. ؟ !

ـ لا .. عندى طباخ خاص ، أستعينُ به في مثل هذه المناسبات .

هو صحفى .. وأنا صحفي . هذه الشقة في حى الدقى وشقتى المتواضعة في حى الدقى أيضا . لكن المسافة بينى وبينه .. تبدو بعيدة جدا. مصر يا بلدنا .. لماذا لا توزّعين الخير بين أبنائك بالعدل ..؟! أحسست مشاعر متضاربة .. أنا جوعان .. وحيران ، لكن شهيتى مسدودة . اللحم أمامى .. والفاكهة .. لكنى لا أستطيع أن أمدّ يدى . لاحظ الرجل شرودى ، فقال بود: البيت بيتك .. كُلْ واشربْ ما شئت .

ـ أشكرك .

اكتفيت بكأس من الديمبل المعتق ، وبعض حبات زيتون أسود.

ـ الكباب سوف يبرد ..

ـ أنا في بيتى .

وضع الرجل أمامى علبة سجائر مارلبورو .. وطلب أن أخلع الجاكتة ، حتى أكون على راحتى ، ففعلتُ . مرت فترة صمت .. شرب منى .. وأكل منه . لاحظت أنه يأكل بشهية مفتوحة .. لدرجة الشراهة .

ـ ما رأيك ؟

ـ تقصد مسألة الاستقالة .

ـ نعم .

ـ ما زلت مصراً ؟

- نعـم .

- لكنّي غير مقتنع .

- أرجو أن تحترم رغبتى .

- بصراحـة .. أنا خائف عليك .

- إذا كان هذا صحيحا فساعدنى .

- كيـف ؟

- توسط لى عند بعض معـارفك .

- في أي جـريدة تريد أن تعمل ؟

- واحدة من جرائد المعارضة .

- لماذا .. ؟!

- تلك كانت رغبة هالة .

- يا مجنون هالة .. لو أنها مازالت حية ، لكان ينبغى أن تنفذ رغبتها . أما الآن ...

- لكنى مستريح لهذا القرار .

- صحف المعارضة كلها ذات أيديولوجيات خاصة ، وأنت فيما أعلم .. مثل الورد الأبيض .

- أفكر في نوع من المعارضة المحايدة .. لا يمين ولا يسار .

- السياسة لا تعرف هذا ؟

ـ لكن هذا ما أسعى إليه .. من أجل حرية الوطن والإنسان .

ـ أنت مشروع أديـب كبير .. !!

ـ لكنى اخترتُ الصحافة .. عقلى مشحون بأفكارٍ كثيرة .

ـ أنا غير مقتنع بما تقول.. لكنى لن أتخلى عنك من أجل هالة . حبى لها أضعاف حبك ، لأنى ربيتها منذ كانت وليدة . أبوها أحد أصدقائى القلائـل رغم أنه مهندس وأنا صحفى .. ولا نلتقى إلاّ مرات معـدودات في السنـة .

ـ ماذا تنوى أن تفعل ؟

ـ سأتكلم مع الأستاذ أمين بـدوى صديقى .

ـ رئيس تحرير جريدة «الأمة » .

ـ نعم .. ولو أنها جريدة يسارية ، ومعظم كتابها في القائمة السوداء ، بسبب بعض آرائـهم المتطرفة .. ومواقفهم المتشددة .

قمت فجأة .. وقبلته ، ثم عدتُ مكانى . أمسكت لأول مرة بقطعة لحم ، أحسست لـذة غريبة ، كأنما هذه أول .. أول مرة أذوق فيها اللحم .

ـ أشكرك .. أشكرك من أعماقى . لن أنسى لك هذا الجميل .

ـ المهـم أن نبقى أصدقاء .. وإذا لم يعجبك العـمل في جريـدة الأمـة ، فسوف يبقى مكانك خاليا إلى أن تعـود .

- بصراحة .. لا أعدك صديقا فحسب ، ولكن .. أنت في مقام والدى ، بل إنى أحبك أكثر منه .

- لا تبالغ .. رحم الله هالة ، فقد جمعت بيننا برباط وثيق .

- وعدتنى أن تحدثنى عن ظروف القضية .. هل من أخبار جديدة .. ؟!

توقف الرجل عن الطعام والشراب . صمت لحظة ، ثم بدأ يبكى بكاء صامتا. لست وحدى الحزين على هالة . كل من عرفها أحبها .. وأعجب بها . البراءة تُغتال .. والقذارة تبقى . المصائب تجمع المصابين . الخسارة في هالة لا تعوض .. !! هالة من الملائكة .. فكيف تعيش في عالم من الطين ؟ كيف أعزيه .. وأنا في حاجة أشد منه إلى العزاء ؟ نهر الحزن في أعماقي .. أطول من أىّ نهر في العالم .

أيها الموت الكريه .. في الكون ملايين من البشر .. فلم تركتهم وخطفت العذراء الطاهرة .؟ لن يكف حزنى عليك حتى ألقاك .. يا ملاكى .. !! تأملت الحجرة في الضوء الخافت .. أحسست أنى غريب عن هذا الأثاث الخشبى الفاخر والديكورات الكلاسيكية العريقة . تعلق نظرى بلوحة مذهبة وسطها آية قرآنية مكتوبة بخط جميل .. « إن مع العسر يسرا » . كنت مثل غريق في بحر لجىّ - لا يعرف سبيلا للنجاة .. لا أدرى من أي جبلة فطرنى الله ..؟ دائما يشغلنى نصف الكوب الفارغ ، ولا أرى النصف

المملوء ، لأنى عشت طوال عمرى حيران .. حيران .. أسوان .. أسوان .. ظمآن .. ظمآن .. !! قلبى حزين .. مهموم .. وحياتى خالية من أية لحظة هدوء ، فكيف أكون سعيدا .. أو متفائلا؟ السعيد مُسْعد مُنذ مولده .. والبائس مثلى شقىّ منذ كان جنينا في رحم أمه .. !! ابتلع الرجل نفسا عميقا من التبغ الأمريكى .. وأخذ رشفة من الكأس الأسكتلاندى .. حاول ألا تخنقه العبرات .

كنت أظن رجلاً مثل مصطفى فودة لا يبكى أبدا. نحن بشر.. الوتر الإنسانى موجود داخل كل فرد، حتى لو كان جلادا .. أو حدادا .. أو نجارا - رجلا كان أو امرأة ، أو حتى طفلا . بغير هذا الوتر الذي ينبض في لحظات الضعف ومواقف الحزن .. لا يكون الكائن الحىّ إنسانا . علامة إنسانية الإنسان أن يتأثر بما يقع لغيره .. وليس لما يحدث لنفسه فقط .

قلت : إذا كان الكلام يضايقك نؤجله إلى فرصة أخرى .

- أتمنى ألا أستعيد هذه الذكرى الحزينة مرة أخرى .. فقط لا أعرف .. كيف أبدأ .. ؟!

- أدعو الله أن تكون هذه الذكرى آخر الأحزان .

- المهندس محمد توفيق والد هالة عرفته منذ سنة .. سنة ١٩٦٠ في حفل افتتاح السدّ العالى في عهد الزعيم عبد الناصر . إنه من المهندسين العظام الذين يعرفون أسرار بناء السدّ العالى طوبة .. طوبة، بل إنه يعرف مكان كل مسمار فيه ، ويعد هذا المشروع حلمه الوطنى

الكبير. وقد سافر من أجله إلى روسيا .. وبعض البلاد الأوربية . لم يحاول أن ينتقل إلى القاهرة رغم علاقته الشخصية بجمال عبد الناصر .. ولايزال يعيش هناك مع أنه تخطى سن المعاش .

- هل بقى في الدنيا رجال مخلصون إلى هذه الدرجة ؟

- الخير موجود في كل مكان وزمان.. وإلاّ خربت الدنيا.. تصور؟

- ماذا ؟

- رفض هذا الرجل العظيم أن يتولى وزارة الكهرباء والطاقة في الوزارة التى تشكلت بعد هزيمة ١٩٦٧ .. بحجة أن مكانه الحقيقى بجوار حلمه القومى . الإ خلاص للوطن يمكن أن يحدث في أىّ موقع مهما كان متواضعا . الوزير .. المحافظ .. رئيس مجلس الإدارة .. المدير العام .. في رأيه مناصب استعراضية ، وهو يحب العمل في صمتٍ .. بعيداً عن الأضواء .

- هالة ورثتْ عنه الكثير .. وهذا سرّ عظمتها رغم صغر سنها.

- هذا الرجل يذكرنى بنهر النيل .. رمز للعطاء المتدفق .

- هل تعرف أمها ؟

- الدكتورة نادية رياض .. عالمة عظيمة في المركز القومى للبحوث . ليست في جدية زوجها ، لكنها سيدة فاضلة .. مخلصة للزوج والبيت . أكثر زوجين متآلفين .. رأيتها في حياتى .

أشعل سيجارة ، ثم أردف :

ـ منذ ذلك التاريخ كان يزورنى كل مرة ينزل فيها إلى القاهرة . لا أذكر أنه زارنى مرة دون أن يقدم لى هدية من المنتجات الشعبية الخاصة بمنطقة أسوان والنوبة . أخذنى من يدى إلى حجرة الصالون .. وأرانى قطعة حجرية مقلدة ، تشبه لوحة من لوحات معبد رمسيس الثانى ..

ـ انظر هذه التحفة .. إنها مقلدة بدرجة ماهرة ، وتُباع للسياح على أنها لوحة أصلية . هذه إحدى هداياه حينما جاء إلى القاهرة ليحتفل بعيد ميلاد هالة .. منذ خمس سنين .

خرج .. كأنما يهرب بعيدا عن الحجرة ، التى تذكره بهالة وأبيها. من أجل ذلك استقبلنى في حجرة المكتب والطعام . في البدء كنت مشغولاً بهالة .. والآن صرت مشغولا على أهلها. أشجار التفاح .. لابد أن تطرح تفاحًا .

خشيت أن يستطرد في الحديث عن عائلة هالة ، فتساءلت :

ـ ماذا بشأن القضية .؟

ـ ليست هذه قضية .. وإنما مأساة سوداء .

ـ كيف ؟

ـ منذ أيام كنت مع أحد مساعدي وزير الداخلية .. وأطلعنى بصفة شخصية على أوراق التحقيق ، وطلب منى ألا أقول شيئا لوالدها .

ـ لماذا ؟

ـ حتى لانسلخ الشاة بعد ذبحها .

بـدأ قـلبى يخفـق ويضـطـرب . ما يرويـه هذا الرجـل كارثـة إنسانية . لا يدرى .. كيف سيكون وقعـها علـى .. !!

ـ أنت الوحيد الذى أأتمنه على سر المأساة ، لقد أحببت هالـة بإخلاص ، ومن حقك أن تعرف .

ـ أشكرك على هذه الثقـة .

ـ في يوم ٢٨ سبتمبر ..

ـ بعد أن سافرت إلى ليبيا بيوم واحد .

ـ خـرجـت هـالـة لتشـترى لأبيها بـعـض الـهـدايـا ، لأنـه من مـوالـيد أول أكتـوبـر..

ـ ليتها ما خرجت .. !!

ـ كانت تتسوّق من محلات مصر الجديدة . عنـد العـودة ركبت سيـارة تاكسي . طلب منها السائـق أن توافـق على العودة من شارع صلاح سالم بعيداً عن زحمة شوارع المدينة . أشـار لـه ثـلاثـة شبان ، فاستأذنها في أن يـركبوا .. فـلم تمانـع .

ـ لماذا وافقت ؟

ـ هذا المشهـد آخرما تذكرتـه الفتاة المسكينة ، لأنها خدرت ، وبعد ذلك أغـمى عليها .. ولم تـفق إلاّ بعـد أن وقعت المصيبة .. !!

قـدمت لـه .. ولى سيجارة ، ثم أشعلتهما ، وأخـذت أنظر إلى شـفتـيه في لهـفـة .

ـ بعد أن اعـتـدى عـليها المجرمـون وسرقوا ما معها ، تركوها في طـريــق المـقـطم .. ليـلا . وجـدهـا أسـتــاذ جامعى مـلـقاة في الطـريـــق .. لا أتـذكـر اسمـه الآن . كانت معـه زوجتـه . حاول أن يكلمها .. فردت بصعوبة ، وطلبتْ منه أن يوصلها إلى البيت .

ـ وماذا بعد ؟

ـ حين وصلت وجدت أمها قـلقة تـتـرقّب .. ومعهابعض الجيران. شكرت الأستاذ وزوجته .. أعطاها رقم تليفونه ، وأخبرها أنه مستعد للشهادة ـ إن كان في الأمر شبهة جنائية .. لا يزال في الدنيا خير .

ـ لا يزال في الدنيا أيضا شر .. وفساد .. وظلم .

ـ نامت المسكينة دون أن تعى شيئا مما حولها .. في اليوم التالى حضر أبوها من أسوان ، ليحتفـل بعيد ميلاده ، فوجد المصيبة .. لا الكارثـة في انتظاره . كـلـما استردت الفتاة قدراً من الوعى ازدارت صراخا وعويلا . نـقـلها الوالـد إلى المستشفى بعد أن عجـز عـن فهم أىّ شـيء مـنـها .. ومعرفـة ما أصابها .

ـ ماذا قال الأطباء ؟

ـ بعـد ثـلاثـة أيام من العلاج النفسى والجسدى .. استعـادت الفتاة قدراً من الوعى .. لكنها لم تكن قادرة على أن تقـول كـلمة ..

مجرد بكاء صامت . ولا تريد أن ترى أحداً حتى والديها . حينما يدخلان عليها كانتْ تخفي وجهها تحت الملاءة ، وتبكي بحرقة وحرارة بشكل هيستيري متواصل .

- لماذا .. ؟

- الطبيب النفسي هو الذي استطاع أن يكتشف أبعاد المأساة .. الذئاب الأربعة اعتدوا عليها ..

- الذئاب .. أولاد الكلاب .. ماذا جرى للدنيا .. هل يمكن أن يحدث هذا .. في مصر ؟

- الذئاب .. اعتدوا عليها في عش خرب في صحراء المعادى .. تصور .. هالة الجميلة الرقيقة يحدث لها هذا ؟

- فظيع .. بشع .. الأوغاد ..

ضغطتُ على الكأس بقوة .. ولم أشعر إلاَّ والدماء تغطى يدى مع قطع الزجاج المتناثرة . أخذنى الرجل ناحية الحمام وغسل يدى .. ثم طهرها بالكولونيا.

أخيرا .. استطاع أن يوقف نزيف الدم من يدى ، لكن لم ير.. ولم يقدر على أن يوقف النزيف ، الذى يتساقط من قلبى المعذب .. آاااه .

قال الرجل مواسيا : كنت أظنك أقوى من هذا .

- ما حدث .. يزلزل الجبال .

- على كل .. يكفى هذا الليلة .

- أرجوك .. لابد أن أشرب الكأس حتى الثمالة .

- خذْ كأساً وانتظرنى ، حتى أخبرهم في البيت أننى لن أعود الليلة .

كل هذا الغدر حدث لك يا حبيبتي .. وأنا لا أعلم ؟! ليتنى ما سافرت إلى ليبيا . ما حدث أمر فظيع .. كارثة .. مصيبة .. !! ما حدث ليس هما فرديا .. وإنما عار يشوه سمعة جيل بأكمله .

عاد الرجل بعد قليل .. وأردف : بعد أن استردت هالة قدراً من الوعى ، استطاع الطبيب أن ينقل عنها أبعاد المأساة . السائق والشبان الذين ركبوا في منتصف الطريق .. يشكلون عصابة للسرقة والاغتصاب ، وقد حاول مفتش المباحث أن يأخذ بعض أوصاف السائق والعربة ... بعد محاولات مضنية مع هالة .

قلتُ مندهشًا : كيف .. ؟ !

قال لها المفتش : ما حدث ليس جريمة في حقك فحسب ، وإنما في حق المجتمع كله .. فتيات بريئات كثيرات مثلك .. ينتظرهن نفس المصير إذا لم تساعدينا .

بعد فترة طويلة من البحث والتحرى .. قبضوا على السائق.

ـ ماذا يعمل ؟

ـ طالب جامعى فاشل .. ومدمن مخدرات . وقد أرشد على بقية العصابة بعد الضرب والتعذيب .

ـ من هم ؟

ـ لن تصدق .. طالب جامعى فاشل أيضا ، وأبوه خبير اقتصادى يعمل في دولة خليجية . أخذ الأسرة معه ، وتركه هنا وحده للضياع والفساد .

ـ والثاني ؟

ـ ابن تاجر صعيدى كبير .. جاء ليدرس القانون ، لكنه صار خارجاً على القانون ، لأنه يأخذ مالاً كثيرا .. ولا توجد رعاية كافية.

ـ والثالث ؟

ـ ابن ضابط شرطة سابق .. يعمل رئيسا لمجلس مدينة . وهو شاب مدلل .. لكنه بلا رعاية ، لأن أباه تزوج غير أمه .

ـ ألا تلاحظ ؟

ـ ماذا ؟

ـ هذه نوعيات غريبة .. وجديدة من المجرمين .

ـ في مراحل سابقة كانت الناس تخرج على القانون لأنهم فقراء .. وجاهلون . أما هؤلاء المنحرفون الجدد .. فهم متعلمون .. ومعهم

فلوس .. وأولاد ناس .. لهم مكانة اجتماعية ، ويشغلون مناصب محترمة . يبدو أن .. المجتمع في مرحلة تحول خطيرة .

- هل قبضوا عليهم ؟

- قبضوا على السائق واثنين من الجناة .. وهرب ابن التاجر الصعيدى .

- هؤلاء الأنذال .. يجب أن يحاكموا محاكمة علنية ، ثم يشنقوا في ميدان التحرير.. وتبقى جثثهم مصلوبة أسبوعا كاملاً ، ليكونوا عبرة لغيرهم .

- وزير الداخلية نفسه مهتم بهذه القضية الخطيرة . الشرطة يد العدالة .. وينبغى أن تحقق الأمن لكل مواطن . مصر بلد الأمان والسلام .. وسوف تظل هكذا بإذن الله .

- مازلت متفائلا .. رغم كل هذا ؟

- بغير الأمل .. لا تمضى مسيرة الحياة .

لم أكن قادراً على تحمُّل المزيد .. لكن ينبغي أن أعرف كل شيء ..

- كيف .. كيف ماتت .. هذه الشهيدة ؟

- بعد أن تماثلتْ المسكينة للشفاء .. واستعادت قدرا من الهدوء مدة ثلاثة أيام .. اكتشف الطبيب أنها حامل ..

- غير معقول .. مستحيل .. فظيع .. فظيع ..

ـ هـذا مـا حـدث .. المسكينة كانت مخدرة .. الذئاب الأربعة اعتدوا عليها في وقت واحد .. كان لابد من إجراء عملية إجهاض .

ـ فظيع .. بشع .. لا أتصور . كيف تحمل الطهارة جرثومة عفنة من أى واحد من هؤلاء الأنذال القذرين ؟

ـ المسكينة كانت في منتهى الضعف والإعياء ، فماتتْ قبل أن تفيق من بنج عملية الإجهاض .

ـ لابد .. أن أفعل شيئا من أجلها .

ـ ادعُ الله .. واطلب لها الرحمة .

ـ والأنذال .. الذين اعتدوا عليها .. ؟!

ـ قلت لك .. وزير الداخلية نفسه مهتم بهذه القضية .

تحاملت على نفسى .. وركبت التاكسى . ذهبت إلى البيت . ارتميت على السرير دون أن أخلع ملابسي . شربت الخمر والمرّ في ليلة واحدة .. لا أدرى من أيهما سكرت .. سكرت .. تعبت .. فنمت .. وغبت عن الوجود .. جثة بلا روح .

لا أدرى كم مضى على من الوقت .. وأنا نائم .. !!

طرق شديد على الباب . قمت .. متثاقلا .

أحمد حلمى بعد أن دخل من باب الشقة ، قال وهو يغالب أحزانه :

ـ أمك ماتت ليلة أمس .. !!

٧ ـ شـرفـة الأمـل

فقدت جدتـي .. وحبيبتي .. وأمـي . ذهبت ـ دون وداع ـ كـل القـلوب التـي تنبض بحبي.. وتمنحني الثقة والأمل . عانيت كثيـرا من برودة الوحدة ومرارة الوحشة . عـوضني الله عن الحب بالصداقــة . أكثر الأصدقاء مواساة لي .. حمدي وأحمد وعطيات . أحمد كان في السنـة الأولى لزواجه .. ومع ذلك لم ينسني يومـا ، وشغـل بي إلى درجـة أثارت غيرة زوجته أحـيانا ، لكنـه قـال لها بأسـلوب قاطع : إذا لم أكن وفيا لحسن ، فلن أكون وفيًا لـك .. الوفـاء كل متـكامـل يا حبيبتي .

أحمد حلمي .. أحيل إلى التقاعد ، ولم يكن مشغولاً بأي عمل، لـذلك كنت أزوره كثيرا .. ويـزورني ، ويـبقى معي ساعـات طـويـلة إلى أن ألحّ عـليه في الـذهـاب إلي زوجـتـه وأطـفالـه .

مرت سنة كاملة .. وأنا ضيف الشرف على الغداء عند حمدي يوم الجمعة ، وأحمد يوم الاثنين من كل أسبوع . أما عطيات .. وما أدراك ما عطيات ، فإنها لم تعد تراني أخًا فحسب ، بل أحاطتْني برعاية شاملة كأني أحد أبنائها . كنت سعيداً برعايتي لها .. كما كانت سعيدة لوجودي بجوارها . الحب الأبيض يطهر العواطف ، وينقي المشاعر . أقصى غاية الحب .. أن تحب من غير أمل . الحب من غير أمل أسمى درجات الغرام . حب في الله .. ومن أجل الله . لكن من يقدر عليه .. ومن يطيقه ؟! تجربتي مع عطيات كانت من هذا الحب الأفلاطوني . يدعي البعض أنه غير موجود إلا في الشعر والروايات، لأنهم عاجزون عن فهمه وتحمل مكابداته . العجيب في هذه التجربة .. أن عطيات أصبحت القارئة الأولى التي تواظب على قراءة مقالاتي السياسية. وأحيانا تناقشني فيها ، وبدت حريصة على شراء الجريدة التي أكتب فيها - رغم أنها لم تفعل ذلك مع زوجها نفسه .

قالت ذات مرة : أود أن أشكرك .

- على أي شيء ؟

- فتحت عيني على القراءة .. القراءة تجعلنا نرى الحياة من خلال ضوء البصيرة .. دون حاجة إلى نور البصر .

- أصبحت فيلسوفة يا عطيات .

- أنت صاحب الفضل .. القراءة جعلتني أكسب خبرات جديدة، لم أكن أعرفها من قبل .

- العلم نور .

- أنـت مصباحي المنـير .

- لا تبالغي .. أنت سيدة فاضلة .

لم تمنحني عطيات زاداً معنويا فحسب، وإنما كثيراً ما أرسلت إلي أصنافا متنوعة من اللحم المحمر .. والسمك المشوي مع أسامة أو أميمة . أكثر من هذا .. حدثت زوجها بأنني أساعدها وأساعد الأولاد في كل ما يريدون ، لدرجـة أنه بعث إلي رسـالـة شكر .. بناء على رغبتها .

كذلك لا أقد ر على نسيان ما فعله الأستاذ مصطفى فودة من أجلي ، فقد سعى لنقلي إلى جريدة «الأمـة » . جاء بنفسه معي أول يوم ، وقدمني إلى الأستاذ أمين بدوي .. وأوصاه بي خيرا :

- حسن من أكفأ الصحفيين عندي في الجريد ة ، ولولا أن هذه رغبتـه ما فرطـت فيـه . إنـه ابني .. أنا واثق أنـه سوف يكون عند حسن ظني فيه .

علمت فيما بعد .. أنه فعل أكثر من هذا ، فقد طلب من الأستاذ أمين أن يرشحني للسفر - مندوبا عن الجريدة - في معظم المؤتمرات الخارجية ، حتى أنسى آلامي . وقد ساعدتني هذه الأسفار على التعرف على كثير من رجال السياسة العرب ، وكسبت خبرة صحفية وسياسية واسعة .. بعد سنة أصبحت المسئول الأول في الجريدة عن الشئون العربية .

بفضل هؤلاء الأصدقاء المخلصين .. تجاوزت المحنة التي كادت تعصف بحياتي بعد وفاة هالة . يغيب الجسم .. ويبقى الاسم . هالة ماتت بالجسد .. أما هالة الأمل فلن تموت . الرمز أبقى من المرموز ، والدلالة أقوى من المدلول . هالة يا حبيبتي .. لا أدري كيف كانت تسيرُ حياتي لو لم ألقك .. ؟!

في إطار دخان الحرب اللبنانية .. وقعت في سبتمبر ١٩٨٢. مأساة صابرا وشاتيلا . حوصر الفلسطينيون .. وقتل منهم المئات. اللبنانيون والفلسطينيون إخوة مثل كل العرب ، لكن بعض الكتائب الموالية للعدو الإسرائيلي .. انقضت عليهم . حين أتأ مل - أحيانا - بعض المذابح التي تعرض لها الفلسطينيون ، أحس أن .. من قتل منهم بأيدي بعض الأنظمة العربية ، لا يقل عدداً .. عمَّن قتل بأيدي الأعداء . استوى الماء .. والخشب . ولولا أن جيش منظمة التحرير وأبناء فلسطين خرجوا من لبنان إلى بعض بلاد المغرب العربي، لأبيد أكثرهم . لكن الله سلم .. !!

كنت أكتب مقالتي السياسية صباح كل سبت تحت عنوان "من نافذ ة العرب " .. وقد كتبت في هذه الفترة مقالة سياسية حادة بعنوان :

أيلول الأسود يعودُ من جديد

وقد أحدثت المقالـة صدى سياسيا واسعا، وجاء أحد أعضاء المنظمة إلى الجريـدة ، ونقل إلي إعجاب ياسر عرفـات نفسه بالمقالة وتحياته ، ودعوته لحضور اجتماع المنظمة القادم في تونـس .

* * *

شجعني الأستاذ مصطفى فودة على أن أخوض تجربة جديدة .. لم أفكر فيها من قبل . وقد ترددت فترة لعـدم خبرتي في التعامل مع الجماهير، لكنه وعدني بمساعدات كثيرة ، لم أعرف بعضها حتى اليوم. رشحت نفسي عضوا في نقابة الصحفيين . ورغم أن وجود المعارضة لم يكن أمرا مألوفا في مقاعد النقابة ، فإنى نجحت في الانتخابات. نجحت بالمصادفة ـ في تقديري ـ مع أن هناك كثيرين تقدموا للانتـخاب أكثر من مرة ، وأسماؤهم أكثر شهرة .. لكن لم يحالفهم الحظ مثلي . وقد منحتني عضوية النقابة إحساسا عاليا بالـذات .. وحرصا أكثر على الالتزام بشرف المهنة وضمير الكاتب .

وفـقـني اللـه وجمعت مبلغا من المال اسـتطعـت به أن أغـير سيّـارتي الفيات 128 إلى سـيارة فيات 132 . هذه العربـة المتواضعة عـزيزة علي .. لكن حماقـاتها كانت كثيرة في الفترة الأخيرة ، لذلك بعتها بالتقسيط المريح إلى سـميح عبد المسيـح .

بـدأت حياتي تستقر ، وأصبحت شخصية صحفية معروفـة .. في مصر والعالم العربي . كنـت أحس روح هالة تحوطني في كل خطوة أخطوها . خرجت ذات يوم مع عطيات وأطفالها الثلاثة إلى حديقة

الأسماك بالزمالك . أخذ الأولاد يلعبون ، بينما جلست أنا وعطيات على مقعد من مقاعد الحديقة .

- ما أخبار أشرف ؟

- يفكر في الاستقالة .

- لماذا ؟

- معروض عليه منصب كبير .. ومرتب مغر .

- هل وافقت ؟

- لم يأخذ رأيي في المرة الأولى .. ولا أتوقع أن يستشيرني في الثانية .

- لكن أنت .. والأولاد ؟!

- الإنسان إذا جعل المال هدفه الأول.. نسي كل شيء من أجله .. !

- من يطيق ماتطيقين يا أختي .. ؟!

ـ العادة تجعل الحياة تسير بالدفع الذاتي .. الأولاد الآن كل حياتي .. أنا الأم والأب . تعودت على الحياة دونه سنوات طويلة .

- ربنا يقويك ويصبرك .

- دائما تنسيني ما أرغب في أن أحدثك عنه .

- التعليق على المقالة الأخيرة .

- لا .. يا أخي . التعليق على حياتك الماسخة .

- كيف ؟

- ألا تنوي أن تتزوج ؟

- قلت الإجابة منذ لحظة .

- وهي ؟

- العادة .. تجعلنا نقبل أشياء كثيرة .. ونرضى عنها..!!

جاءت أميمة وطلبت سندوتشا وتفاحة ، ثم جاء إسلام يطلب علبة عصير . أعطته واحدة له وأخرى لأخيه .

- الإنسان يتزوج يا حسن من أجل المستقبل . حين تعجز .. أو تمرض ـ لاسمح الله ـ لابد أن يكون بجوارك أحد يرعاك .. ويؤنس وحدتك .

- لن أكون عجوزا في أي يوم .. سأظل شابا طول العمر .

- اسمع نصيحة أختك .

- أنا سعيد بحياتي .. ولا أتمنى أن أغيّر أي شيء فيها .

* * *

مضت سنوات الثمانينيات بطيئة ثقيلة . الحرب الأهلية في لبنان لم تنته .. ولم تتوقف .. وبدأ القطاع الجنوبي يخضع لسيطرة

إسرائيل . وإذا كانت الحرب في لبنان غريبة .. وعجيبة ، فأغرب منها وأعجب .. الحرب الضارية المشتعلة بين العراق وإيران . توهم النظام العراقي أن الثورة الإيرانية مشغولة بحرب أهلية بين آيات الله .. الذين تصارعوا على السلطة ، فحاول أن يسترد ـ كما يدعي ـ بعض المناطق التي استولت عليها إيران في منطقة شط العرب الجنوبية . لكن النظام العراقي ـ دون أن يعي أو يعرف .. وحد الفصائل الإيرانية المتنازعة ، وأنساهم الخلافات الداخلية من أجل الحرب المشتعلة نارا تتلظى على الحدود . حروب شيطانية .. ومعارك خاسرة ، يحارب فيها العرب والمسلمون بعضهم بعضا .. ويقتلون أنفسهم بأيديهم . ثمة أصابع أجنبية .. تشعل نار الفتنة ، وتثير العداوة بين الإخوة .. وأبناء العمّ .

مجلس الأمن .. سعيد بهذه المعارك .. وتلك المهالك . الأمم المتحدة تصدر بياناتها التقليدية بشجب العدوان ومناشدة المتحاربين ضرورة ضبط النفس . جامعة الدول العربية – التي انتقلت إلى تونس بعد قرار مقاطعة مصر سنة ١٩٧٩ – صارت مشلولة وعاجزة . كتبت الفرقة والخسارة علينا .. وعلى الأعداء التحالف والثروة . شلت إرادتنا .. ضاعت وحدتنا .. نهبت ثرواتنا . صدقت يا رسول الله .. لم نحفظ سنتك .. ولم نتذكر أقوالك ...

« توشك أن تتداعى عليكم الأمم ، كما تتداعى الأكلة على قصعتها .

قالوا : أمن قلـة نحـن يا رسول اللـه .. ؟

قـال : لا .. ولكن كثير كغثـاء السيـل . وليـنـزعـنّ اللـه من قلوب عدوكم المهابـة ، ويضعُ في قلوبكم الوهن . ويضعنّ

قالوا : ومـا الوهـن .. يا رسـول اللـه : ؟

قـال : حـب الدنيا .. وكراهـية المـوت .. !! »

صدقـت يا رسول الله أصبحنا .. نُحبُّ الدنيا ، ونـكره المـوت في سبيـل اللـه . المسلمون لـن يتقدموا إلا إذا استجابوا لدعـوة الله ، واعتصموا بالعروة الوثـقى ، التي توحد شمل المسلمين ، وتجعل منهم خـير أمـة .

كتبت في هذه الفترة عدة مقالات .. أدعـو فيـها إلى ضرورة التـصالح بـين البلاد العـربيـة .. وأهميّـة عـودة الجامعة إلى القـاهرة. أومن أنه .. لا عروبـة بلا مـصر .. ولا مـصر بلا عـروبـة . حدثت مآس قومية كثـيرة في هذه المرحلة ، لأن الـدور المصري كـان مغيبا .. أو مبعدا . وقد كتبت في هذه المرحلة عدة مقالات أدعو فيها إلى ضرورة التوحد والتصالح ، أذكر منها مقـالـة بعنـوان :

متى يتصالـح الإخـوة الأعـداء .. ؟!

* * *

في الحادية عشرة مساء .. عدت من النـقابة بعد يوم مرهق. دق جرس التـلـيـفون وأنا أخلع ملابسي . أمسكت السـماعة : مسـاء النور .. من .. ؟

- حاول أن تتذكر ؟؟

- أدهم .. حمدا لله على سلامتك .

- أدهم من يا رجل .. ؟ أنا أشرف مجدي .

- حمدا لله على السلامة .. متى وصلت ؟

- اليوم عصرا .. وقد طلبتك أكثر من مرة .

- خيرا .

- عطيات والأولاد .. مصرون على أن تتغدى معنا .

- ليس المهم هو الغداء .. المهم أن نطمئن عليك .

- كله مع بعضه .. الصحفي رجل عملي .

- موافق بشرط .. أن يكون اللقاء على العشاء . عندي شغل كثير ، لا أظن أني سأتمكن من الحضور إلى البيت ظهرا.

- موافق .. بالمناسبة وحشتني كثيراً يا حسن .

- وأنت أيضاً .. إلى اللقاء مساء .

أكملت خلع ملابسي ، وأنا أفكر في أشرف وأسرته . لاداعي للقلق .. غدا نتكلم في كل شيء . تمنيت أن أسمع صوت عطيات . لكن هذا ليس من حقي . عندما تكون في مصر افعل ما يفعله المصريون . العقل زينة .. والاحتياط واجب . إذا كنت أحب عطيات حبا أخويا ، فينبغي أن أحافظ عليها ، وعلى مشاعر زوجها. ودعت

الحب من زمان .. نسيت أن لي قلبا، لأنه لا يتسع لغير هالة .
كنت أنوي أن أكتب مقالا عن :

الديموقراطية .. مفتاح التضامن العربي

أحسست أني مرهق بدرجة ، لا أستطيع فيها أن أنسق أفكاري حول هذه القضية الخطيرة - قضية الديموقراطية ، التي لو تحققت لتحقق الوفاق العربي . ارتميت على السرير ، لكن الفكرة ظلت تلح على خاطري . الحرية ألف باء العمل السياسي والتقدم الاجتماعي . إلى أي حد تتحقق الديموقراطية في الأقطار العربية ، وهل غيابها يعود إلى أزمة نظرية وفكر.. أم أنها أزمة واقع وممارسة .. ؟ !

الديموقراطية .. هي التي تجعل الجماهير تطالب بالوحدة والتضامن وتحرص عليهما ، لأن ذلك سوف يكون تعبيرا عن إرادة شعبية . جربنا وحدة الحكومات ، لكنها تنتفي عند هبوب الريح . متى نشكل وحدة حقيقة ، تصمد لكل التحديات ؟ العالم كله يتجه نحو التحالفات والتجمعات الكبيرة ، ولا مكان فيه لأي كيان صغير . الحيتان .. وسمك القرش .. تبتلع كل الأسماك الصغيرة في البحار البيضاء .. والحمراء .. والسوداء .. !!

في الظلام بحثت عن الوسادة الخالية ، ضممتها إلى صدري، واستسلمتُ لنوم عميق ... !!

٨ . أحـزانُ الصّباح

حـائـرا .. بائـرا .. عدتُ من القرية .. يومَ ذهبتُ أعـزّي في أمي . المرحـومة كانت ترغب في أن تراني .. لكن هـالـة شغـلتني عن أمي .. !! مـاتتْ كل القـلوب التي أحبتني .. لا أدري على من أبـكي منهنّ .. ؟! في الحقيقة .. الذي يستحق البكاء والرثاء هو أنا .

قال أحمد حلمي ونحن ندخل الدار : حاول أن تتماسك من أجل إخوتـك .

قـابـلني زوج أمـي بحنان أبـويّ .. ليتني كنت ابنًا لـهذا الرجل الطـيـب . حـيـن احتـضـنْتُـه أخذ يـبكي .. وأنـا أبـكي . لا أدري .. من منّا ينـبغي أن يُعـزّى الآخـر .. ؟!

شـدّني أحـمـد ، حتى يضـع نهـايـة لهذا الموقف الحزين قـائـلاً : سلم عـلى إخـوتـك .

أنجبتْ أمي من الحاج على النجار ثلاث بنات : خديجة وعائشة وفاطمة ، وصبيا صغيرا اسمه صبرى . أحسست نحوهم بحنان أكثر .. مما أحسّه نحو أبناء أبي - رغم أن علاقتي بهم محدودة. سلمت عليهم بمودة بالغة ، وجلسنا جميعا نُغالب الأحزان ، روح المرحومة تشعّ على المكان أمناً .. وسلاماً . أول مرة .. أشعر شعوراً حقيقياً أني قصّرتُ في حق أمي .

جاء صبري وجلس بجواري ، حاول أن يحتضنني ، فلم تساعده يداه الصغيرتان . أجلسته على رجلي بعد أن قبلته . وضع يده على كتفي .. وسأل في سذاجة : لماذا لا تزورنا ياعمي حسن .. ماما كانت تقول .. ستصير ولداً عظيماً مثل الأستاذ حسن .

أجبتُ وأنا أغالب أحْزاني : أنا أخوك يا حبيبي .. ولست عمك.

قال الحاج وهو يجفف دموعه : حسن يا ابني .

- نعم يا حاج علي .

- إخوتك أمانة في عنقك .. لا أطلب منك شيئاً الآن .. إذا متُّ .. فكن أباهم وأخاهم .

ردّ أحمد : الله يطول عمرك يا حاج علي .. يا رجل استغفر الله .

لا أدري من الذي عرّف خليل أني موجود ، فجاء ليعزّيني ..

همس خليل في أذني : خيرية وفكري يريدان رؤيتك ، وأبوك يرجو أن تتغدّى معنا .. أنت والحاج أحمد .

لم أقل شيئاً .. فقد كنت حزيناً من أجل إخوتي لأمي . فتاتان في سنّ الزواج .. وفاطمة تلميذة في الثانوي .. وصبري في المرحلة الابتدائية . تركت أمي عبئاً ثقيلاً ، ينبغي أن أشارك الحاج علي في حمله ، حتى أعوّض تقصيري في حقها .

من فضل الله .. أن أحمد صحبني في هذه الرحلة التعسة ، فقد ساعدني في كثير من المواقف ـ خاصة عندما ذهبنا لزيارة قبر أمي .. وهو أيضا قبر جدّتي نفيسة .

قال وهو يودّ عني أمام البيت .. في الدُّقي ، وأنا أغادر سيارته :

ـ شدّ حيلك .. يا أخي .

قادتني رجلاي المتعبتان إلى السلم . حين وصلت إلى الدور الثالث ـ على غير العادة ـ لم أر أحداً من أولاد عطيات . ليس هذا وقت الزيارة ، وإنما موعد معالجة الهموم والآلام .

دخلت الشقة .. لم أرغب في أن أضيء النور . دون أن أخلع ملابسي ارتميت متهالكاً على السرير . لكن النوم .. لا يزور التعساء .. !

دقّ جرس التليفون أكثر من مرة .. يبدو أن الطالبة هي عطيات،

حتى لو كانت هي أو .. غيرها، فإني غير قادر على أن أسمع شيئاً ، أو أقول شيئاً .

* * *

ذهبت في المساء لزيارة أشرف .. الذي حضر لقضاء إجازته السنوية . كان اللقاء حاراً بعد غياب عشرة شهور . أخذنا نثرثر في بعض قضايا الصحافة والنقابة والسياسة . قال أشرف :

ـ أمران لم أكن أتوقعهما منك .

ـ هما ؟

ـ العمل في جريدة معارضة .. ودخول مجلس إدارة النقابة ؟

ـ لماذا ؟

ـ أنت رجل طيب .. هادئ الطباع .. نقى القلب .

ـ من قال إن المعارضة تحتاج إلى إنسان مخادع أو مشاكس. نحن لا نفهم المعارضة .. فهماً جيداً في عالمنا العربي .

ـ كيف ؟

ـ بحجة أن من ليس معنا فهو علينا . المعارضة في بلادنا تقوم بعبء سياسي مضاعف ، فهى لا تحاول أن تستفيد .. أوتستغل كثيرا من الهبات السخية التى تمنحها الحكومة لمن ترضى عنه . كما أنها تنقد بأسلوب جرىء وموضوعى كل ما لا ترضي عنه .. سواء من الحكومة أو الحاكم . وهذا يتطلب من الجماعات المعارضة أن تكون في

منتهي الاستقامة والحذر ، حتي لا تقذف الآخرين بالأحجار ، وبيوتها من زجاج .

طلعت عطيات مشرقة كالعادة ، تلبس فستانا أحمر ورديا .. به نقوش زرقاء صغيرة . سلمت عليّ ، وقالت :

ـ العشاء جاهز .. تفضلوا .

جلست عطيات على رأس المائدة .. أشرف على اليمين ، وأنا على اليسار . أصرت أميمة أن تجلس بجوارى . قالت وهي تضع الفوطة على صدرها :

ـ بابا .. أنا أحب .. عمو حسن .

ردّ قائلا : كلنا نحب عمو حسن .. يا حبيبتى .

أكلت بشهية مفتوحة .. الطعام من يد عطيات له نكهة متميزة، حتى المخللات لها مذاق خاص .. ولاسيما الباذنجان . كل ما على المائدة من صنع يديها . تمنيت أن تكون لى زوجة مثلها . لو كانت لها أخت لتزوجتها . كنت سعيداً في أعماقي ، لأني استطعت أن أحافظ على مسيرة هذه الأسرة الطيبة . أشعر أننى واحد من أفرادها. أيقظتنى عطيات ، وهى تضع في طبقي .. صدر دجاجة : تشرد كثيرا ، ولا تأكل .

ـ سلمت يداك .. أكلك لا يحتاج إلى عزومة ، وإنما إلى عزيمة .. أنت طباخة عشرة نجوم .

قال إسلام الصغير : أنا أخذت عشرة على عشرة .. في الحساب.

قلتُ مبتسماً : وماما تأخذ عشرة على عشرة في الطبيخ .

بعد العشاء .. والفاكهة والبسْبوسة .. ذهب الأولاد إلى حجرتهم، ثم جاءت عطيات بالشاى .

قلت : أشكرك على هذه الوجبة الاستراتيجية يا مدام .

ردّ أشرف : المدام لا تفهم في الاستراتيجية .. ولا في التكتيك ، طول عمرها لا تطيق الكلام في السياسة .

ردت قائلة : كان هذا عندما كنت صغيرة .. صرتُ أقرأ كثيرا ، وأتابع مقالات الأستاذ حسن .. في جريدة الأمة .

- تقرئين صحف المعارضة .. يا عطيات ؟! لم تكونى تقرئين سوى أخبار النجوم والتليفزيون .

خرج أشرف .. وبقيت وحدى مع عطيات . لم تتكلم .. ولم أتكلم .. العيون في مواقف كثيرة ، تكون لغتها أكثر بلاغة من لغة اللسان . الحب حالة شوق متأجج ، وأصعب درجاته .. أن تحب امرأة متزوجة . لماذا حكمت عليَّ بهذا الحب المستحيل يا قلبى .. ؟! عاد أشرف يحمل بعض الهدايا في شنطة بلاستك . وضعها بجوارى قائلا: هدية بسيطة .

ـ نحن إخوة .. ليست بيننا هذه المجاملات الشكلية .

ـ لذلك أرجو أن تقبلها دون تعليق .

ـ أفضال الأستاذ حسن في غيابك يا أشرف .. لا تعد .. ولا تقدر .. علقت عطيات ، وهي تنظر إلى مبتسمة بسْمةً رقيقة .

ـ أنت مستريح من العمل في السعودية ؟

ـ غاية الراحة .. يكفي أننى قريب من الأماكن المقدسة .. في مكة والمدينة .

ـ معنى هذا أنك لاتفكر في قطع الإعارة .

ـ لا .. أفكر في الاستقالة .

صاحت عطيات : تتركنى هنا وحدى ..؟ تعبت من المسئولية . الأولاد كبروا .. لم أعد أقدر على التحمُّل .. !

ـ أنت زوجة عظيمة يا حبيبتى ، لقد تحملت سنوات طويلة .. ويمكن أن تتحملى أكثر .. من أجل مستقبل أولادنا .

ـ أولادنا في حاجة إليك .. وليس إلى المال .

ـ المال والبنون زينة الحياة الدنيا .. يا زوجتى العزيزة .

ـ أهلك علموك .. وتركوك تشق مستقبلك . لماذا لا تعمل هذا مع أولادك ؟

ـ الزمان اختلف .. إذا استطاع الإنسان أن يترك أولاده أغنياء ، فإن هذا أفضل من أن يتركهم فقراء .

- لا فائدة من الكلام معك.. لماذا لا تحكم بيننا يا أستاذ حسن؟

- هذه مسألة أسرية .. ما كان ينبغى أن أحضرها .

- على كل .. أنت صديق عزيز .. وواحد من الأسرة .

قالت عطيات وقد انتقلت لتجلس بالقرب منى : قبل أن تكون صحفيا .. أنت محام .

- ياه .. ذكرتنى بما نسيته .

- الإنسان لا ينسى ماضيه .. علق أشرف .

- دافع من أجلى في هذه القضية .. يا أستاذ حسن .

- هذه القضية قضية خاصة .. وإذا كنت تريدين أن أدافع عنك .. فإن هذا يحتاج إلى فرصة أخرى . والآن ترفع الجلسة .. لاستيفاء البيانات والمعلومات .. تصبحون على خير .

حين ذهبت إلى شقتى .. أحسستُ أننى خذلتُ عطيات . حمدت الله أننى لم أتكلم .. هذه مشكلة عائلية خاصة ، وعلى الشريكين أن يتفاهما فيها معا - دون تدخل من أحد .

لم أجد لدى رغبة في النوم . الذى ينسينى معظم المشاغل والمشاكل هو قراءة الأدب ، لدرجة أننى أفكر جيداً في كتابة القصة والرواية . أمسكت كتاب «الإمتاع والمؤانسة » لأبي حيان التوحيدى ، فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة الذى عاش حياة فقيرة ، ولازمه البؤس حيا وميتا ، ويقال إنه أحرق بعض كتبه ، لأنه لم يلق ما

يستحق من تقدير عند أهل زمانه . ميزة هذا الكتاب أن موضوعاته متنوعة ، لاتخضع لترتيب أو تبويب ، وإنما تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث ، لذلك تجد فيه قضايا أدبية وفلسفية وعلمية ، وبعض قضايا جادة وأخرى هازلة . ولا عجب في هذا .. فقد كان الكثيرون يرون أن الأدب .. هو الأخذ من كل شيء بطرف . تذكرت عبد الله عاشور الذى ترك تعليم الفلسفة ، واستجاب لهواية الأدب . يبدو أننى قريبا سوف أتبعه ... !!

* * *

دخل على - فى مكتبى بالجريدة - قبيل ظهر يوم أحد .. رجل غريب غامض ، يلبس بدلة رمادية اللون . صافحنى بابتسامة متكلفة :

- أستاذ حسن الشاعر ؟

- نعم .

- أنا سعيد بلقائك .. وقد جئت اليوم خصيصا ، لكى أتعرف عليك .

- أهلا وسهلا .. تفضل . مادمتَ تعرفنى ، فمن حقى أيضا أن أتعرف على سيادتك .

- كرم خليل .. واحد من القراء .. المعجبين بما تكتب .

الرجل صاحب ملامح متجهّمة . وراء هذا الحضور فيما يبدو سر

.. ماهو ؟ هذا الرجل مسلم أم مسيحى ؟ ليست ديانته الآن هى القضية .. وإنما المهمة التى جاء يتعرف عليّ من أجلها .

- هل تقرأ مقالاتى ؟

- أقرأ كل ما تكتب ، لأني مهتم كثيراً .. بقضايا السياسة .

- بالمناسبة .. ماذا تعمل يا أستاذ كرم ؟

- مواطن عادى .

شعرتُ بضيق .. لا أعرف له مصدرا . الشعور الصادق يشكل الحاسة السادسة لدى كل إنسان .. خاصة في المواقف الحرجة التى تحتاج إلى قدر عالٍ من الفراسة وحسن التصرف .

قلت حتى أنهى المقابلة : هناك خدمة .. يمكن أن أؤد يها ؟

- نعم .. السيد مساعد الوزير يريد أن تشرب معه فنجان قهوة.

- أيّ وزير ؟

- وزير الداخلية .

- لماذا ؟

- يريد أن يتعرف عليك .

- لكنى مشغول هذه الأيام .

- سأترك أرقام تليفوناته .. اتصلْ به ، وحدد الوقت الذي يناسبك . لكن .. أرجو ألاّ تتأ خر .

- سأحاول .

تركنى الرجل الغامض ومضى . آه .. فهمت ، إنه ضابط مخابرات . كيف غابت عنى طبيعة هذا النمط من الرجال ؟! قلبى يحدثنى أن في الأمر سراً .. سراً غامضاً .. ماهو .. ؟!

هناك تراث أسود مرير .. بين أجهزة الشرطة والمواطن العربى . تغيرت الأحوال ، وتحسنت المعاملات ، وصارت الشرطة ـ كما يقولون ـ في خدمة الشعب ، لكن البعض لايزال يعتقد أن هذه الوزارة ينطبق عليها المثل القائل : «الداخل مفقود ، والخارج مولود » . أخذت أراجع تصرفاتى وكتاباتى لعلى أجد مبررا لهذه الدعوة المفاجئة من السيد مساعد الوزير . لم أتذكر شيئا محددا ، لكن الإحساس بالضيق لم يبعد عن مخيلتى .

من يخرجنى من هذه الورطة .. ؟! لا أحد أفضل من الأستاذ مصطفى فودة. اتصلت به على الفور بالتليفون. طلبت أن يحدد موعداً للقائه اليوم، لأني أريد أخذ رأيه في موضوع لا يحتمل التأخير.

* * *

خفق قلبى حين دخلت مبنى الجريدة . عاودتنى بعض الخواطر والأشجان القديمة . هنا أطلال ذكريات.. وأطلال حب .. وأطلال حبيبة. لكن القلب لم يعد قادرا على تحمل مثل تلك الشجون ، فقد ذاب من كثرة الهموم والأحزان .

ـ أهلاً ياحسن .. شغلتنى .

أخذت أحكى ما حدث بالتفصيل .. وأبديت بعض مخاوفى من

هذه الدعوة المفاجئة . حين انتهيتُ من كلامي ، أطلق الرجل ضحكة مجلجلة :

ـ لن تتغير يا حسن .. الطفل الكبير في أعماقك هو الذي يحركك في المواقف الحرجة ؟

ـ هذا مدح .. أم ذم ؟

ـ هذه حقيقة .. عندك قدر هائل من البراءة ، يجعلك أحيانا ترى الحبة قبة .

ـ لست في حاجة إلى تحليل نفسى .. وإنما إلى نصيحة صديق مخلص .

ـ لا أدرى .. لماذا يخاف بعض الناس من التعامل مع أجهزة الداخلية ؟ وزارة الداخلية مثل وزارة التعليم والصحة والشئون الاجتماعية.. وغيرها ، وهى مسئولة عن أمن الناس وتأمين المؤسسات. ويجب أن نتعاون معها من أجل المحافظة على الوطن .. والمواطن .

ـ لكنىّ متردد ..

ـ لا تتردد في أىّ موقف .. طالما أن عقلك معك .

حين بدأت أفكر في الخروج ، رأيت الرجل يقف فجأة .. ويجرى ناحية باب المكتب ، معانقاً القادم بحرارة شديدة . عندما تأملته أنا أيضا كنت جالسا فوقفت . أمسك مصطفى يد الضيف بمودة قائلا : المهندس العظيم محمد توفيق .. الأستاذ حسن الشاعر صحفى وصديق.

كان ينبغى أن أضع يدي في يده لأعقد زواج هالة ، فكيف أضع يدى الآن .. دون عقد .. ودون هالة ؟! ترددت .. ترددتُ لحظة وأنا أهم بمصافحته . دون وعي .. أخذت أعانقه بحرارة . كل منا .. صاحب جسد نحيل وقامة متوسطة . كنت سعيداً ، لأني أضم إنسانا يذكرني بهالة حبيبتى . كدت أبكى .. لكنى تماسكت .. أول مرة أكون فيها قادراً على التحكم في مشاعرى الحزينة .

قال الرجل دهشاً بعد أن أحسّ صدق مشاعرى : هل التقينا من قبل يا أستاذ حسن ؟

خشيت أن أقول إننى أعرف عنه كل شيء .. وأننا التقينا مرة واحد ة ، لكنى خشيت أن أعيد فتح جروح ، لا أظن أنها قد شفيت .

ـ لا يوجد أحد في مصر .. لا يعرف المهندس العظيم محمد توفيق .

أضاف مصطفى فودة : هذا الإنسان هو الوحيد في كل من أعرف من رجال هذا العصر ، الذي عرضت عليه الوزارة فأ بى .. هل تصد ق ؟!

ـ سمعت عن المهندس محمد توفيق كثيراً .. وكنت أتمنى أن أتعرف عليه .

ـ شرفنى في أيّ وقت .. كل من يأتي من طرف الأستاذ مصطفى عزيز مثله .

قال مصطفى مبتسماً في دهاء : إذا قابلك الأستاذ حسن ، فلا تنس أنه أحد كتاب المعارضة .

- لم أتابع الصحف منذ فترة طويلة .. لكنى سأحاول متابعة ما يكتب .

- شرف عظيم .. أن أكسب قارئاً مثقفاً مثلك .

سأل مصطفى وهو يقترب منه : متى جئت من أسوان ؟

- منذ يومين .. ذهبت اليوم إلى الوزارة . لأقدم استقالتى .

قلت بلهفة : خيرا .. لماذا ؟

- ظروف خاصة .. تحتم أن أكون بجوار الأسرة في القاهرة .

ما الظروف التى جعلت ذلك الرجل الحزين يفكر في الاستقالة ..؟ وهل هي تتعلق به .. أو بأم هالة .. أو بالأولاد .. ؟! لقد عرفت ابنته العزيزة مدة شهرين .. وأحببتها كل هذا الحب .. وحزنت عليها كل ذلك الحزن . فما بالك بأبويها وإخوتها ، الذين عاشروها عشرين سنة .؟!

اختلست نظرة نحوه ، فأحسست بمدى ما يعانى من الضعف الجسدي والانكسار النفسي . لا يعرف عنى شيئا .. وأعرف عنه كل شيء . لا أقدر أن أقول له شيئا .. أو أسأله عن أي شيء . يكفى أننى تعرفت عليه الآن .. والمستقبل رهن با لظروف .

حين استأذنت فجأة ، شعرت أن الأستاذ مصطفى لا يمانع .. وربما كان سعيدا بما فعلت . صافحت كلاً منهما بحرارة .. والذكريات الحزينة .. تهب علي من الجهات الأربع .. !!

عند خروجي قابلت ربيع .. فسلمت عليه . قال معاتباً :

ـ تأتى إلى هنا .. ولا تسأل عنّي ؟

ـ كنت أبحث عنك عندما قابلتنى .

وضعت في جيبه ورقة بعشرة جنيهات : سلم على أولادك . سوف أزورك قريبا .

ـ هنا أم في البيت .. يا أستاذ حسن ؟

ـ سنتفق على هذا قريبا بإذن الله .

ـ مع السلامة ...

تمنيت أن أمرّ على الدكتور حمدى .. أو الحاج أحمد ، لكنى لم أكن في حالة مزاجية تسمح بذلك . انفرط عقد الشلة .. وتاه كل منا في مشاكله الخاصة ، حتى عبد الله عاشور ذهب ولم يعد .. تذكرت هذا الجزء من أغنية أم كلثوم :

وعايزنا نرجعْ زيّ زمان   قلْ للزمان ارجعْ يا زمان
وهاتِ لى قلبْ لا داب ولاحبّ   ولا انجرحْ ولا شاف حرمان

خرجت شارداً .. أبحث عن المكان .. الذي وضعت فيه سيارتي ... !!!

٩ ـ انشودة الشوق

وصلت ـ بصعوبة ـ إلى مكتب سكرتير السيد مساعد وزير الداخلية . عرّفته باسمي ومهنتي ، ثم قلت : أريد مقابلة .

أجاب ببرود : هل يمكن أن أعرف السبب ؟

لو كان القلب خاليا لضحكت : بصراحة .. لا أعرف .

– انتظر لحظة من فضلك .

خرج متثاقلا .. وعاد مسرعا يردد : تفضل .. آسف على التأخير .. تفضل .. سيادة اللواء في انتظارك .

حجرة واسعة مكيفة منسقة الأثاث .. رجل هادئ الملامح ، طويل نحيل ، يفرقُ شعره ، ويلبس بدلة سوداء . وقف مرحبا : أهلا .. أهلا بك يا أستاذ حسن .

سلمت عليه .. طلب أن نجلس متجاورين في أحد أركان الحجرة، ليوحي أن المقابلة غير رسمية .

- ماذا تشرب ؟

- قهوة سادة .

- هذا مشروبي المفضل .

أخذ يتكلم معي في موضوعات متشعبة حول الصحافة والفكر .. ودور الصحافة في خدمة الوطن .. والأمن القومي . كأني أسمع هذه الكلمة لأول مرة « الأمن القومي » . بدأت - فيما أتصور - أقترب من الموضوع الذي طلبني من أجله اللواء محمود عمران . أردت أن أريحه من المقدمة التقليدية :

- سيادة اللواء .. أعرف أنك مشغول جدا ، لا أريد أن أعطلك .

- أنا معجب بمقالاتك ، وكنت أود أن أتعرف عليك منذ مدة .

- أرجو أن تكون راضيا عنها .. وعني .

- أستاذ حسن .. أنت كاتب كبير، وأحد نجوم جريدة الأمة .. لكن لي رجاء ..

- هو .. ؟

- أنت تعمل في صحيفة معارضة بحس قومي مخلص ، ومسئولية أخلاقية ملتزمة . لا تهوى الإثارة .. ولا تكتب إلا عن يقين واقتناع .

- أشكرك .

- هذه حقيقة .. شيء مهم استطعت أن تحققه - أيضا - وهو ثقة كثير من رجال الصحافة والسياسة ، الذين يمثلون المعارضة في الوطن العربي . ويلتقون بك في الجريد ة .. ويزورونك في البيت وتزورهم . وأحيانا تسافر لحضور بعض مؤتمراتهم واجتماعاتهم ..

- هذا جزءٌ من صميم عملي .

- من قال غير ذلك ؟

- المطلوب .. ؟

- تعرف أن حكومتنا الرشيدة تشجع المعارضة .. والسيد الرئيس نفسه يؤكد أنه .. لا ديموقراطية بلا معارضة .

- أعرف ذلك جيدا .

- نريد أن نكون أصدقاء .. يا أستاذ حسن .

- كيف ؟

- نحن لا نتدخل في آرائك ولا في علاقاتك ، وإنما نود أن تبلغنا ببعض المعلومات التي تشعر أنها ضرورية .. وأن تدلنا على بعض الأشخاص غير المرغوب فيهم .. من وجهة نظرك ، وبصفة شخصية .. بيني وبينك مباشرة .

- آه .. فهمت .

- لا تذهب بفكرك بعيدا . إذا أردت أن تتعاون معنا .. فهذا

أمر يسعدني أنا شخصيا ، وإذا لم تر ضرورة لذلك ، فسوف نحترم رأيك . أود أن أخبرك بأمر .. يقوي الثقة بيننا .

- ماهو .. ؟

- قبضنا على المجرمين الذين اعتدوا على .. هالة توفيق ، وهم الآن جميعا في السجن .

انتفضت كالملدوغ : صحيح هذا الخبر ؟

- أنا رجل مسئول .. أعي تماما معني ما أقول .

فرحت في أعماقي .. فرحا شديدا حين علمت أن الذئاب التي اعتدت على هالة لم تفلت من العقاب . قلت بعد فترة صمت : أنا سعيد بهذه المقابلة .

- أرجو أن تكون بداية صداقة وتعاون .

- دعني أفكر .

خرجت من ديوان الوزارة .. لا أدري ماذا أفعل ؟ فجأة ألحت على فكري خاطرة غريبة . لم أذهب إلى كازينو قصر النيل منذ زرته مع هالة . قررت أن أذهب إلى هناك . لماذا .. لست أدري .. ولا أريد أن أدري . وجدت المكان الذي قعدنا فيه خاليا . جلست وحيدا .. وأخذت أتأمل المياه الساكنة في ضوء الظهيرة . جاء الجرسون فقلت له على الفور : عصير ليمون .. !!

* * *

قلبي يحدثني أنني في منعطف طريق
إما أن يصعد نجمي ..أو يخفق .
يا قمري الأوحد .. يا حلما تبدد
البشر في الثلاثين أو الأربعين
يحققون ما يرغبون
لكني جاوزت الأربعين
واقتربت من الخمسين
ولا زلت أحس أني وحيد
في البيداء شريد .

* * *

يا قمرا يبدو
قد طال الوجدُ
وتباعد الركب .. وضاع الحب .
زملاتى وصلوا إلى نهاية الدرب
وأنا أبحث عن أوله .

* * *

يراني الناس في النهار عملاقا
وفي الليل أبحث عنك مشتاقا
يعصرني الهم قلبا وأحداقا
يزداد حنيني إليك اشتياقا .

الحب يا أملي .. صنو إيماني
بصيرة عرفاني .. وقنديل أحزاني
لكني أمضي .. منفيا عن الأوطان
لم أدرك نصفي الثاني.. !

* * *

يا روح روحي .. أنا الغريق
أبحث عن رفيق
يدلني على الطريق
لأرى ذيّاك البريق .
يا مالكا قلبي ..
أحلامي منك وإليك
خذني إليك ..
المحب قد هلك
يا ملك .. ما أجملك
أنا في الطريق .. يا ملك
يا ملك .. خذني إليك
خذني إليك .. يا ملك .. !

* * *

دارت كثير من الخواطر الحزينة في مخيلتي طوال الليل . كنت أفكر في العرض الذي قدمه اللواء محمود عمران .. وفي الذئاب التي اغتصبت هالة .. وفي عطيات وأشرف .. وفي السفر إلى العراق بناء على دعوة من الملحق الصحفي لمشاهدة آثار المعركة على الطبيعة بينهم وبين إيران .. وفي كتابة مقالة عن الانتفاضة الفلسطينية .. وفي حمدي .. وأحمد .. و .... و... أخيرا أطفأت الضوء . لا شئ يريحنا من الهموم الكثيرة .. إلا نوم عميق .. بعد شرب كوب من اللبن الحليب الدافئ .

في صباح اليوم التالي ... وصلتني رسالة :

أخي الحبيب .. الأستاذ حسن الشاعر

السّلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أبعث إليك بتحيات والدنا العزيز الشيخ إبراهيم الذي طلب مني أن أكتب لك هذه الرسالة ، لأدعوك لحضور فرح أخينا خليل يوم الخميس الأول من شهر إبريل القادم .. بإذن الله .

كما أحمل لك سلام أمي وإخوتي خليل وفكري . وخليل يرجو أن تحضر معنا هذه المناسبة السعيدة ، حتى يصير الفرح فرحين .

أخي العزيز .. كنت أتمنى أن أدخل كلية الإعلام ، لأصبح صحفية عظيمة مثلك ، لأن من شابه أخاه فما ظلم ، لكن أبي -

سامحه الله ـ رفض لعدم وجود كلية في المنصورة ، لذلك دخلت كلية الآداب ، وأنا مصرة على النجاح بتفوق ، حتى أكون صورة من مثلي الأعلى وأخي الكبير .. أطال الله عمره . آمين .. يا رب العالمين .

وفي الختام .. تقبل تحيات أختك العزيزة .

خيرية إبراهيم

* * *

مفاجأة سارة حدثت يوم الاثنين ٨ / ٨ / ١٩٨٨ .. عاد بعد طول غياب عودة نهائية الصديق العزيز .. أدهم بدير . دعانا جميعا للعشاء في مطعم مينا هاوس بالهرم . العشاء على صوت الموسيقي الحالمة .. في الأضواء الهادئة . بين حين وآخر .. تأتي عروض راقصة من فنانين وفنانات مصريين وأوربيين . الرواد معظمهم من السواح . حين تأمل عبدالله عاشور المكان أخذ يغني .. وهو يتناول كأساً من البيرة المثلجة :

الاقصر بلدْنا بلد سُواحْ فيها الأجانب تتفسَّحْ
وكل يوم ساعةِ المرْواحْ بيتبْقى مُشْ عايزهْ تروّحْ

انفتحتْ عيون بئر الأحزان .. هذا الفندق وآلاف كثيرة مثله في مصر ، لكن من .. من المصريين يستطيع أن يقضى فيه ليلة .. لا ، قل يتناول وجبة هو وأسرته الحزينة . إيه يامصر .. يا أم الكوخ

والقصر . أتمنى أن أبيت هنا ليلة ، لأرى .. كيف تكون الأحلام في فنادق الخمسة نجوم .. ؟ !

قال سميح : لولاك ما اجتمعنا هذا الاجتماع التاريخي .

أكمل عبدالله : سيمرّ علينا ربع قرن على الأقل، حتى نستطيع أن نعيد تصوير مثل هذا المشهد . كلاكيت .. فيلم « سهرة شلة الأنس » .. أول مرة .. صور .

قال أحمد : لا تنسَ الفن أبداً يا ابن عاشور .

- الفن في دميّ .. يا سيادة الرائد .

أردف الدكتور حمدي : لازم عينة دمك ٥ .

ردّ أدهم : لا عينة دمه .. إف .

ضحك ثم أكمل : منذ مدة طويلة ، لا أذكر أنني ضحكت من قلبي .

قلت مبتسماً : يا قلبي عليك .. !

وضع أحمد كوب عصير البرتقال أمامه : كيف حالك يا رفيق ؟

- لا رفيق .. ولا صديق . أنا اليوم رجل آخر .. عملي .

- كيف .. ؟ تساءل سميح .

- أفكر في مشروع سياحي .

قال حمدي : لماذا لا تضع أموالك في شركة من شركات توظيف الأموال ؟

أكمل أحمد : أو .. في أحد البنوك الإسلامية ؟

قلتُ : أو .. في بنك من بنوك الحكومة ؟

قال أدهم : كل دولار كسبته بحبات من عرقي .. ولحظات من عُمري ، لذلك اشتريتُ محلاً في شارع الهرم ، حتى أحافظ على فلوسي ، وسوف أفكر في عمل مشروع ، يتناسب مع طبيعة الظروف التي نمرّ بها .

قلت : تقصد مشروع انفتاحي .. ؟

- سمه ما شئت .. لم أعد مشغولاً بالشعارات أو التسميات. في الماضي .. كنت شاباً رومانسيا متحمساً .. اليوم أنا رجل برجماتي . BUSINESS IS BUSINESS

قال سميح : والفكر الاشتراكي .. والالتزام الأيديولوجي ؟

ردّ أدهم : الاشتراكية سوف تحتضر في موسكو نفسها.

قلت موجهاً نظري نحو أدهم : أصدر الرئيس السوفييتي جورباتشوف في العام الماضي ١٩٨٧ كتابا بعنوان « البريستوريكا والتفكير الجديد لبلادنا والعالم » .. على ضوء الأزمة التي يمرّ بها الفكر اليساري ، والشعوب التي تقع في إطار دول الاتحاد السوفيتي .. لكن الكتاب لم يُترجم إلى العربية حتى اليوم .

تساءل حمدي : تظن أن لأمريكا دخلاً في هدم جدار كتلة الاتحاد السوفييتي .. والقضاء على الفكر الماركسي ؟

ردّ أدهم بحماسة وهو يشعل سيجارة : الأمريكان في كل مكان .. حتي سيجارة المارلبورو التي أدخنها الآن .. !!

ـ عندي خبرة في أعمال الديكور .. إذا أردتَ شيئا فاتصل بي .

ـ شكرا يا سميح .

ـ امتلأت معدتنا من الشرب .. متى نأكل ؟ تساءل عبدالله.

ـ ماذا تأكلون ؟

ـ لحوم طبعا .. يكفي نكدا .. أنه لا توجد بيننا من تمثل تاء التأنيث .. أجاب سميح مبتسما .

ـ سهرة بلا نساء .. مثل سماء بغير قمر .. !!

ـ الدكتور حمدي .. سوف يترك طب الأطفال ويقرض الشّعْر... قال أدهم .

قلت معلقا : في داخل كل منا شاعر.. يحاول أن يتنفس ..

أكمل عبد الله ضاحكا : يتنفس تحت الماء . الحياة .. خرافة جميلة يا صديقي .. !!

في طريق العودة ركبت مع أحمد حلمي .. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل في شارع الهرم ، الذي لا يهدأ ولا ينام . القاهرة في النهار مكان للعمل وقضاء المصالح .. السحر والجمال كله في الليل . القاهرة عروس فاتنة ، لا تبدي جمالها إلا لمنْ سهر يتغنى

بسحر عجائبه . ياقاهرة .. يا ساحرة .. يا ساهرة .. ضميني إليك .. في الليل الحاني .. ونسمات الفجر الآ تي .

ـ لم تذهب إلى البلد منذ مدة طويلة . الناس يسألون كثيراً عنك ، حتى أبيك ..

ـ لم يعد لي أحد هناك . أريد أخذ رأيك في أمر يشغلني .. بحكم كونك ضابطاً قديماً .

ـ خيرا .

جهاز المخابرات .. يريد أن يوظفني .

ـ كيف ؟

ـ هذا ما طلبه مني مساعد الوزير شخصياً .

ـ ماذا قلت له ؟

ـ دعني أفكر .

ـ وهل فكرت ؟

ـ نعم .. لن أفعل شيئاً .. لا يرضاه ضميري .

ـ ربما ضايقوك .

ـ أنا لا أعمل شيئاً في الظلام .

ـ هذه .. خدمة وطنية .

ـ خدمة الوطن .. لها ألف طريق وطريق .. !

* * *

طرأت في ذهني فكرة جديدة .. المقالات رغم ما أبذله فيها من جهد ، فإن خلودها محدود ، لذلك فكرت في عمل كتاب ذي موضوع واحد .. أنشره على حلقات ، ثم أجمعه في عملٍ مستقلّ . الكتاب وثيقة تاريخية . وسوف يأخذ دعاية كبيرة بعد نشره في الصحيفة . كبار الكتاب كلهم فعلوا ذلك . أنا مهموم بمشاكل الأمة .. والأمة في هذه الأيام تقاسي من أزمتيْن حادتيْن :

الأولى : المشاكل التي جرَّها الانفتاح الاقتصادي .. ونظام العوْلمة .

الثانية : المآسي التي يصنعها من أسموا أنفسهم بالجماعات الدينية ، وهم في الحقيقة .. جماعات إرهابية ، لذلك فكرت في أن يكون عنوان الكتاب :

مستقبل العالم العربي في ظل الانفتاح والإرهاب

لكن الفكرة أفضتْ إلى تساؤل محيِّر : هل أجعل هذا الكتاب جزءاً من هذه الذكريات .. أم أجعله في مجلد مستقل ؟ يبدو أن الفكرة الثانية هي الأصوب ، إذ ما دخل الذكريات .. بكتاب فكري وسياسي ؟!

* * *

القضية السياسية التي شُغلت بها في مقالات هذه الفترة هي .. الدعوة إلى إنهاء تعليق عضوية مصر في جامعة الدول العربية ،

وإعادة الجامعة إلى مقرها الأصلي والأصيل في القاهـرة ، لأنها منذ نـقـلت إلى تونـس فـقدتْ فاعليتها ، وتضا ءل دورها .

العرب .. يشكلون اثنتيْن وعشرين دولة .. وعددهم يزيد عن مائتي مليون ، وعندهم كل مقومات التقـدم والنهضة .. المهم أن يجتمعوا ، وتتوحد كلمتهم من خلال جامعة الد ول العربية . عندي أمل كبير في أن الله سوف ينـصر هذ ه الأمـة ، ويحميها إلى أبد الآبـدين .. !!

حين ذهبت إلى الجريدة أخبرني موظف الاستعلامات أن رئيس التحرير الأستاذ أمين بدوي في انتظاري ، ويرجو أنْ أمـرَّ عـليه قبل أن أذهب إلى مكتبي . الرجل .. وقور ، اشتعل شعر رأسه شيْبا ، فبدا أكبر من سنه الحقيقي . الصحافة مهنة البحث عن المتاعب .. كل من يعمل فـيها بجدٍ وإخلاص ، لابد أن تشيِّب رأسه وعقله .

- لماذا لم تتصل بالسيد مساعد الوزير ؟

- لم أتصل به ؟

- يضايقك هذا .. ؟

- نعم .. أنا رجل صريح ، لا أحب اللفّ والدوران . يجب أن يؤدي كل منّا دوره من موقع عمله .

- على الأقل اعتذرْ لـه .

- الصحفي النزيه .. لا بد أن يحافـظ على شَرفِ المهنة .

- لكن .. معظم الصحفيين .. يعملون هذا .

- حتى في جرائد المعارضة ؟

- نعم .

- إذن .. كيف تكون المعارضة معارضة .. ؟ !

- قد تخسر إذا رفضت .

- المهم .. ألا أخسر احترامي لنفسي .

* * *

في تلك الأيام الأخيرة .. أحسّ قلقا ، لا أعرف له مصدراً ، ليست عندي أزمة عائلية .. أو عاطفية .. أو مهنية ، حتى الأزمات المالية لم أعد أفكر فيها ، فمنذ فترة غير قليلة ما أكتبه في جريدة « الأمة » يوم السبت.. ينشر في اليوم نفسه في جريدة «الرأي العام» التي تصدر من لندن . وجاءتْ عروض للكتابة من بعض صحف عربية في الكويت ولبنان ... لكنّي لا زلت أدرس الفكرة . كذلك كثرت المؤتمرات التي أحضرها ممثلاً للجريدة ، حيث إن معظم هذه الدعوات يأتي محدداً شخصية المدعو بالاسم . كل هذا النجاح حدث في الفترة الأخيرة .. لكن القلق جزء من تركيبتي .. وعنصر أساسي من ملامح شخصيتي .. أمري لله .. هكذا خُلقتُ .. وأنا راضٍ بذلك . السعادة .. غاية السعادة أنْ ترضى بما قسم الله لك . لكن الرضا .. لم يقض على جذور القلق في أعماقي . لستُ أدري

.. هل ما أعانيه توتُّـر صحيّ خلاّق .. أم أنه قلق هستيري عاصف .. لكثرة ما تعرضتُ لـه من محـنٍ وآلام .. ؟ !!

منـذ مدة .. لا أعرف مداها ـ حيث صارت ذاكرتي في الآونـة الأخيرة مثـل الغربال ـ أحسست أنني غير قادر على كتابة المقالات المطلوبة مني .. أو متابعة المؤتمرات التي ينبغي أن أحضرها . أكثر من هذا وذاك .. بدأت تلح عليّ ـ بقوة ـ مسألة الكتابة القصصية . كنت آمل أن أعوّض مافاتني من أيام وليال في البحث عن ذاتي . الصحافة تفتح للكاتب آفاقاً مُتعددة .. المهم أن يكون قادراً على العطاء فيما يحاول أن يثبت وجوده فيه . هالة يا قبلة أحلامي .. ها أنا أمضي في الطريـق الـذي أردت .. ليتـك الآن بجـواري .. آه لو كنـت معـي . تذكرت حكمة قـالها ســميح ذات يوم .. «الرجل بغير امرأة طفل ضال .. !! »

بدأت أمارس الطقوس التي أعتدت عليها حين أتهيأ للكتابة، وأخذتُ أحـاول جمع أفكاري حول مقالٍ بعنوان :

أزمة الفكر السياسي في العالم العربي المعاصر

حاول الفكر العربي المعاصرأن يبحث عن طريق للخلاص والنهضة وتحقيق التقدم من خلال عدة أطروحات أو أيديولوجيات ، تنبثق من خـلال تيـارات سـياسية متعـددة .. وربما كانت متناقضة أيضا :

الأول : التيار القومي العربي : الذي يهدف إلى تحقيق الوحدة العربية من خلال إحياء الفكر القومي .. وبعث تراث الأمة في القرون الذهبية الأولى .

الثاني : التيار الليبرالي الديمقراطي : الذي يتبنّى فكرة الديموقراطية بالمفهوم الغربي ، التي تقوم على الرأسمالية في الاقتصاد ، وتعدد المنابر الحزبية في السياسة .

الثالث : التيار اليساري الماركسي : الذي يهدف إلى تحقيق الاشتراكية على المستوى الاقتصادي ، وفكرة الحزب الواحد على المستوى السياسي .

الرابع : تيار الإسلام السياسي : الذي يعتقد أن الإسلام دين .. ودولة ، ويعتمد علي التفسير الحرفي لكثير من النصوص الدينية ، ويدعو إلى التكافل الاجتماعي اقتصادياً ، وتطبيق مبدأ الشورى سياسياً .

لكن .. ما هو التيار الذي يتلاءم والمتغيرات الدولية المعاصرة .. وهزيمة اليسار في البلاد التي أنشأته ونشرته في العالم ؟

أعجبتنى الخطة .. التى سوف أسير عليها في كتابة المقال ، بحيث توضح مسيرة التيارات المتصارعة التى تبناها الفكر السياسيّ العربيّ المعاصر .. وأخيراً محاولة بيان أيّ هذه التيارات أكثر ملاءمة للواقع العربي ، بحيث تكون الأيديولوجية الملائمة .. نابعة من تراثنا

وواقعنا ، حتى لا نأخذ الماء من طاحونة الغير ، لذلك ينبغى أن نبحث عن صيغة ملائمة للفكر السياسي: تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وتمزّج بين جوهر التراث القومي و .. روح العلم الحديث ـ خاصة وأن العالم اليومَ .. أصبح قريةً صغيرة .. !!

* * *

صبيحة يوم لاينسى .. سمعت جرس الباب يدقّ دقّات عالية . جريت بسرعة فإذا عطيات تبدو هائجة ثائرة .. عيونها محمرة .. ووجها عابس ، كأن لم تنم بالأمس .

ـ صباح الخير ..

ـ صباح النور .

ارتمت متهالكة على أقرب كرسي . لم تكن أنيقة مبتسمة كالعادة . خشيت أن يكون قد حدث لها أو لأحدٍ من الأولاد مكروه . وقفتُ بجوار الكرسي الذي تجلس عليه ، ونظرت إليها في إشفاقٍ ولهفة : خيراً ياعطيات .

ـ من أين يأتي الخير .. وقد خسرنا كل شيء ؟

ـ تكلمى بهدوء ، حتى أفهم .. ونتفاهم .

ـ الكلب .. الغبي .. ضيّع كل شيء . عندك جريدة الأمس؟

ـ نعم .

ـ احضرها من فضلك .. بسرعة لو سمحت ..

دخلت لأحضر الجريدة من حجرة النوم ، فجاءت مسرعة ورائى. انتزعت الجريدة .. وفتحتها على الصفحة الخامسة . وضعتْ إصبعها الوسطى عند المنتصف .

ـ اقرأ يا أستاذ ..

ـ شركة النور لتوظيف الأموال .. تعلن الإفلاس ، وصاحبها يهرب إلى الخارج .

ـ لم أفهم شيئا .

ـ أشرف الكلب .. وضع كل ما ادخرناه في هذه الشركة . حذّرته بإخلاص .. لكن الغبى كان مصراً . كلما قلت له ضع الدولارات في بنوك الحكومة ، يقول : أنت عبيطة ، البنوك تعطى خمسة في المائة .. وهذه الشركة تعطى خمسة وعشرين . آخر إجازة .. رجوته أكثر من مرّة ، فقال بتبجح : فلوسي.. وأنا حرٌ فيها ..!!

سكتتْ برهة لتسترد أنفاسها ، وبعدها .. جلستْ على كرسي بجوار السرير : من العبيط الآن .. أنا أم هو ؟ لماذا لا تتكلم .. ؟ قلْ ..

ـ المسألة معقدة .. ولن تحلّ بهذه العصبية .

ـ لا .. أنا التي صرتُ معقّدة . عشر سنوات سُرقت من شبابي .. ومن عمري .. وعمر أطفالي ، ثم يضيع هذا الكلب .. كل ما ضحينا من أجله في لحظة .

ـ معك حق .. إذا كانت تلك الشركات تعطى عملاءها خمسة وعشرين في المائة ، فعلى الأقل . . تأخذ هى الأخرى خمسين . لا يحقق هذا الربح الخيالى إلاّ تجارة المخدرات أو ...

ـ لا تكلمنى بالمنطق والفلسفة .. أرجوك ..

ـ أنت سيدة حكيمة .. أعرف ذلك جيداً . فقط اهدئى ..

وقفت أمامى وجها لوجه .. تخيلت أنها تظننى إياه ، وتريد أن تخنقنى .. أو تفعل أى أمر مجنون .

ـ ضاعت الحكمة .. وذهب العقل .

ـ اهدئي يا أختي ؟

ـ لستُ أختك .

ـ من أنت إذن ؟

ـ امرأة جريحة .. تريد أن تثأر لنفسها .

ترويض النمرة في الظروف العادية .. أمر صعب ، فكيف إذا كان الموقف .. موقف غضب وثورة ؟

الواجب الذى فرضته على نفسى نحوها ، يلزمنى بأن أستل شعرة الغضب .. من نفسها الثائرة .

ـ عطيات التى أعرفها وأحترمها .. إنسانة عاقلة .

ـ لستُ طفلة حتى تضحك عليّ .. !!

- ماذا تريدين ؟

- ألست رجلاً .. ؟ جئت إلى حجرة نومك برجليّ .. !!

- لا يصح هذا الكلام .

- أعرف حساسيتك المرضية ، لذلك جئت إلى هنا .

خلعت الجاكت بعصبية .. وبدأت تحاول خلع البلوزة . جريت نحوها . أمسكت يديها ، حتى لا تفعل شيئا مما تفكر فيه .

- عطيات ..

- لابد أن أنتقم لنفسي .. لعمرى الذى ضاع ، وشبابى الذي ذبل .. لابد .. لابد ..

- اهدئي يا عطيات ، حتى نتفاهم .

- إذا لم تستجب .. فسوف أخرج من عندك ، وأرتمى في أحضان أول رجل يقابلنى .. !!

- أنت مجنونة ؟

- جننى الكلب ابن الكلب .. لو كنت رجلاً بحق فـ ...

- قلت اخرسى .. وإلاّ ..

- أنت عاجز .. لا تقدر إلاّ على الكلام .

- قلت لك .. اهدئي يا مجنونة ..

- اتركنى أبحث عن مجنون مثلى .

حـاولتْ أن تأخـذ الجاكت ، وتجري نحو الخارج . خشيـت أن تنـفـذ تهديدها.. أمسكت يـديها بقـوة ، أخذت أهزها... هزاً عنيـفا، حتى تفيق .

ـ عطيات .. أنا أخوك .

ـ قلت لك اتركني .. اتركني ...

دون أن أنـوى .. أوْ أدرى .. رفعـت ذراعي اليـمنى فجأة ، وصفعتها على الخـد الأيسر . ارتمت متهالكة ، تبكى .. تـئـن .. ترتعش . أشفقـتُ عـليها من نـوبـة البكاء .... ما كان ينبغى أن أضربها . ليستْ لى قوامةٌ عليها . تمنيت أن أضع رأسها على كتفي، لكني خشيـت فـورة الجسد ، فلا هى قادرة عـلى أن تمسك نفسها ، ولا أنا أستطيع أن أتماسك . لا يقدر غريق أن يحتـمى بغـريـق ... !!

وضعت كفها اليمنى بين كفيّ .. أخـذت أدلكها ، حتى أوقـظ روحها التي غـابـت ، وأسترد أنفاساً كادت تزهـق .

ـ عطيات .. آسف .. سامحينى .. لم أكـن أقـصد .

هـدأ الأنـيـن .. لكن أنهار الدموع لا تـزال تجـرى.. تجري في صمـتٍ حـزيـن ..

ـ عـطيات .. سامحينى .. ما كان ينبغى أن أفعل . ليت يدى قـطعـت .

لم ترد .. لكنها ظـلت مدة تبكى وتـتشـنـج . بعد فـترة من الصمـت .. فوجئت بأنها سحبت يـدى ، وقبلتـها في خشـوع وضعـف.

ـ ما هذا ؟

ـ قبلة اعتراف بالجميل .

ـ سامحيني .

ـ بل سامحني أنت . لولاك لا أعرف ماذا كان يصير عليه حالي .

ـ ربما كنت أنا سبب شقائك .. !!

ـ ماذا تقصد .. ؟ !

ـ لا شيء .. المهم الحمد لله .. أنت الآن بخير .

ـ اغسلى وجهك إلى أن أعد الشاي .

استعادتْ قدراً من الهدوء والطمأنينة ، لكن الأسى جعلها تبدو عجوزاً في الخمسين .. كأنها ثكلى .. فقدت عزيزاً لديها.

ـ لم تخلقى للحزن .. يا أختي العزيزة .. !!

ـ نحن لا نختار أقدارنا .

قدمت لها كوب الشاي .. بعد أن هدأت قليلا .. ولبستْ الجاكت .

ـ أرجو أن تفهمى أمراً مهماً .

ـ هو ؟

ـ كل شيء يذهب ويجيء .. إلاَّ الكرامة . المال ليس علامة الغنى .. الغنى الحقيقى .. أن يستغنى المرء عما في أيدى الناس .!!

- أستاذ حسن .. أنت رجل عظيم .

- أنا غلبان .. كلما تخلصت من همٍّ ، جاءني همٌّ آخر .. !

* * *

انتهيت من العمل ، وبدأت أستعد للخروج . دخل زغلول أبو المعاطى فراش المكتب ، وأخبرني أن هناك ضيفين غريبيْن .. في الخارج ينتظران .. منذُ مدة .

- ادخلهما .. ولا تنصرف من الجريدة ، حتى أنتهى من الحديث معهما .

مفاجأة .. لم تكن متوقعة بعد يوم مرهق . الشابان من ذوى اللحى الكثيفة .. أحدهما يلبس جلباباً قصيراً أبيض ، وطاقية عليها شال أبيض ملتف حولها . والثانى يلبس قميصاً أزرق بكم طويل .. وبنطلوناً رصاصي الشكل ، لكنه قصير بدرجة واضحة .

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال الشاب الذي يلبس جلباباً : أنا أخوك في الله .. حمدان أبو الوفا مهندس زراعي .. وهذا أخونا .. عرفة أبو السعود محاسب قانونى .

- أهلا وسهلاً .. أي خدمة ؟

قال عرفة : نحنُ .. من المعجبين بما تكتب .

ـ من تقصدان بنحن ؟

ـ جماعة الدعوة ، التي هدانا الله سجانه وتعالى إليها ... ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو فضل عظيم .. !

أكمل حمدان : نحن ندعو إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة امتثالاً لقول الله سبحانه وتعالى : « ولتكن منكم أمة ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » .

ـ وقول المصطفى صلي الله عليه وسلم : « الدين النصيحة .. »

حاولت أن أكره نفسى على السماع لهما . كنت ذاهبا إلى الغداء في النادي .. مع حمدى الحسينى .. وسوف أتأخر عليه ، لكن أمرى لله . تذكرت قول أحد الحكماء لا أعرف اسمه الآن .. والمعدة خالية ، والجسدُ مُرهق ، والفكر مُشتتتْ : إذا جالست الجهّال فأنصتْ لهم ، وإذا جالست العلماء فأ نصتْ لهم ، فإن في إنصاتك للجهّال زيادة في الحلم ، وفي إنصاتك للعلّماء زيادة في العلم .. !!

ـ الشاي يا عم زغلول .

ـ جزاك الله خيراً يا أخ حسن ـ قال عرفة ـ من فضل الله أن مصر بها صحفيون ملتزمون أمثالك .

ـ لكن يا أخ حسن .. نتمنّى أن تزيّن مقالاتك بأدلة من آيات القرآن الكريم .. والحديث النبوي الشريف ، حتى يهديَك اللهُ إلى الصراط المستقيم .

ـ أنا أكتب سياسة .. ولستُ أخطب في مسجد . تعرفان بحكم أنكما شابان جامعيان أن السياسة علم ، وفي مصر منذ سنوات طويلة .. كلية تدرّس الاقتصاد والعلوم السياسية .

ـ نعرف هذا جيداً ، لكن الإسلام دين ودولة . والقرآن الكريم دستورنا ..

أكمل حمدان : والجهاد في سبيل الله أقصى أمانينا .

ـ أرجو أن تختصرا ، لأني مرتبط بموعد .

ـ ما رأيك لو صليت المغرب معنا اليوم في مسجد ميدان الدقي . أظن أنه قريب من بيتك .. يا أستاذ .

كيف علم هؤلاء الشبان أن مسجد ميدان الدقي قريب من بيتي .. من أخبرهما بذلك ـ مع أن هذه أول مرة أراهما .. ؟ وماذا يريدان على وجه التحديد .. ؟ بوجه من اصطبحت اليوم .. يا إلهي .. ؟!

ـ أمير الجماعة سوف يلقى هناك درساً بين المغرب والعشاء ، يمكن أن توجد فرصة للقائه بعد صلاة العشاء ، لاسيما وأنه يودّ أن يتعرّف عليك .. في أقرب فرصة بإذن الله .

ـ لقد رتبتما كل شيء .. ماذا تريدان على وجه التحديد ؟!

ـ أن يهديك الله على أيدينا.. !! .. قال عرفة .

ـ وهل أنا ضال يا أستاذ ؟! .. انتهت المقابلة .

ليس من عادتى أن أثور في وجه أحد .. لكن هذه الزيارة المفاجئة أثارتْ مشاعرالغضب في داخلى . هل يظن هؤلاء المغرورون أنهم يعرفون أحكام الدين أفضل مني .. ومن الذي أعطاهم حق الدعوة والتبليغ .. ؟!

ناديت بصوت عالٍ .. وأنا أستعد للخروج : زغلول .. اغلق المكتب قبل أن تمشي .

ـ أمرك يا أستاذ حسن .

ركبت السيارة .. أخذت أمشي بطيئا ، فقد بدأت ساعات الذروة في شوارع القاهرة . . أخذتُ أستعيدُ تفاصيل اللقاء الغريب ، الذي تعرضتُ له منذ لحظة . انتهى الموقف .. لكني شعرتُ بانقباضٍ مفاجئ ، كأنما أعاني .. من كابوس مخيف.

أشعلت سيجارة .. وأنا أحاول أن أتحكم .. في السيارة .. وسط الزحام .. !!

١٠ـ ولا يزال النهر يجرى ..

توقفتُ عن الكتابة عامدا ـ في أوائل سنة ١٩٩٠ ـ بعد أن صورت لحظات قاسية في حياتى .. لا أظن أحداً من أبناء جيلى قد تعرض لمثلها .. !! حين وصلت إلى هذا الحدّ .. وجدت نفسى في حالة مزاجية ، لا تسمح بالاستمرار في كتابة ذكرياتى الخاصة . لا أكره نفسى على الكتابة عند تحرير مقالة صحفية تدور حول موضوع عام ، فكيف أعبر عن ذكرياتي الذاتية .. التى أجترها من بئر عميق مظلم ، وأنا غير قادر على ذلك نفسياً .

كذلك أودّ أن أبتعد عن دائرة الشجون الذاتية الخاصة ، لأني مشغول في هذه المرحلة بالشئون القومية العامة ، وأريد أن أتفرغ لإعداد كتاب بعنوان :

مستقبل العالم العربى بين الانفتاح والإرهاب

ما يحدث في عالمنا العربي من مشكلات فكرية .. واقتصادية .. واجتماعية .. يدمى قلبى ، ويؤرق ضميرى . أظن ظننا أقرب إلى اليقين أننا سوف نواجه - في ظل النظام العالمي الجديد - مرحلة صعبة من الصراع الحضاري المعقّد بيننا وبين العدوّ الإسرائيلي ، الذي يمدّ أصابعه الأخطبوطية ، ليشكل نوعاً من الاستعمار والاستغلال وطمس الهوية .. لم نعرفه خلال مراحل تاريخنا السياسي القديم أو الحديث .

نحن في حاجة إلى إطار فكري جديد للوحدة ، يجمّع أقطار أمة متفرقة ، ويعيد أمجاد ماض قديم ، ويرسم صورة لمستقبل مشرق ، لأن الأمة إذا لم تتوحد، فسوف يأتي طوفان .. لا يبقى .. ولايذر ..!!

لست أدرى .. هل أستطيع معاودة الكتابة عن حياتي الخاصة، لتكون بمثابة الجزء الثاني .. من هذه الذكريات . لست أدري .. وإن كنت أتمنى ذلك في وقت قريب بإذن الله ....

....

.... ح . ش .

هناك .. شيء ما

أصعب حمل تحمله في الوجود أن تحمل جثة عزيز لديك ، ثم توسده التراب بيديك . هذا ما شعر به الدكتور حمدى الحسينى يوم مشى في جنازة صديقه الراحل حسن الشاعر. وقد أحس أنه حمل فوق هذا العبء عبئا آخر.. يوم انتهي من قراءة الذكريات الخاصة به . فقد اكتشف جوانب إنسانية مضيئة ، لم يكن هو نفسة يعرفها - رغم أنه يعد نفسه أقرب الأصدقاء إليه . تضاعفت في أعماقه المشاعر الحزينة .. وأصبح يعتقد أنه مسئول مسئولية شخصية إزاء كشف معالم الحادثة والبحث عن المجرمين .. الذين قتلوا إنسانا بريئًا وكاتبًا ملتزماً في كل ما يقول ويفعل .

حسن تصرف في معظم المواقف بإحساس عال بالمسئولية ، كما كان يشكل صوت الضمير بالنسبة لكل من يعرف ، ويمثل دور الأب

الروحى .. لكثير من الذين تعاملوا معه . الخسارة في أمثال حسن ليست خسارة فردية .. وكيل النيابة كان على حق حين ذكر :

« أوصى بضرورة البحث الدقيق وتقصى الحقائق ، لأن المجنى عليه شخصية غير عادية . كما أن قتل مواطن برىء في بيته جريمة ، يمكن أن تهدد أي مواطن شريف في بلادنا العزيزة . إن الاعتداء على مواطن صالح دون وجه حق .. عدوان على المجتمع كله . الشرارة إذا لم تطفأ في مهدها تحرق كل ما حولها ..!! »

ذهب حمدى لمقابلة أمين بدوى رئيس تحرير الجريدة ، التى توفى حسن وهو يعمل بها ، لكن الرجل قابله ببرود ، وأنهى المقابلة قائلا :

- الجريدة ليست جهة تحقيق أو قضاء .. وهذه قضية معقدة .. فيما أعتقد، لذلك أفضل أن ننتظر حتى يقول القضاء كلمته الأخيرة.

- لكن الانتظار قد يضيع الحقوق .

- لا تنس أننى أول من طالب بالبحث واكتشاف الجريمة .

خرج من عنده ، وسأل عن حامد صالح زميل حسن في قسم الشؤون العربية ، فلم يجده . رأى زغلول أبو المعاطى .. يجلس حزينا أمام حجرة حسن .

- كيف حالك ياعم زغلول .. ؟ !

- من حضرتك ؟

- صديق المرحوم حسن .

ـ ألف رحمة ونور عليه .. لو كان لى أخ شقيق ما حزنت عليه مثلما حزنت على الأستاذ حسن .

ـ حسن كان أخاً لنا جميعا .. أين مكتب الأستاذة ليلى ؟

ـ ليلى سلام .. تعال معى .

قدمه زغلول للمشرفة على الصفحة الفنية ، ثم قال بتلقائية : لا مؤاخذة يا أستاذة ليلى .. قهوة الدكتور على أنا .. إنه صديق الغالى .. الله يرحمه .

تعجب في داخله كيف يكون حزن العامل الفقير غير المتعلم .. أكبر من حزن السيد رئيس التحرير .. ؟!

ليلى سيدة في الأربعين من عمرها تقريباً ، ولاتزال عليها بعض ملامح جمال .. أتعبته السنون .

ـ أى خدمة يا دكتور .. اطلب أي شيء .. المرحوم كان أخا عزيزا . زارنى في البيت في كل مناسبة ، زوجى حزن عليه حزنا شديدا ، وحتى أطفالى .

ـ جئت لمقابلة الأستاذ أمين ..

قبل أن يكمل الجملة قالت : لكنه قابلك مقابلة باردة ؟

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ أنا أعمل معه منذ حوالى عشرين سنة .. وأعرفه جيداً .

- لماذا يتصرف هكذا ؟!

- سعادة البيه المحترم .. يتصور أن إثارة قضية حسن ، تسيء إلى سمعة الجريدة .

- هل هذا معقول ؟

- هذا هو الواقع .. لا تتعب نفسك معه . ليتك جئت إلى قبل أن تذهب إليه . على كل حالٍ .. إذا كنت تريد مساعدة حقيقية اذهب إلى الأستاذ مصطفي فودة .

- كيف غابت عنّي هذه الفكرة .. ؟!

شكرها .. وخرج مسرعا . حين رآه زغلول قال :

- مع السلامة يا دكتور حمدى .

استقبله مصطفي فودة بحرارة قائلا : المرحوم كان أكفأ صحفى عندنا ، لكنه أصر على النقل إلى جريدة الأمة .

- الحزن على حسن يجب أن يتحول إلى شيء عملى .. من أجل تخليد ذكراه واكتشاف معالم الجريمة .

- اتصلت بالنقابة .. وسوف تقيم حفل تأبين في ذكرى الأربعين يوم ١٥ سبتمبر - لابد أن تحضره .

- وبالنسبة للقضية .؟

- لا تشغل نفسك بها .. فقد أوصيت المسؤولين في وزارتى

العدل والداخلية ، لأني أنا نفسي متحير في أمرها ، حسن الـذي أعـرفـه معرفـة جـيد ة .. لا أظـن أن لـه عـداوة مع أى إنسـان ، وكان رجـلاً مـلتزمـا في كـل المواقـف .. آه تـذكـرت ..

- مـاذا ؟

- حسن كان يؤلـف كتابا عن مستقبل العالم العـربى .. أين أصولـه .. حتى أكتب لـه مقدمـة وأنشـره ؟

- عـنـوان الكتاب «مستقبـل العالـم العربى بين الانفتاح والإرهاب » ، لكـنه سرق ضمن ما سرق من شقـتـه .. على أي شيء يدل هذا ؟

- الجناة سرقوا نقوده ، وساعته ، وسيارتـه .. لكن لماذا يسرقون هـذه الأوراق الخاصة ؟

- قـد يكون للجناة عـلاقـة بالإرهاب أو الانفتاح .

- ربما تكون هناك علاقة .. لكنها فيما أتصور .. علاقة بعيدة.

- منـطق الجريمة .. لابـد أن يكون مختـلفًا عن منطق المواقـف العادية ، لذلك ينبغى أن يوجه البحث نحو مسار مختلف .

- معك حـق .. !!

* **

عاد إلى البيت ، تضطرب مشاعره بين الغضب والحزن . يتمنى أن يفعل شيئا .. أو يتوصل إلى شيء ، لكن القضية معقد ة ، لا يستطيع أن يمسك بأى خيط من خيوطها ، لأن حسن لم تكن له أخطاء، وبالتالي ليست له عداوات واضحة . اللهم إلاّ إذا كانت هناك بعضُ خلافات فكرية . رجعت أمانى وإيمان من المدرسة .. وجاء موعد الغداء .

سألته الأم .. وهى تأخذ مكانها بجواره على المائدة :

- هل وصلتَ إلى شيء ؟

- مزيد من الحيرة والحسرة .

- لماذا ؟

- القضية معقدة .. والجناة لم يتركوا أى دليل .

- والمذكرات .. ألم تفهم منها شيئاً ؟

- تضيء بعض الجوانب في شخصية حسن .

- لماذا لا تأكل يا بابا .. ؟ تساءلت إيمان .

- يبدو أن بابا تعبان .. ردت أماني .

أكملت نسْرين : سلامتك يا حبيبي . استرحْ ، حتى تستطيع أن تذهب إلى العيادة في المساء .

- لن أذهب اليوم .

ـ لماذا .. ؟ !

ـ عندي لقاء مهم .

ـ مع من .. ؟

ـ سأقول لكِ فيما بعد .

مسح يديه وفمه في الفوطة .. واتجه في صمت ناحية غرفة النوم . تبادلتْ الزوجة مع ابنتيْها نظرة حزن صامت على ما أصاب الأب من هموم وأحزان.. منذ وقعت الحادثة المشئومة .

* * *

توجه أحمد حلمى إلى قسم الدقى من أجل الدافع نفسه الذي حرك حمدى الحسينى . كل الأصدقاء أثّر فيهم قتل حسن الشاعر في شقته وعلى سريره . القتل ليس قتلاً عاديا .. إنه قتل مع سبق الإصرار ، ثم التنكيل بالجثة ، وسرقة نقوده وكتابه وسيارته . لماذا حدث كل ذلك .. ؟ لابد أن في الأمر سراً .. ما هو ؟ يجب البحث عن الحقيقة . الحقيقة مهما كانت مرة .. لابد من معرفة أبعادها وأسرارها ، حتى لا تتكرر ..!!

حسن قتل وضاع .. لكن هذا القتل وذلك الضياع ، لايزال سيفاً مصلتا ، يهدد كثيراً من الأبرياء في مصر ، التي كانت محروسة وأكثر بلاد الدنيا أمنا واستقرارا . هذه الجريمة البشعة ـ كما أدرك حسن ـ ثمرة مرة للانفتاح الاقتصادى .. وما يخلفه من تفسخ

اجتماعى ، لأن هذا النظام الاقتصادى يتيح للأغنياء أن يزدادوا غنى .. ويقضى على الفقراء بأن يزدادوا فقرا . المجتمع صار طبقتين : ملوك وصعاليك ، سادة ورعاع ، وليس ثمة أمل في ظهور طبقة وسطى .. تقود التقدم ، وتصنع النهضة ، وتصوغ فكر الأمة .. !! وقد أدت هذه السياسة الاقتصادية ـ التي فُرضت على مصر بعد الصلح مع إسرائيل والتحالف مع النظام العالمى الجديد .. إلى ظهور شركات توظيف الأموال التى تنكرت تحت اسم الدين ، ونهبت الأموال السائلة الموجودة في الوطن .. ثم هربت إلى الخارج ، لتحتمى تحت ظل الذين وظفوها .. وخططوا لها .

بعد هذا .. أسدل الستار على شركات توظيف الأموال ، التى لا يكاد يعرف أحد من جماهير الشعب الفقير كيف قامت .. ولا من سمح لها بالعمل .. ولا من سهل أمامها ادعاء الإفلا س ، وفتح لها طريق الهروب .. ؟!

أخيرا ابتليت مصر بالجماعات الإرهابية .. التى تدعى ظلما أنها جماعات أصولية إسلامية . كبرت كلمة تخرج من أفواههم . ليس هناك دين ، بله أن يكون الإسلام ـ دين السلام والمحبة ـ يدعو إلى قتل الأبرياء .. وتقسيم المجتمع إلى شيع وأحزاب .. إلى ضالين ومهديين ، يعطوا أنفسهم الحق في أن يدعوا إلى الجهاد والقتال .. جهاد وقتال المسلمين أنفسهم ، بعد أن كفروا معظم شرائح المجتمع ، وحرموا كثيراً مما أحل الله .. واعتبروا المرأة عورة ـ ناقصة عقل

ودين ، وكل جديد بدعة .. وكل بدعة ضلالةٍ .. وكل ضلالة في النار ، التي أشعلوها .. في كل مكان .. !!

قلب حسن النقى كان يحدثه .. أن هذه الجماعات ، تحركها أصابع خفية من خارج المنطقة ، بعيدة كل البعد عن الإسلام الحنيف وتعاليمه السمحة . أي إسلام ذلك الذى يدعو إلى أن يكفر المسلم أخاه المسلم ، ويحل إهدار دمه ؟! بل يُبيح له - أيضا - أن يقتل العشرات من السواح الأجانب الذين جاءوا إلى مصر ، ليقرأوا كتاب حضارتها ، ويشهدوا جمال طبيعتها . مصر التى قال الله تعالى عنها في القرآن الكريم .. « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .. يا سبحان الله .. كيف يحدث كل هذا الإرهاب المجهول في مصر .. ؟ وكيف يتستر تحت عباءة الدين ؟ هذه الجماعات مخالب قطط .. تحركها عصابات أجنبية ، لاتريد للمسلمين أن يتحدوا .. ولايرضون بأن يسود السلام .. الذى دعا إليه الإسلام .

ذهب أحمد حلمى إلى حجرة النقيب عادل إسماعيل رئيس وحدة مباحث الدقى .. رجل وسيم في حوالى الأربعين من عمره .

- أنا الرائد أحمد حلمى .. ضابط بالقوات المسلحة .

- أهلا وسهلاً .. خدمة ؟

- أنا صديق المرحوم حسن الشاعر . يمكن بالضبط أن تقول إننا إخوة .. نحن من بلدة واحدة .. وولدنا في سنة واحدة . لم نفترق منذ كنا في كتّاب القرية .. إلى أن حدثت الجريمة التى تعرفها .

ـ جريمة بشعة .. لم أصادف مثلها منذ عملت في إدارة البحث الجنائي .

ـ الذى يحز في نفسى أننى حاربت في معركة أكتوبر ، وأصبت إصابات بالغة في رجلى .. وكنت أقرأ خبر موتى في عيون كل المحيطين حتى الأطباء .

ـ ألف سلامة يا بطل .

ـ أنا أعيش الآن .. وحسن قتل .. حسن الإنسان الشريف النظيف مات .. تصدق هذا ؟

خنقته الد موع .. وتوقف لحظة عن الكلام . أعطاه النقيب عادل كوب ماء ، ليبلع ريقه .

ـ هذه الجريمة حيرتنى أنا شخصيا .. الجناة الأشرار كانوا من الذكاء بحيث لم يتركوا أى خيط يدل عليهم ، حتى الزرار الفضى الذى وجدناه بجوار الجثة ، من الصعب أن تحدد .. أهو زرار جاكتة رجل .. أو زرار فستان امرأة ..؟ الشيء الذى كان يمكن أن يقودنا إلى الجناة هو ضَبْط عربة المرحوم ، ورقمها كما عرفت من إدارة مرور الجيزة 5500214 .

قدّم له كوبَ شاي ، ثم أضاف :

لكن العربة وجدت بعد أسبوع بين مقابر السيدة نفيسة في حيّ القلعة ، ولم نجد بها أي دليل يذكر .. أو يوصل إلى شيء . صحيح

أنهم أخذوا كل ما فيها حتى ولاعة السجائر ، لكي يوهموا بأنّها حادث سرقة عادي . آه .. نسيت ..

ـ ماذا ؟

ـ وجدنا نظارة شمسية سوداء رخيصة الثمن ، ولكن لم توصلنا إلى شيء .

ـ وسلسلة المفاتيح ؟

ـ لم نجدها في السيارة .. الجناة كماقلت عصابة شديدة الذكاء والمهارة ، وفيما يبدو كانوا يعرفون الكثير عن المرحوم .. ومُدرَّبين على مثل هذا النوع من الاغتيال .. !!

ـ في بعض الجرائم يا سياد ة النقيب .. قد لا يجد الباحث دليلا ماديا ، ومع هذا .. يمكن أن يحكم بالحدس .. أو الحاسة السادسة .

ـ معك حق .. لكن الإنسان لا يمكن أن يحكم بالحدس إلاّ إذا كان هناك ضوء .. يقوده إلى ذلك .

ـ معنى هذا .. أن يضيع دم إنسان شريف هدراً .. رجل ظل يخدم الوطن بأمانة ونبل طول عُمره ، ولا نفعل أى شيء ، ليس من أجله فحسب .. وإنما من أجل أن نحول دون حدوث ما حصل لأي إنسان آخر ، لاتنس .. النار قد تشتعل من شرارة صغيرة .

ـ عين العدالة لا تغفل ولا تنام .. ولابد أن نحل لغز هذه الجريمة

البشعة في يوم من الأيام . أمامنا في أجهزة الشرطة مشكلات لا تعد ولا تحصى ، من كل الأشكال .. يكفينا الجرائم التى ترتكبها الجماعات الإرهابية في كل مكان .. وفي أية لحظة .. بعد أن تدربَ الكثيرُ منهم في باكستان .. أو بلاد الأفغان .

ـ كان الله فى عونكم .. لكنى جئت أتكلم معك بصفة شخصية .. في حادثة محددة .

ـ مصرع حسن ليس جريمة عادية .. تقرير وكيل النيابة يُوحى .. أنها جريمة أمن دولة . بإذن الله سوف نصل إلى حل ألغازها. وأنا شخصيا مهتم بها من هذه الناحية .

ـ أرجو أن أعرف منك أى جديد بشأ نها .

ـ لن يطول انتظارك ، حتى تسمع ما يطمئن قلبك .

* * *

ذهب حمدى الحسينى إلى حى الدقى .. وإلي الحارة نفسها التي يوجد بها بيت الراحل العزيز ، حيث يوجد في أول الحارة محل بقالة ، يملكه صاحب البيت الحاج ناصر عبد السميع . قد تكون عنده بعض الأخبار . الغريق يتعلق بقشة . يريد أن يصل إلى خبر .. أي خبر، يقوده إلى معرفة سر الفاجعة ، التى أحس ـ أخلاقيا ـ أنه مسئول عنها ، باعتباره أقرب أفراد الشلة إلى المرحوم ، الدليل على ذلك أنه هو الوحيد الذي ائتمنه على مذ كراته ـ التى لم يخبر أحداً عنها ، حتى

زوجته نسرين لم يقد ر أن يطلعها عليها . تلك كانت وصية المرحوم .. ووصايا الراحلين ينبغي أن تحترم .

ـ مساء الخير يا حاج ناصر .

ـ مساء النور يا أستاذ .. ماذا تريد ؟

ـ أنا صديق المرحوم حسن الشاعر .

ـ الله يرحمه .. لكن أنت صديقه بحق أم مخبر ؟

ـ أنا طبيب يا حاج .. وقلت لك صديق المرحوم .

ـ المخبرون .. ورجال الشرطة وجعوا قلبى .. وشربوا على حسابي أكثرمن صندوقين مياه غازية .

ـ لو أردت أدفع لك حسابهما .

ـ المرحوم كان إنساناً عظيماً .. الخسارة فيه لا تعوض .. كنت أقدره وأحبه مثل ابنى تماما .. أي والله .

ـ ألم تشك في شيء .. أو في أيّ أحد خلال الأيام الأخيرة ؟

ـ سبحان علام الغيوب .. يمهل ولا يهمل .

ـ حاول أن تتذكر يا حاج .. أطال الله عمرك .

ـ ذهبت إلى الشرطة مرة .. والمخبرون زارونى أكثر من مرة . لقد حججت بيت الله الحرام ، وزرت الروضة الشريفة .. لا أستطيع أن أقول إلا ما أعلم . أقول لك شيئا حتى أريحك .

ـ يا ليت .. !!

ـ إذا عجزت عن معرفة أمر .. فدعه إلى الله .. عالم الغيب ، وغافر الذنب ، شديد الانتقام . نسيت يا دكتور .. سامحنى .. زجاجة مثلجة للأستاذ يا ولد .

شر البلية ما يضحك ، خشى أن يشرب الزجاجة ، فيظن أنه مخبر كما توقع . شكره ومضى .. لكن قدميه ساقتاه ناحية البيت . فكرة لم تراوده من قبل ، غير أنه تحمس لها فجأة . عطيات فؤاد .. كانت قريبة من المرحوم في الفترة الأخيرة .. ربما تعرف شيئا. الوقت لا يزال مبكراً .. الثامنة والنصف والجو صيف .. ومعها أولادها. لن يستطيع أن يعود إلى الحارة مرة أخرى . كان ينبغى أن يصحب زوجته .. لكنه لم يرغب في أن تعرف شيئا عن هذه العلاقة . يدرك تماما أنها علاقة طاهرة .. ومع ذلك حرص على أن تكون زوجته .. بعيدة عن معرفة أبعادها .

اضطرب قلبه بشدة حين دخل من الباب الكبير .. تخيل لهفته عندما يأتى إلى هنا. كان يقفز درجات السلم من أجل أن يسرع إلى لقاء العزيز الراحل . بدأ يصعد السلم درجة درجة .. من كثرة البطء والتردد أخذ يعد الدرجات ، لكنه تاه في العدد بعد أن تجاوز عد .. ثلاث عشرة درجة . طرق الباب .. فتح الولد الكبير أسامة .

ـ مساء الخير يا ابنى .

- مساء النور .. حضرتك من ؟

- أنا عمو حمدى .. صاحب عمك حسن ..

- هل عرفوا القاتل يا عمى ؟!

- قريبا بإذن الله .

ارتابت الأم لغياب ابنها عند الباب. كانت تلبس ثَوْباً أسود .. ووشاحا أسود . الحزن ظهر باديا عليها .. بدرجة واضحة .. !

- مساء الخير يا مدام عطيات .

- أهلا يا دكتور حمدى .. أى خدمة ..؟ تفضل .. لست غريبا .

دخل معها إلى الصالة . رغم أن الموقف موقف حزن ، فقد تذكر أن ذلك المكان شهد اللقاء العاصف الذي راودت فيه حسن عن نفسها. امرأة جميلة .. الحزن لم يخف جمال وجهها .. ومفاتن جسدها .. السؤال الذي يلح عليه هو كيف استطاع أن يعصم نفسه عنها ..؟! حسن كان إنسانا عفيفا . إنه ملاك كريم ، يصعب أن يعيش في هذا الكون الموبوء .

- آسف لهذه الزيارة المفاجئة يا مدام .

- بالعكس .. أسعدتنى كثيرا . المرحوم ألف رحمة ونور عليه .. كان أخى بحق وحقيق . منذ ذهب لم تجف دموعى .

أخذت تبكى بكاء صامتاً .. ونزلت الدموع من عينيها .

قالت أميمة : لماذا تبكين يا ماما ؟

ـ أسامة .. خذ إخوتك وادخل .

استأذنت .. حتى تعد فنجان قهوة .. في الحقيقة كانت تريد ألا يراها باكية . العلاقة الروحية هى التي خلفت الحسرة في نفس هذه السيدة الفاضلة . هذا البيت الآمن .. لولا حسن لهبت عليه عواصف شتى . حسن فارس نبيل .. يصعب أن تجد له مثيلا في هذه الأيام السوداء .. والزرقاء .. والصفراء .. !!

عادت بفنجان قهوة .. وكوب ماء . لم يجرؤ أنْ يتطلع إلى عينيها المحمرتين ووجهها الشاحب . هو الوحيد الذى يعرف سر العلاقة التي كانتْ بينهما. أدرك أن هذه الزيارة حركت في أعماقها نهراً من الأحزان ، يصعب إيقاف مسيرته .

ندم على فكرة الزيارة التى جاءته فجأة ـ دون أن يقدر عواقبها. المضطرُ يركب الصعب . ليس أصعب من فراق الأحباب .. !! كلاهما حزين .. وكلاهما في خندق واحد .. مليئ بالحسرات والعبرات . دعا في سره أن يلهمه الله وإياها الصبر .

ـ مدام عطيات .. البقية في حياتك . أعرف أن المرحوم كان يعزك ويقدرك ..

ـ المرحوم كان أخي .. وصديق زوجى .. وواحد من أفراد أسرتنا. زوجى مسافر .. وحسن مات .. لا أدرى كيف ..

بكت .. وسكتت .. محاولة أن تُخفى أحزانها . أحس حمدى أنها تذكر اسم زوجها كثيرا . لا شك أنها قد تعلمت من المرحوم بعض الحكمة .

ـ تصورى .. البوليس والنيابة وكل الجهات المسئولة .. لم تعرف أي شيء عن ظروف الحادث .

ـ بإذن الله .. الحق سوف يظهر . دم حسن لن يذهب هدرا .. ربنا سوف يفضح كل من أراده بسوء .. !!

ـ لو سمحت . .

ـ نعم .

ـ ألا تعرفين شيأ أو .. ألم تلاحظي أموراً غير عادية في الأيام الأخيرة .. ؟ أكاد أ جن .. حسن أخى وأعز أصدقائي .. تصورى كان أقرب إلى من أى إنسان في هذه الدنيا ، ويعرف بعض الأسرار التى أخفيها عن زوجتى ...

ـ معك حق .. المرحوم كان جديراً بكل ثقة .

قاطعته بتلقائية ، كادت تنم عن .. بعض ما في داخلها .

ـ هل قال لك شيئا .. أو هل لاحظت أنت شيئا ما ، لأنك تسكنين معه في بيت واحد .

ـ المرحوم .. كان لا يأتي إلى البيت إلا من أجل النوم . ولا

أعتقد أن له خصومة مع أى إنسان في هذه الدنيا كلها. كان رقيقا مثل النسمة .. كريما مثل البحر .. نبيلا مثل الملاك .

مرت فترة صمت ، لم يستطع أن يقول شيئا .. ولم تقدر هي أيضا. استأذن منها فقد أحس أن الوقت .. تأخر بعض الشيء .

- إذا جئت هنا مرة أخرى .. فحاول أن تزورنا .

- بالمناسبة .. نفكر في عمل ليلة عزاء بمناسبة الأربعين .

- من يعزى من يا دكتور .. ؟!

خرج حمدى الحسيني حزينا من حارة الزهور . ظن أنه قد يتوصل إلى معلومات جديدة من خلال لقاء الحاج ناصر ومدام عطيات ، لكنه لم يتوصل إلاّ إلى مزيد من الأحزان . ركب سيارته .. ومضى نحو ميدان الدقي . الميدان مزدحم .. وأفكاره مضطربة ، كاد يصطدم بسيارة تتحرك أمامه ، توقفت السيارة الأخرى .. ووقف هو أيضا لمعرفة ما حدث . قبل أن ينزل من السيارة .. نظرت شابة إليه نظرة غضب .. !!

- أليست لك عينان ..؟ إذا لم تكن تعرف السواقة .. فلماذا تركب سيارة ؟

- آسف .. يا آنسة زيزيت .

- دكتور حمدى ..

- آسف .. بالي مشغول .. !

خرجا.. ونظرا إلى السيارتين . لم يحدث شيء يذكر .. مجرد تصادم بسيط ، لم يترك أثراً في كلتا السيارتين .

- مالك يا دكتور .. شكلك لا يعجبنى .

- كنت أبحث عن دليل عند صاحب البيت وبعض جيران المرحوم .. لكني عدت في حالة أسوأ مما ذهبت .

- كان الله في عونك .

- بالمناسبة نقابة الصحفيين .. سوف تقيم حفل تأبين بمناسبة الأربعين بعد يومين ، وفي اليوم التالى سوف نقيم ليلة عزاء في بيتى.

- لا أظن أننى سوف أحضر حفل النقابة، مرارتى لا تتحمل الكلام المزيف والتهريج الإعلامي ، لكن سوف أحضر إلى بيتك .. أعطنى العنوان .

- أعطاها بطاقة مكتوب فيها العنوان .. ورقم التليفون .

- يمكن أن تحضرى مع الأستاذ عبد الله .

- عبد الله الآن كاتب كبير .. ومشغول على الآخر.. بعد أن فهم أسرار اللعبة ، وأصبح ترزى تأليف أفلام مقاولات .

- لم أعرف شيئا عن هذ ا .

- من يتجرأ على عمل شيء .. لا يهمه أن يعرف الآخرون أو .. لا يعرفوا .

من قتل الشاعر ... ؟!

ذهب حمدى الحسينى ، وأحمد حلمى، وأدهم بدير .. إلى مقر نقابة الصحفيين قبل موعد حفل التأبين بمدة ، ليكونوا في استقبال المعزين .. باعتبارهم يمثلون أسرة الفقيد. الساعة السابعة والنصف .. بقى نصف ساعة عن الموعد، لكنهم لم يروا ما يدل على أن هناك حفلاً .. أوْ اجتماعاً على أيّ مستوى . أخذوا يفتشون عن الأستاذ مصطفى فودة .. والأستاذ أمين بدوى، فلم يجدوهما. لمحوا سميح عبد المسيح ينزل من سلم الدور الثاني ، وانفعالات الغضب والضيق تبدو على وجهه .. !!

ـ ماذا حدث ؟

ـ ليس هناك حفل تأبين .. ورئيس النقابة غير موجود . لا يوجد أحد يعرف شيئا عن الموضوع .

قال أدهم بانفعال : هذاتهريج .. حسن لم يكن صحفيا وعضواً في النقابة فحسب ، لكنه عضو مجلس إدارة . ومن أبسط حقوقه على النقابة أن تقيم له حفل تأبين مثل أي صحفي عادى .

جرى نحوهم عبد الله عاشور .. والعرق يتصبب من جبهته ، وهو يلهث من سرعة المشى .

ـ آسف .. المواصلات أخرتني . أين مكان الاجتماع يا أستاذ سميح ؟

رد أحمد حلمى : حفل التأبين ألغى .

ـ هذا معناه . في تقديرى .. أن النقابة متواطئة مع المجرمين . قال حمدى الحسينى بحدة .

رد سميح : لاتنس أنه كان يعمل في صحيفة معارضة .

ـ وهل هذا يعنى أنه خائن أو عميل ؟ واصل أدهم .. الكلام الآن ليست له فائدة .

ـ ولا وجودنا أيضا له فائدة .. أضاف حمدى .

أول من فكر في الخروج من مقر النقابة هو أدهم بدير . استيقظت في أعماقه روح المناضل القديم .. عندما كان شاباً ثوريا ، يعتنق الفكر الاشتراكى والفلسفة الاجتماعية . منذ دخل الجامعة شغلته هموم الوطن ومشاكل الجماهير .. لكن العمل السياسى قاده إلى السجن أكثر من مرة . ابتعد عن السياسة وقال في داخله : إني

بريء من كل ما يتصل بكلمة : ساس يسوس سياسة .. فهو مسيس . العمل السياسي - في بلاد مثل بلادنا - محفوف بالمكاره والمخاطر . أصبح يؤمن بعد ذلك بأن الديموقراطية هي الحل . المجتمعات لا تتقدم إلاّ بحرية حقيقية ، يسندها الفكر الدستورى والتطبيق العملى. أخيراً .. اعتزل كل ما يتصل بالفكر السياسي من أي منظور . طلق السياسة ، وتزوج التجارة .. وهو الآن تاجر شاطر، يعرف نوعية التجارة المناسبة للسوق .. وكيفية التعامل مع الزبائن من كل نوع وجنس .

قال أدهم : عندي اقتراح .

رد عبد الله : ما هو ..؟

- أدعوكم لزيارة الكازينو بعد التوسعات الجديدة .

قال عبد الله : فكرة لا بأس بها .. على الأقل نغير جو الحزن والنكد . ما رأيك يا دكتور حمدى ؟

- أنا فى حالة انعدام وزن.. وعلى استعداد لعمل أيّ شيء ..!!

- بالمناسبة من معه سيارة يتركها .. وتعالوا نذهب معا في سيارتي المرسيدس الجديدة .. قال أدهم .

تردد أحمد حلمى .. ثم أردف : آسف .. لن أستطيع أن أحضر معكم .

تساءل سميح : لماذا يا حاج أحمد ؟

ـ منذ مدة لم أزر مسجد الحسين رضى الله عنه .. سأذهب لصلاة العشاء هناك .

قال أدهم : من أجل خاطرى يا حاج .. الجلسة لا تحلو من غيرك .. أنت بركتنا .

ـ سوف أكون معكم غداً بإذن الله .. في منزل الدكتور حمدى.

* * *

جلس الأصدقاء الأربعة على مائدة في الكازينو السياحى الذى يملكه أدهم بدير. المكان معدّ بطريقة جذابة .. الأضواء الخافتة الملونة .. الموائد المتباعدة .. الكراسى المريحة .. عمال وعاملات يلبون طلبات الزبائن بأقصى سرعة . الفتيات العاملات ـ بما فيهن الفتاة التي تعمل على الخزينة ـ جميلات أنيقات بشكل لافت .. ويلبسن زيا موحدا : جونلة زرقاء .. وبلوزة شفافة بيضاء نصف كم ، كأنهن عارضات أزياء . الموسيقى الهادئة .. والأغاني الأجنبية ، تعطى المكان جوا شاعريا حالما .

قال أدهم : اطلبوا ما شئتم .. المحل محلكم .

رد عبد الله وهو يخلع الجاكتة : اطلب لنا طبق المحل .. سمك مشوى ومقلى .. ولا تنس الجنبرى .. أخوك في حاجة إلى ما يقوى صحته .

أكمل سميح : الأهم ألاّ تنسى البيرة المثلجة .

كان أدهم يشاركهم الجلوس أحيانا .. ثم يتركهم لمراقبة العمال والعاملات في المطبخ .. وعند البار .. وفي وسط المحل .

في أثناء غيابه قال عبد الله : أدهم بيه .. لا أدهم باشا. الذى كان أدهم بديروف . أنصح واحد في شلتنا .. رجل عملى .. !

قال سميح : الاشتغال بالسياسة أعطاه قدرة على أن يكيف نفسه حسب الظروف .

أكمل حمدى : السبب في ذلك أنه طوال عمره يفكر بالعقل والمنطق . ليس للعاطفة أى تأثير في تفكيره أو سلوكه ، حتى عند ما تزوج .. اختار زوجة غنية .

قال عبد الله : كم دخل هذا المحل في يوم واحد يا سميح ؟

- لم تسأل ؟

- أعتقد أن دخل هذا المحل في يوم واحد .. أكثر من دخلنا جميعا في شهر كامل .

- لا تحسبها بهذا الشكل يا عبَّد .. قال حمدى .

رد عبد الله : الدنيا تغيرت يا دكتور .. المثاليات التى نشأنا عليها في قرى المنصورة انتهت .. لا ، ماتت ودفنت كما مات حسن . نحن الآن في عصر جديد .. السيادة فيه لأمثال أدهم . أدهم .. بطل العصر الحالي والآتي . وأمثالنا مجرد كورس .. لهم دور ثانوى محدود ، هذا إذا كان لنا دور أساساً .

صاح سميح : بيرة يا متر .. عاوز أنسى ، حتى لو استطعت أن أنسى اسمى .

عاد أدهم مبتسماً وحياهم بإيماءة ، ثم قال : ما رأيكم في النبيذ الأحمر ؟

رد عبد الله مازحا : النبيذ الأحمر.. ينفع في اليوم الأسود . أنت رجل عظيم .. الدنيا خرافة جميلة .. ياصديقى . اسقنى .. واسقنى ، حتى أرى الديك حمارا ..!!

قال سميح : عاشور قلب الأسد .. وصل .

تساءل حمدى : وصل إلى أين ؟

ـ وصل إلى المحطة .. أجاب أدهم مبتسما . أشعل سيجارة مارلبورو : أين صديقتك الفنانة زيزيت ؟

ـ أعجب بها مخرج عجوز .. وكتب معها عقدا مدة خمس سنين ، ويريد أن يجعل منها .. نجمة الموسم .

ـ إذا استطعت أن تحضرها .. فلك ولها عزومة محترمة على حساب المحل .

ـ لماذا ؟

ـ تشريفها إلى محلنا المتواضع .. أكبر دعاية له .

ـ عقلك كومبيوتر يا أدهم .. علق سميح .

قال حمدى : لولا هذه السهرة لقتلنا الغم على ما حدث في النقابة اليوم .

قال أدهم : لقد عملنا كل ما نقدر عليه من أجل المرحوم .. والباقي على الجهات المسئولة .

انتصف الليل . جاءت فرقة موسقية .. أخذت تعزف . بدأ بعض الزبائن يقومون بالرقص .. على أنغام موسيقى الديسكو .

- شكرا يا أدهم على هذه الليلة السعيدة .. قال حمدى .

- السهرة ستبدأ الآن .

- يكفى هذا الليلة .. نراك غداً عندى في البيت .

- إن شاء الله .. GOOD BYE .

* * *

ذهب أحمد إلى مسجد الحسين رضى الله عنه . بعد أن صلى العشاء جماعة ، توجه ناحية الضريح . أخذ يلف حول المقصورة المقدسة مُبتهلا بالدعاء .. الدموع تبلل لحية .. اختلط السواد فيها بالبياض:

رب إنى من أمة مسها الضرُّ ، وأنت أرحم الراحمين .. برحمتك نستغيث ، وبرسولك الكريم وأهل بيته .. نطلب الشفاعة والرضا.

اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، وقنا عذابك ، يوم تبعث عبادك . اللهم إيمانا بك ، وتصديقا بكتابك ، ووفاء بعهدك ،



واتباعاً لسنة نبيك .. نور بصيرتى ، واهد أمتى إلى الصراط المستقيم .. يا رحمن يا رحيم .

بعد أن انتهى من الصلاة والدعاء .. لفت انتباهه منظر سيدة في ملابس حداد سوداء ، تطوف حول المقصورة . ليس من عادته أن يُبحلق في امرأة . لكن هذه السيدة يبدو أنه يعرفها .. أو رآها على الأقل مرة . من تكون .. ؟! حاول أن يتذ كر .. أخيراً أدرك أنها مدام عطيات جارة المرحوم حسن . ترى ما الذى جاء بها من الدقى إلى حي الحسين .. ولم تلبس ملابس الحداد ؟ .. هل يذهب ويسألها ؟ يبدو أنها في محنة . لم يدر بخلده لحظة أنها جاءت من أجل ما جاء إليه .. وهو الدعاء بالرحمة للعزيز الراحل .

التقيا مصادفة .. عند باب المسجد . بادرته قائلة : السلام عليكم يا حاج أحمد .

ـ كيف حالك يا مدام .. لماذا أنت هنا ؟

ـ بيت الله .. مفتوح للجميع .. ومصائب الدنيا كثيرة .. في هذا الزمان الأسود .. !!

ـ الزمان .. لا يكون أبيض أو أسود ، إنه مجرد وعاء أو فضاء .. ونحن الذين نلون شكله ، لذلك .. ينبغى ألا نعيب الزمان ، لأن العيب في الناس .. الذين تحولوا إلى ذئاب ووحوش .

ـ لكن المرحوم .. كان ملاكاً طاهرا .

ـ لذلك مـــات .

ـ ألـم يظهر أي جديد في القـضـيـة ؟

ـ ولا أظن أنـه سوف يظهر .. قريباً على الأ قـل .

ـ لماذا يا حاج أحمد ؟

ـ الظروف غامضة .. والقـضـيـة معـقـد ة .

ـ عـندى أمل كبير .. في أن الله سوف يظهر الحقيـقـة .

اقتربا من ميدان الحسين المزدحم .. هنا مـنـطـقـة أثـريـة سياحية عـتيـقـة ، تـذكرك بماضى مصر العـظيـم . السائحون .. المواطـنون .. العـارفون .. التائـهون .. الداخلون .. الخارجون .. يسيرون جماعات متـفرقة وسط زحام الأضواء الملونـة .. ورائحـة العطـور والبـخـور .. والباعـة الشـعـبيـون ـ كل ذلـك أضفي على المكان .. جوا أسطوريا ومناخا سحريا .

حاول أن يـبـعـد عـطيات عن شـخـص يتعمد الاحـتـكاك بها بحجـة الزحام . حين رآها في ملابس الحداد تذكر أمراً ، لم يلتفت إليه عند وقوعه . ليلة مأتم حسن في القريـة .. كان زوج أمه الحاج على النجار ، يبدو أكثر حزنا من والـده الشيـخ إبراهـيم . الآن يبدو أن عـطيات أكثر الجميع حزنا عـلى العزيـز الراحل . ما الذي يجعلها حزينـة إلى هذه الدرجة .. ؟ لابد أن علاقة قوية كانت تربط حسن بأسرة صديقـه أشرف .

رحمك الله يا حسن .. فقد كنت نموذجاً فريدا من البشر .

عند نهاية الميدان سألها : كيف ستعودين إلى الدقي .. ؟

ـ سأركب الأتوبيس، لأني أخاف ركوب التاكسى في الليل .

ـ معك حق .. فقد اعتدو علي هالة في وضح النهار . على كل .. معي سيّارة .

ـ لا أريد أن أتعبك .

في الليل .. وسط الزحام أخذت السيارة تمضى نحو قلب القاهرة ـ الذى لا يهدأ .. ولا ينام .

جلسا صامتين .. وقد أحس كل منهما أن روح حسن ترفرف حولهما .

فوق كوبرى قصر النيل قال أحمد : على فكرة يا مدام سوف نقيم ليلة الأربعين غدا عند صديقنا الدكتور حمدى .. لو أردت أمر عليك ، ستكون زوجتى ...

ـ لا أقدر .. ما فيّ يكفينى .. !!

* * *

في منزل الدكتور حمدى الحسينى تجمع الأصدقاء من أجل إقامة ليلة الأربعين .. حضر الحاج أحمد وزوجته تغريد ، وعبد الله عاشور ، وسميح عبد المسيح ، والفنانة زيزيت .. بعد مدة جاء أدهم بدير .

جميع السيدات يلبسْن ملابس الحداد حتى أماني وإيمان . جلس الجميع خاشعين ، يستمعون إلى بعض آيات من « سورة الإسراء » .. تأ تى من مسجل كبير على المائدة ، بينما الرجال يجلسون في حجرة الأنتريه.. والنساء في حجرة المائدة ..

« وإذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » .

بعد أن انتهت التــلاوة .. أغلقت نسرين المسجل ، ثم ذهبت أماني وإيمان لإعداد القهوة .

قال أحمد : من أجل صديقنا الراحل .. أرجو أن نحافظ على أمرين .

تساءل سميح : ما هما يا سيادة الرائد ؟

- أن نحافظ على الصداقة الحميمة التى تجمع بيننا .

- والأمر الثانى يا حاج .. ؟ تساءل عبد الله وهو يجفف عرقه .

- أن نبذل أقصى ما نستطيع حتى نكشف سر هذه الجريمة البشعة.

قال أدهم : نحن في دولة مؤسسات .. هناك شرطة وبحث جنائي .. وقضاء عادل .. وحكومة وطنية .. يجب أن ننتظر ، حتى تظهر الحقيقة ..

- وإذا لم تظهر يا أستاذ أدهم .. ؟ تساءلتْ زيزيت بحدة .

قالت نسرين : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

أضاف حمدى : العجيب في الأمر .. أن المرحوم لم تكن له أي عداوات ، ولا حتى خصومات .. فلماذا يقتل .. ؟!

قالت تغريد : الأشياء التي سُرقت من عنده .. النقود والبطاقات والكتاب والسيارة ، ألا يدل ضياع هذه الحاجات على شيء ؟

قال أدهم : ربما كانت لها دلالة .. وربما كانت تمويهاً لسرٍ ما.

رد حمدى : صعوبة الملابسات الخاصة بالقضية .. لا ينبغى أن تجعلنا نتهاون في البحث عن الحقيقة .

قال أدهم : ألم تر .. ما حدث بالأمس ؟

قالت تغريد : ماذا حدث ؟

رد سميح : النقابة التى كان ينبغى أن تقيم حفل تأبين .. ألغته في اللحظة الأخيرة .

سألت زيزيت : دون إبداء أى سبب ؟

قال عبد الله : لم نجد حتى أي أحد نسأله .

أشعل أدهم سيجارة وقال بهدوء : اتركوا الشرطة والقانون يؤديان ما عليهما .

مرت إيمان تحمل صينية عليها أكواب ماء ، وخلفها أمانى

تحمل صينية عليها فناجين قهوة . مدام تغريد وزوجها هما الوحيدان اللذان لم يتناولا القهوة ـ بحجة أنهما غير معتادين على شربها في الليل .

تركت زيزيت مجلسها في ركن النساء .. وجلست بالقرب من الرجال . وسع لها أدهم المكان ، حتى تجلس بالقرب منه . نظرت الزوجتان في وقت واحد إليها نظرة دهشة .. !

قالت : عندى رأي .. أرجو أن توافقوني عليه .

قال أدهم وهو يتأملها بإعجاب : نحن موافقون على كل ما تقولين حتى قبل أن تتكلمى .

قالت نسرين بحدة : نسمع أولا .. ثم نوافق أو لا نوافق .. يا أدهم بيه .

أكملت تغريد : معك حق .. قولى يا أستاذة .

اتجهت الأنظار كلها نحو الفنانة الشابة : حسن مات .. الله يرحمه . كلكم قد أثر فيه الحادث .. أو حزن عليه وبكى . وأخذ كل واحد منكم يشكو إلى الآخر ، ولكن ..

تساءل عبد الله : لكن إيه .. يا آنسة زيزى ؟

ـ كل ما فعلتموه شغل عجائز المآتم ، لكن .. لم يأخذ أي واحد منكم موقفا إيجابيا .

قال الحاج أحمد : حاولنا.. وقابلنا بعض المسئولين أنا والدكتور حمدى .

قالت بتحد : والنتيجة لا شيء .. حتى بعد مرور أربعين يوما.

تساءل سميح : هذا رأيك ؟

- لا .. رأيى أننا نحن جميعا الذين قتلناه .

- كيف ؟!

- تعودنا على الفرجة .. كل منا يرى الخطأ، ولا يستنكره .. ويقع عليه الظلم ، ولايرفضه . هالة ماتت أول أمس .. وحسن مات أمس ، وقد أموت أنا اليوم .. أو أى واحد منكم غدا .. إلى أن ننقرض ونفنى ، لأن الجميع يقول : وأنا مالى .. !!

قال عبد الله : تريدين أن تقولى أننا نضربُ على الخد الأيمن ، فنديـر الخد الأيسر .

صاح سميح : لا .. السيد المسيح عليه السلام دعا إلى السماحة .. من موقف القوة والكرامة .

قالت زيزى : نحن نسكت من موقف الذلة والمهانة والجبن والخوف . ضيعنا الحرية .. ففقدنا زمام المبادرة .. !!

في هذه اللحظة تذكر سميح .. بعض عبارات من «إنجيل لوقا»..

« عـنـدما ترون سحابة تطلع من الغرب ، تقـولـون :

المطرآت .. وهكذا يكون .

وعـنـدما تهب ريـح الجنوب ، تقـولـون :

سيكون حـر .. وهكذا يكون .

يـامراءون : تعرفـــون أن تـمـيـزوا مـنـظـر الأرض والســمـاء ، فـكيـف لا تمـيـزون هذا الزمان ؟ ولماذا لا تميزون ما هو حق من تلـقـاء أنفسكم .. ؟! »

أما أدهم .. فـقد ذكرتـه حماسـة زيـزيت وجرأتها بأيام الشباب والنـضال . المسافـة تبدو بعيدة بين الماضي والحاضـر .. كان مثـلها في وضوح الرؤية والرغبة في تنوير المجتمع وتطويره . دافع عن الحرية قولا وعملا .. لكنه رأى الأرض بائرة .. والمياه راكدة .. والنفوس حائرة . زيزيت على حق .. لكن المناضل الثورى في داخله مات .. مثـلما مات حسـن . الثـبات على المبلغ .. أفضل من الثبات على المبدأ . الظروف جعلت كل إنسان يبحث عـن خلاص فردى وخبز طرى لنفسه ولأولاده . المال سلطـان العـصر الآتي . يسـاوى قـرشا من معه قرش . الـفقـير يتحاشاه الناس ، كأنه بعير أجرب . نسى النضال السيـاسي والتقـدم الفكرى والديموقـراطية واحترام الرأى والرأى الآخر ، بـل نسى حتى الإحسـاس بالذنـب . لم يعد أدهم يخلص إلاّ إلى أمر واحد ، هو كيف ينمي دخله .. ويصبح مليونيرا في عصر الانفتاح ؟!

قال الحاج أحمد : تعجبني شجاعتك يا آنسة .. أنت على حق في كل ما قلت .

قال عبد الله : أرجو أن تحافظ الفنانة الرقيقة على مبادئها في الوسط الفني .

ـ أعدك بهذا .. ولن أتحول كما تحول غيري .

فهم عبد الله أنها تقصده ، فسكت دون أن يعلق .

قال سميح : هذه ليلة عزاء .. وليست جلسة محاكمة .

انتفض أدهم واقفا : استأذن .. لابدّ أن أذهب إلى الكازينو.

التفت ناحية زيزيت : تريدين أن أوصلك .. معي سيارة مرسيدس مكيفة ؟!

ـ شكرا .. أعرف طريقي جيدا .

تأمل عبد الله ـ أكثر من غيره من الحاضرين ـ النجمة زيزيت ، وهي تمضي في ثقة وكبرياء ، وقد أكسبتها ملابس الحداد هيبة ووقارا . فتاة صغيرة ، جميلة ، ذكية القلب ، حادة الرؤية . منذ فترة قليلة كانت تربطهما صداقة طيبة . الآن صار كل في طريق .. بعد أن رفضت بإصرار ـ تمثيل قصة كتبها لفيلم من أفلام المقاولات .. بحجة أنها مثل اللب والفيشار ، وإن قبلت الدور فسوف تفقد احترام نفسها ، وتخون رسالة للفن النبيل تريد أن تلتزم بها .

عبد الله لم يفقد صداقة زيزيت فحسب ، وإنما خان العهد الذي وعدبه حسن عندما زاره في البيت ، ووعده ألا يتنازل عن الرسالة السامية للفن التى يؤمن بها ، وأن الكاتب ينبغى أن يكون ملتزما بقضايا المجتمع الساخنة . كان يعزى النفس بأنه .. ليس هو الوحيد الذى تغير . أدهم تحول أيضا عن كل ما كان يؤمن به من قيم الحرية ومبادىء النضال . الفارق الجوهرى بينهما أن أدهم تحول .. وهو واع وعيا كاملا بأنه قد تحول ، ويعلن ذلك صراحة دون إحساس بالأسى أو الأسف ، لكن عبد الله تغير .. ولايريد أن يعرف أحد من أصدقائه الأقربين ذلك ، بل إنه يعلن ـ أحيانا ـ أنه لايزال أعزب ، لأنه تزوج قضية الفن .. !! الحقيقة أنه اكتشف مؤخرا أن حياة العزوبية أكثر ملاءمة لمن يحاول أن يسبح في بحر الفن الواسع . تذكر مقولته التقليدية : الحياة خرافة جميلة يا صديقى .. لكنه أضاف إليها هذه المرة .. يا صديقى أدهم بطل العصر الآ تي .

* * *

مضى على ليلة ذكرى الأربعين التي أقامها حمدى في بيته أكثر من أسبوع ، لكنه لا يزال حزينا مهموما . كان محيرا بسبب هدوء أدهم ودعوته إلى الانتظار، حتى تكشف الشرطة أسرار الحادثة ، ويقول القضاء كلمته الحاسمة . لكن من يدرى .. لعل القضية تحفظ لعدم كفاية الأدلة . زيزيت كانت على حق .. ضاعت الحرية وفقدنا القدرة على المبادرة. نفتش عن الجناة، ونحن جزء من آليات الجريمة .

أحس أنه أكثر الجميع التزاما بالمسئولية بحكم أنه الوحيد الذي اطلع على المذكرات . حسن - بلاشك - كان مطاردا من أكثر من جهة . ما هي .. على وجه التحديد ؟! لا بد من أن يعيد قراءة المذكرات على هدوء ، حتى يصل إلى رأى موضوعى قبل أن يوجه إصبعه نحو جهة ما . لا أحد يقتل من أجل التسلية والترفيه . الجناة لم يقتلوا فحسب ، وإنما قتلوا .. ومثلوا بالجثة تمثيلا وحشيا . حسن قتل في ظروف غامضة ، تشبه تلك الظروف التي اعتدى فيها على هالة .

زوجته احترمت صمته طويلا .. لكنها اليوم تخشى أن يصاب بالاكتئاب والضياع . الحي أبقي من الميت .. تلك سنة الحياة ، لذلك يجب أن تساعده على الخروج من أزمة ، ألقت بظلالها السوداء على كل من في البيت حتى البنتيْن . دخلت حجرة المكتب ، حيث يجلس وحيدا .. في ضوء أبا جورة ذات ضوء خافت - وقد بدت عليه آثار الحزن والحيرة .. !

- ماذا تفعل وحدك .. يا حبيبى ؟

- لا شيء .. فقط أفكر .

- متى تكف عن هذه العادة .. أهملتَ عملك .. وتناسيت أسرتك .

- أرجو أن تتحمليني يومين .

ـ أستطيع أن أتحملك طول عمرى .. أنا مقدرة مشاعرك نحو المرحوم . لكن البنتين .. ما ذنبهما .. ؟

ـ قلت لك يومين فقط .. يا نانا .

ـ قم لننام ، حتى تقدر على الذهاب إلى المستشفي في الصباح. يكفى ما أخذته من إجازات .

ـ اعدى كوبا من الشاى ، وسألحق بك .

ذهبت إلى المطبخ ، بينما بقى وحيدا . أخرج ذكريات حسن .. بعد أن فتح درج المكتب بهدوء . منذ قرأ هذه الذكريات وصورة حسن ما برحت ماثلة أمامه في كل موقف .. وفي كل مكان . المسألة لم تعد بالنسة له اغتيال حسن فحسب ، وإنما جدت مشكلة أخرى .. هل ينفذ وصية حسن ، ويضع المذكرات في درج المكتب ، ولا يطلع عليها أحدا حتى زوجته .. أو يسلمها إلى الشرطة والنيابة ، إذ ربما يجدان فيها ما لم يجده هو .. من الأدلة التى قد تساعد على اكتشاف إطار الجريمة وتحدد نوعية الجناة .. أو يلجأ إلى مصطفى فودة ليساعده على نشرها في كتاب ، لأنها الأثر الوحيد الباقى الذى يخلد ذكرى العزيز الراحل ، بالإضافة إلى أنها شهادة صادقة على العصر المضطرب الذي نعيش فيه .. ؟!

تحير فكره .. وانشطرت روحه . لم يعد يدرى ماذا يمكن أن يصنع .. ؟ المذكرات أمانة .. والجريمة مسؤولية . بين الأمانة

والمسئولية أمسى حائرا.. مثل بندول ساعة عتيقة ، لا يستقر هنا .. أو هناك .

دخلت زوجته بعد أن لبست قميص نومٍ أبيض .. وتعطرت .. وجددت المكياج . وضعتْ صينية على المكتب .. لم يلتفت إلى ما عليها في بداية الأمر .

- ما هذا .. ؟

- عصير ليمون ، يروق دمك ، ويساعدك على النوم .

- صرت لا أطيقه .

- لماذا ؟

- أمر يطول شرحه .. !!

تأملته وهو يمسك المذكرات التي أحضرتها من خزينة البنك . منذ قرأ هذه الأوراق السرية .. لم يعد حمدى الذى تعرفه . ماذا كتب حسن فيها ؟ لم تحاول أن تسأله .. ولكن إلى متى ؟ الزوجة الحكيمة لابد أن تكون قريبة من الزوج .. في كل لحظة .. وفي كل خاطرة . حزن حمدى على وفاة حسن .. يبدو أكثر من أنسه بوجودها معه . لا يكفى الزوجة أن تكون حبيبة ، وإنما ينبغى أن تصبح صديقة .. طبيبة .. ملهمة .. تلميذة .. بل ينبغى أن تكون أمًا .. تعطى .. وتعطى بغيْر حساب ..!!

اقتربت منه ، وهي تمسكُ كوب الليمون ..

ـ هـل قـرأت المذكرات ؟

ـ نعـــم .

ـ مـاذا تـنـوى أن تـفـعـل بها .. ؟ !

ـ لا أسـتـطـيع .. أن أتـخـذ قـراراً الآن ....

.... (*)

(*) كتبت فـصـول هـــذه الرواية في : مكّة الـمكرّمة .. خـلال الفــتـرة من أغســـطـس إلى ديـســمـبر ١٩٩٧ = ربيع الـثـاني إلى شـعـبان ١٤١٨هـ .

قائمة بأعمال المؤلف الأدبية

أولا : في مجال الرواية :

١ ـ الأفق البعيد	١٩٨٤ ـ ١٩٩٢
مترجمة إلى الإنجليزية	١٩٩٧
٢ ـ الممكن والمستحيل	١٩٨٧ ـ ١٩٩٢
٣ ـ الكهف السحري	١٩٩٤
٤ ـ عصر الليمون	١٩٩٨
٥ ـ الشمس تشرق في غرناطة	تحت الطبع

ثانيا : في مجال القصة القصيرة :

١ ـ عمار يا مصر	١٩٨٠ ـ ١٩٩١
٢ ـ الدموع لا تمسح الأحزان	١٩٨٢ ـ ١٩٩١
٣ ـ حكاية الليل والطريق	١٩٨٥ ـ ١٩٩١
٤ ـ دائرة اللهب	١٩٩٠ ـ ١٩٩١
٥ ـ العشق والعطش	١٩٩٣
مترجمة إلى الإنجليزية	١٩٩٨
٦ ـ صرخة في غرفة زرقاء	١٩٩٦ ـ ١٩٩٦

ثالثاً: في مجال السيرة الذاتية:

- الليـالي (ح ١)　　　　١٩٩٠ ـ ١٩٩٢

رابعاً: في مجال المقال الأدبي:

- في البدء تكون الأحلام　　　　١٩٩٥

خامساً: في مجال الدراسات الدينية:

١ ـ أولو العزم من الرسل (جزءان)　　　　١٩٩٦ ـ ١٩٩٨

٢ ـ المسلمون في العالم　　　　تحت الطبع

رقم الإيداع : ١٠٦٩٧ / ٩٨
الترقيم الدولى : 6 - 1206 - 11 -977

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه